

محمد السباعي

الأبطال

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

الأبطال

ملخص كتاب الأبطال

لخصه الشيخ عبد الرحمن البرقوقي

ملخص المحاضرة الأولى

البطل فى صورة إله

موضوع هذا الكتاب هو الكلام عن عظماء الرجال - تاريخ عظماء الرجال هو التاريخ بمخافيره ١ - فائدة ذكرى العظماء - أهم ما فى الفرد أو الأمة دينها - ما هو الدين ؟ ٢ - الوثنية وآراء العلماء ٤ - فى كل دين عنصر من الحق ٥ - حقيقة الوثنية وكيف ابتدأت ؟ - عظمة الكون ٨ - فى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد ١٠ - أكبر آيات الخالق هو الإنسان - كان الأقدمون أفهم منا لجلال هذا الكون ١٢ - معنى عبادة الأبطال ١٣ - ضلال منكرى البطولة ١٤ - عقيدة إجلال الأبطال فطرية فى الإنسان - أبعد الإنسان من إجلال الأبطال هم الفرنسيون - والفرنسيون مع ذلك يقدسون فولتيرهم ١٦ - فضيلة إجلال الأبطال هى الصخرة الراسخة التى تمنع الدول من السقوط ١٧ - وثنية قدماء الترويج - جزيرة أيسلندة مقر تلك الوثنية ١٨ - أول من دون أخبار هذه الوثنية ١٩ - أول خواص هذه الوثنية هو الإيمان بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة مقدسة - فرق ما بين نظر المتوحشين الكائنات ونظرنا إياها اليوم ٢٠ - جوهر هذه الوثنية ٢٢ - رأى وثنى الشمال فى خلق الدنيا ٢٣ - تشبيههم الحياة بشجرة

٢٤ - تأثير البطل ٢٥ - تأثير أودين فى أمم الشمال ٢٦ - تاريخ أودين - رأى المؤرخين فى أودين ٢٧ر٢٨ - كل نعت كان فى الأصل اسماً - كيف صار أودين إلهاً ٢٩ر٣٠ - اختراع أودين لحروف الهجاء والشعر ٣١ - إفراط أمم الشمال فى حب أودين ٣٣ - إخلاص أمم الشمال فى وثنتهم ٣٤ - فرق ما بين وثنتهم فى الأول وفيما بعد - عقائدهم كما فى الأدا - الشجاعة هى أعظم أصول الشرائع ٣٥ - خرافات الاسكاندناف .

ملخص المحاضرة الثانية

البطل فى صورة رسول

محمد - الإسلام

من أكبر العار القول إن محمداً كذاب - ومثل هذا القول نتيجة أجيال الكفر وحيث القلوب ٤٩ - الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب فكيف يوجد ديناً - على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة - محال أن يكون الرجل الكبير كاذباً ٥٠ - إخلاص الرجل الكبير ٥١ - كلمات الرجل العظيم ضرب من الوحي - الهفوات لا تزرى بصدق الرجل العظيم ٥٢ - من أكبر الهفوات أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات ٥٣ - العرب وصفة جزيرة العرب - التدين - سفر أيوب كتب فى بلاد العرب ٥٥ - الحجر الأسود والكعبة - بئر زمزم ٥٦ر٥٧ - مكة ٥٧ر٥٨ - مولد محمد (عليه السلام) ٥٩ - نشأة النبى وقيام جده وعمه بتربيته وسفره الشام والتقاؤه ببخيرا الراهب ٥٩ر٦٠ - أمية النبى ٦٠ - صدق النبى منذ فتائه - الابتسام الصادق والكاذب ٦١ - عيشته الهادئة وقصته مع السيدة خديجة ٦٢ - إخلاص النبى وصدق نبوته وإنه كان نافذ البصيرة لا يتقيد بالاصطلاحات - من مزايا الرجل العظيم نظره من خلال الظواهر إلى البواطن

وأنة لا يتقيد بالتقاليد والعادات ٦٣ر٦٤ - اختلاء النبي بنفسه واعتزاله الناس
شهر رمضان ٦٤ - ابتداء البعثة - حقيقة الإسلام وكلمة حيايتى فيه ٦٥ر٦٦
الوحى وجبرائيل ٦٦ر٦٧ معنى كلمة محمد رسول الله - فضل السيدة خديجة
التي هى أول من أمنت به ٦٧ - الدعوة إلى الإسلام وما لاقاه النبي فى ذلك
- المأدبة التي اجتمع فيها أربعون من أقرباء النبي وما أظهره على من المروءة
والنجدة وفضل على ٦٨ - استياء قريش من عمل النبي - إشارة أبى طالب
على النبي بإخفاء دعوته وعزيمة النبي - استمرار النبى فى تأدية الرسالة
ووجوده الشدائد ٦٩ - تألب قريش على قتل النبي وهجرته بعد ذلك إلى
المدينة ٧٠ - الرد على الطاعنين على نشر الإسلام بالسيف ٧١ - عدل
الطبيعة ٧٢ - كان الإسلام خيراً من النصرانية فى تلك الأوقات ٧٣ - إتيان
الإسلام على وثنية العرب والعقائد الذائعة فى تلك الأيام ٧٤ - القرآن
وإعجازه ٧٥ - من فضائل القرآن الإخلاص - الإخلاص منشأ الفضائل
٧٦ر٧٧ - المعجزات فى نظر الإسلام ٧٧ - الرد على متهمى الإسلام
بشهوانيته ٧٩ - تواضع النبي وتشفه ٨٠ - مكرمات النبي - براءة النبي من
التصنع والرياء ٨١ - ما كان النبي بعبابث - التلاعب بالحقائق من أفضع
الجرائم - من خلال الإسلام التسوية بين الناس ٨٢ - الزكاة فى الإسلام -
الجنة والنار فى نظر القرآن - الصيام فى الإسلام ٨٣ - منزلة الإسلام فى
نفوس المسلمين - تأثير الإسلام فى العرب وفضله عليهم ٨٥ .

ملخص المحاضرة الثالثة

البطل فى صورة شاعر

دانتي .. شاكسبير

العظيم يمكنه أن يكون عظيما فى كل فن ٨٧ - الفرق بين الشاعر والنبي
- ويل الذين لا يفقهون السر الإلهى الموجود فى الكائنات ٨٩ - فضل
الأنبياء والشعراء على الناس ٩٠ - الفرق بين الشعر الحر والكلام الحر -
حقيقة الشعر ٩٢ - لا يزال فى الناس غريزة إجلال العظيم على الرغم من
الشك والكفر والاستخفاف المتفشية فى هذه العصور ٩٥٩٤ - إجلال
الناس لدانتي و شاكسبير ٩٦٩٥ - غموض تاريخ دانتي - صورة دانتي
ودلائها على أخلاقه ٩٦ - مولد دانتي ونشأته ٩٧ - كل شعر لا يصلح أن
يتغنى به فما هو شعر - الشعر الكاذب مؤلم ١٠٢ - الطبيعة لا تكشف
أسرارها إلا للولوع بها والمحب لها المخلص - الحب الصادق أول هاد إلى خبايا
الحقائق ١٠٥ - حديث الغادة فرانسسكا وعاشقها ١٠٦ - من لم يعرف
القسوة لا يعرف الرحمة ١٠٧ - فرق عظيم بين ما يخرج من أعماق النفس
وبين ما يخرج من ظواهرها ١١٢ - العمل فى صمت خير من العمل فى
جلبة - قيمة كل امرئ ما يحسن ١١٤ - شاكسبير وعظمته ١١٥ - روايات
شاكسبير ١١٧ - أصح قياس لمقدار عقل الرجل ١١٨ - قيمة المرء بمقدار
بصيرته - ما يجب على الشاعر الكاذب ١٢١ - أفعال المرء وأقواله دليل عليه
- البصيرة مستحيلة الوجود بلا أثر ولا أخلاق ١٢٢ - الطبيعة والحقائق
للخسيس اللئيم كتاب مخنوم - كان شاكسبير غير متعمد ١٢٣ شاكسبير
للإنكليز أفضل من الهند - ستهب الهند ولكن شاكسبير لا يذهب ١٢٧ .

ملخص المحاضرة الرابعة

(البطل فى صورة قسيس)

لوثر - البروتستانتية - نوكس - البيوريتانية

من هو القسيس ؟ - القسيس الحقيقى ١ - كان لوثر ونوكس قسيسين
مصلحين ٢ - كما أن العظماء بينون الأديان كذلك قد يهدمونها وقد يكون
المهدم ضروريا ٣ - الإنسان سائر فى درج الرقى ٥٤ - فساد العقائد وتفشى
الشك والإلحاد من أسباب إصلاح الأديان ٦ - معنى الوثنية وسبب مقاومة
الأنبياء إياها ٨٩ - لوثر فى مقاومته مسألة الغفران وما شابهها
١٠ - من الخطأ الظن أن البروتستانتية محت عبادة الأبطال والثقة
بزعماء الدين ١١ - البروتستانتية منشأ الملكية الصادقة - رأى الشخصى
فى العبادة ليس أمراً جديداً فى العالم ١٢ - ليست الفوضى نتيجة البحث الحر
ولكنها نتيجة الكذب وضعف الإيمان ١٣ - لا بأس على غير العظيم أن يعتقد
رأى العظيم - مولد لوثر ١٤ - أبو لوثر - لوثر وهو تلميذ
١٥ - موت « ألكسيس » صديق لوثر بالصاعقة وتأثير ذلك عليه
١٦ - لوثر وهو قسيس ١٧ - تأثير الإنجيل فى نفس لوثر - رؤية لوثر مدينة
رومة لأول مرة ١٨١٩ - غواية البابوية إذ ذاك ١٩ - كان البابا يبيع الناس
عفو الله - تحكك أحد أتباع البابا بلوثر فى قرينته ٢٠ - ثورة لوثر ضد البابا
وكتابه رسالة يرد بها عليه - مقاومة البابا للوثر وأمره بإحراق كتاباته
٢١ - حنق لوثر على البابا وإحراقه لائحة البابا ٢٢ - كان لوثر فى مقاومته
أضاليل البابا كالأنبياء فى مقاومة الأصنام ٢٣ - حفلة ورمز وظهور لوثر هناك
٢٤ - تأثير دعوة لوثر فى نهضة أوروبا ٢٥ - مما امتاز به لوثر ثورته فى وجه

الدين دون إراقة الدماء - ومن مزاياه التسامح - ومن مزاياه الشجاعة ٢٥ -
عدة مزايا للوثر ٢٨ر٢٩ر٣٠ - وجه لوثر ودلالته على أخلاقه - آخر كلمة
للوثر ٣٠ - تشعب البروتستانتية ٣١ - رحلة القسيس تيندال إلى بلدة لوثر
وترجمته الإنجيل هناك ٣٢ - جامعتا كامبرج وأكسفورد في تلك الأوقات -
تأثير الإنجيل في أدب الإنكليز - الإنكليز قبل الإنجيل ٣٣ - تأثير الإنجيل في
أخلاق الإنجليز ٣٤ - البيوريتانية في أول أمرها وأخلاق البيوريتاني
٣٥ر٣٦ر٣٧ر٣٨ر٣٩ - البيوريتانية في أمريكا ٣٩ر٤٠ - تأثير البيوريتانية
في أسكوتلاندة - نوكس في أسكوتلاندة تاريخ نوكس ٤١ر٤٢ - إخلاص
نوكس ٤٣ - شجاعته ٤٤ر٤٥ - نوكس مع الملكة ماري ٤٥ر٤٦ -
التسامح الحقيقي ٤٧ - مذهب نوكس ٤٩ -

ملخص المحاضرة الخامسة

« البطل في صورة كاتب »

جونسون - روسو - بيارنز

الكاتب صنف جديد غريب من البطولة ٥١ - الكاتب صنفان جيد وردى
٥٢ - طبيعة الرجل الكاتب ٥٣ - أكبر كتاب القرن الثامن عشر هو جيتا ٥٤ -
كلامنا الآن عن أكبر أبطال القرن السالف جونسون وبارنز وروسو - الشكوى
من اختلال نظام المجتمع ٥٥ - مسألة الكتاب والكتب أصل كل اختلال ٥٦ -
صناعة الكتابة أعجب ما أبدع الإنسان - فضل الكتب ٥٧ - منشأ الجامعات
٥٨ر٥٩ - الكتب نحر الجامعات الآن - الكتاب هم الكنيسة الفعالة في الأمم ٦٠ -
ما الأدب إلا جلاء لأسرار الله ٦١ - تأثير الأدب في الحكومة ٦٢ - الكتاب
أشرف نتاج ذهن البشرى ٦٣ - مع خطورة شأن الكتاب فإنهم في أسوأ حال

٦٤ - لا ضير على الحر أن يكون فقيراً ٦٥ - كيف يعرف الكاتب الكبير الذى يستحق المعونة ٦٦ - من أسوأ الأحوال ترك الكتاب للصدف ٦٧ - داء الفوضى الكتابية أصل سائر الأمراض فداوه تشف المجتمع - فى الصين يحاولون اختيار ملوكهم من بين أدبائهم ٦٨ - من أكبر الآفات الإلحاد والكفر - الإلحاد فى القرن الثامن عشر ٧٠ و٧١ - أصل الآفات الشك ٧٢ - الكفر المحض خير من الشك ٧٣ - الإيمان نتيجة الذهن الصحيح - ليس الشك نفسه جريمة ٧٥ - مضار الشك فى كل شيء ٧٦ - أولى بالإنسان أن يهتم بأمر نفسه - وأحق الناس بهذه النصيحة أولئك الذين يطوفون الأرض لإصلاح الناس ٧٨ و٧٩ فى أزمان الكفر كان يعيش جونسون وبارنز وروسو ٧٩ - جونسون ٨١ - حكاية الحذاء ٨٢ - تعاليم جونسون ٨٥ - كتابات جونسون - أسلوب جونسون قاموس جونسون - العبرة بالمعاني دون الألفاظ ٨٦ - اللورد بوزيل صاحب جونسون وأكبر مقدسيه - الخلطة لا تنهب بإجلال الأبطال ٨٧ - روسو - الجلد والصبر هما أول شروط البطولة ٨٨ - أخلاق روسو - قصة روسو مع السيدة جنليز ٨٩ - حديث روسو مع زائره الريفى ٩٠ - مكانة روسو من الكتابة ٩١ - إساءة العالم روسو ٩٢ - روبرت بارنز ٩٣ - والد بارنز ٩٤ - بارنز وهو صيى ٩٦ - بارنز أكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ٩٧ - حديث بارنز الساحر ٩٨ - ميرابو وبارنز ٩٩ و٩٨ الحكومة وبارنز - أهم صفات بارنز الإخلاص ١٠٠ - إجلال الأبطال هو العزاء عن شقائهم ١٠١ - وفدة بارنز على أدنبرج ١٠٢ - الشهرة ضياء يريك حقيقة الرجل ١٠٣ - ما عاناه بارنز ١٠٤ .

ملخص المحاضرة السادسة

البطل في صورة ملك

كرومويل - ناييلون

الثورة في العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

خلاصة أعمال المجتمع الإنساني هو الاهتمام إلى أعقل الرجال وتقليده الحكومة وإعطاؤه الخضوع والطاعة ١٠٥ - أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم ١٠٦ - الأمانى والآمال ١٠٦ر١٠٧ - أصل كل فتنة جعل غير الكفاء على رؤوس الأعمال ١٠٧ر١٠٨ - موضوع حقوق الملوك المقدسة وبطلانه ١٠٨ر١٠٩ - تفصيل حقوق الملوك ١٠٩ - الثورة الفرنسية حق وإن كان حقا ملتفعا فى شواظ الجحيم ١١١ - ثوار الثورة الفرنسية وعدم احترامهم الأبطال ١١٤ - منهج الحرية والمساواة ومعناه ١١٥ :

المحاضرة الأولى

« البطل فى صورة إله »

إنما يضمنى وإياكم هذا المقام وتواليه للكلام شيئاً عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مراسح الحياة والأشكال التى تشكلوها فى تاريخ البشر وآراء الناس فيهم وماذا أحدثوا من الأعمال - للكلام عن الأبطال وعمما استقبالهم به أهالى أزمانهم وعمما صنعوا هم من جلائل الأمور - ولعل هذا مبحث عريض لا انى موفيه حقه - مبحث لعمر الله قصى الغاية يشق على نزع الخواطر مرماه ويقع وراء جهد الأرهام منتهاه. وما ظنكم بمبحث هو التاريخ بمخافيره إذ فى اعتقادى أن التاريخ العام - تاريخ ما أحدث الإنسان فى هذا العالم - إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقودة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائماً فى هذا الوجود كاملاً متقناً فاعلم أنه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير ، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

بيد أن من أسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء كيفما كانت نفعاً وقائدة ، والرجل العظيم لا يزال بعد موته ينبوع نور يتدفق ، فليس أحسن من مجاورته شىء - نور يضىء ، وكان يضىء ظلمات الحياة وليس هو كسراج أشعل ولكنما نجم شفته يد الله بين أشباهه من مواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الكبير ، وهو الذى فى شعاعه أنس الأرواح وروح النفوس ، ومتمتع الخواطر. وليس فى ظنى أن أحداً منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد. وبقينى أن نظرة فى

تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبابه وما أسعدنى لو أستطيع فى مثل هذا العصر الذى ضعف فيه إجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئاً من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبي هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس، ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولكنى محاول وباذل مجهودى.

لقد قيل - وصدقا ما قيل - إن أهم ما فى الرجل دينه - والأمة مثل الفرد فى ذلك - ولست أذهب بلفظة الدين إلى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب إليه والقواعد المليية التى يعدها ويشهد بها ، فقد ترى الرجل الذى ذلك شأنه يسفل إلى أدنى حضيض اللؤم والخسة على الرغم من شدة تمسكه بقواعد الدين فهذا ما لا أسميه الدين ، هذه الإقرارات والاعترافات أبعد ما تكون فى الحقيقة من الدين إذ هو اعتراف وإقرار لم يصدر إلا من ظواهر الرجل وبواديه - أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية - وذلك أقصى ما عنده . ولكن جوهر المسائل للرجل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشئ الذى يعتمده حق الاعتقاد ويوفق به كل اليقين ، فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الكون الجسم الأسرار ، وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته - ذلك هو دينه وربما كان إلهاده وكفره - هو اعتقاده أنه متصل بعالم الإلهيات أو بلا عالم مطلقاً - فإذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شئء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة ، لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانتته أو ديانتهم . هل هى الوثنية أو تعدد الآلهة - أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلاً حسياً وعبادة القوى الطبيعية ؟ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى ومخلود الروح وارتكاز الوقت على عالم الأبدية ، أعنى بذلك استبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة ؟ أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول أم لا ؟ بل ربما كان إلهادا محضاً وكفراً مبيناً . فعندى أن الإجابة عن هذا السؤال هو إعطاؤنا روح تاريخ

الفرد أو الأمة إذ أن أعمال الأمة أو الفرد إنما هي بنات أفكارهم ، وما نتجت
ظواهر الآثار إلا من مستسر الضمائر . ومن ثم أقول : إن دين الأمة هو أهم ما
لديها ، فجدير بنا في هذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من أخطر وجوه
البحث وأكبر أركانه ، فإنه متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كل شىء .
وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » الرجل الذى كان يعبده قدماء السويد والنرويج
وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار ، فلنتظر برهة إلى البطل فى صورة
معبود وهو أقدم أشكال البطولة .

* * *

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لا يكاد يتصوره الوهم . وهل
كانت إلا متكاثفات أضاليل وسخافات وأباطيل ؟ قد نبتت فى الحياة الغابرة
فالتفت أعياصها واستأشبت أدغالها وخيمت على أكناف الحياة غواشى قبائها
ودواجى ظلالتها ! مما لا يكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن ناسا عقلاء
أبقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك ، أعنى يعبدون
رجلا منهم ! لا بل يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما إليها من أصناف
الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشا من كل أضلولة وأبطولة
فيحسبونه فلسفة الكون - أما والله ما أحسب كل هذا إلا حديث خرافة .

بيد أنه لا شك فى أنهم كانوا يأتون ذلك . كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون
تلك الكفريات الفظيعة المنكرة ويطمئنون إليها ويعيشون بها عجباً أى عجب !
وخليق بنا أن نطرق مليا ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفس الإنسان
من أعماق الضلال وظلمات الجهل . فإن ما أشرت إليه من مستكر المدهشات
قد كان فى الإنسان ولا يزال بل هو فى جميع الناس وفينا أيضا .

بين الجدلين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية إلا كلمة واحدة ، إذ
يقولون هى باطل وغش وإنه لم يؤمن بها عاقل قط وإنما هى أكذوبة لفتت
لخداع أناس لا يصبغ أن يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن
الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر ، وإنسى لأدفعه الآن عن

الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الإنسان دهرًا ما فى هذه الحياة. فلم يك دين قط إلا وفيه عنصر من الحق ، ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم ديناً ما - ولا ننكر أن الأخاديع والأكاذيب تكثر فى الأديان ولا سيما فى عهودها المتأخرة إذ يعتمرها الوهن والاضمحلال. ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان - إنه ما كان قط للأديان حياة وقوة بل كان داعها ونذير آجالها - فاعلموا ذلك - أصلحكم الله - ولا تنسوه : فىنى لأظن أن من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال إن ديناً من أديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فإن الكذب لا ينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد ، وإنما من دأبه أن يفنى ما أصاب ويقتل كل شيء حتى لو حاولنا أن نحيط علماً بأمر ما فأتيناه من ناحية أكاذيبه ، كان ذلك جديراً أن يحفى عنا حقيقته. وهى ما لا ينكشف لنا حتى نفنى تلك الأكاذيب البتة كأنها أمراض ومفاسد واجب على كل امرئ استئصال شأفتها سواء من الأذهان والأعماق والأعمال ، إذ أن الإنسان - حيثما كان - عدو الأكاذيب بل لأرى الحق حتى فى وثنية أهل التبت (من أقاليم الصين) أقرأ ما دونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » فى حديث سفارته إلى تلك البلاد ، تجد أن هؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل كل حين إلى الأرض بشراً يمثله ويحمل صورته وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا ، أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلاً هو أفضل الرجال قاطبة - وأن هذا الرجل يمكن الاهتداء إلى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله يرسل فى كل جيل رجلاً يمثله ، فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور. ولقساوسة هذه الأمة طرق إلى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم - طرق وايم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن إذ لا نفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملوكية) وأسفاهه... ولكن أرجع إلى ذكر الوثنية فأقول : إنه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولاً أنها كانت فى حين من الأحيان ديناً صحيحاً فى اعتقاد أهلها ، فلنوقن كل

اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنتهم حق الإيمان ولم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس أيقاظا قد صورهم الله على صورنا وخلقهم كخلقنا لا فرق بينهم وبيننا مجال من الأحوال. لنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم لآمننا بما كانوا به يؤمنون ولكننا وهم سواسية فى سائر الأشياء. وإذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألونى ماذا كانت تلکم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل - وهو قول أوجه - إن منشأ الوثنية هو شعر الشعراء ، أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والإحساسات فى رموز من الأفاصيص وضروب من الججاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد جريا على قانون أساسى من قوانين النفس البشرية ، وهو أن كل ما جرى فى وجدان المرء من إحساس شديد لا يرى بدا من إخراجه بواسطة النطق، ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شىء منظور حتى كأنما هو شىء حتى ذو حقيقة تاريخية ولا شك فى أن هنالك قانونا كذلك وأنه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمکانا. ولا شك أيضا فى أنه قد كان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية. وإنى وإن شهدت بشىء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله إلى الرموز الشعرية ، لكنى لا أعددتها النظرية الصحيحة. وإنى أنشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم إن الأمر لأخطر من ذلك وأجل وأحوج إلى الجدد منه إلى اللعب. إن أمر الحياة من أكبر الجدد وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل إنه الجدد أمر من كل جدد ، والحق أمر من كل حق.

فقد رأيت أن أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وإن كانوا قد أخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية. فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين إنما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والإحساسات.

ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة إنها السبب وعن الغاية إنها الأصل. فإن الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأفاضيل الشعرية أول حاجهم وأكبر همهم ، وإنما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة. وماذا يرجون وماذا يخشون وماذا يأتون وماذا يتركون. فإذا أخرج الشاعر قصة موقنة جعلها رمزاً لمعتقدات جيله ؟ أم حسب أنها أقدم عهداً من تلك المعتقدات ؟ كلا بل كانت العقائد أولاً ثم أنشئت القصيدة رمزاً إليها وتمثيلاً لها. فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها. ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجدل فإتما هو لعب وفكاهة وهو من عبث الخاطر إذا قيس إلى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها. فقصارى القول أن الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لامسببتها ، فعلىنا إذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة - وماذا كانت ؟

* * *

تذكرون ما توهمه أفلاطون من أنه لو ولد إنسان فى حجرة فى جوف الأرض فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ، ثم أخرج بغتة إلى ظاهر الأرض فإذا الشمس بارزة فى موكب لألائها. ماذا يبلغ به العجب والاندھاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فىنا ساكننا ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أقدار الحياة فرؤيتهما فى منتهى الصفاء ثم يراه كذلك بعقل ناضج. فليس عجيباً أن يرقص قلبه طرباً لذلك المنظر الباهر ثم ينفذ بصره الثاقب إلى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجداً. فاعلموا معشر الإخوان أن أول رجل مفكر بين شعوب التوحشين - أول إنسان بدأ يفكر إنما هو كذلك الإنسان الذى تخيله أفلاطون جامعاً فى طبيعته بين الطفولة والرجولة. كذلك كان أول المفكرين من قبائل التوحشين ساذجاً صريح الطبع كالطفل ، مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف ، كما فعلنا نحن حينما سميناه

« كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك. فطوبينا جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير. ولكن الرجل المتوحش كان كل شىء جديداً فى نظره لم يخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عاريا أمامه ساطعا لعينه مشرق الرنق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان. فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الإنسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبى فى العصور الأخرى. بلى أيها الإخوان إن للكون لو تدبر الإنسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة. تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقتها وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات والأنهار الجاريات والبحار ذات الجرجرة والضجيج والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصابة هوجاء تحلده من السحب كل دجنة وطفاء ، أنا تسح بالديمة المدرار ، وأونة بدفع الحريق وصواعق النار. ما هذا أيها الإخوان ؟ بلى ما هذه أما ظاهرها فقد عرف العالم عنه شيئا وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف. هذا سر عميق لا ينفخ معه علم عالم ولا تجربة كيماوى إنما أولى بالمرء فى مثل هذا المقام الإذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيد المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره ، أكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه. ماذا صنع العلماء فى أسرار الكون إلا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهربا ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحريير. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وأيان يذهب ؟ لا أكذب الله قد أظهر العلم أشياء كثيرة ، ولكن بس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الكون الرائع الذى يتضاعل العلم فى حضرته ، ويذل لعزته وعظمته ، ويطفو على جوهه الهائل كريمة فى مهب الريح ، والحق يقال يا إخوانى إن هذا الكون على الرغم من العلم ودعواه لا يزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات.

بل كفى بالزمن معجزة - بذلك الشيء الفائق العد والحصر الدائم الكسر وا
المستمر الصمت والسكون ، دائماً يجرى ويتدفق عجلاً ساكتاً كتيار البحر الزاخر
حيث نطفو فوقه وسائر الكون كخيالات تظهر ثم تغيب ، وأنفاس لا تك
تصدر حتى تبعد. أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديراً أن يلجم ألس
فلا ننطق؟ وبماذا ننطق بالله من هذا الكون الهائل ؟ ماذا كان يستطيع المتوح
القديم أن يفهم منه وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع أن نع
عنه أنه قوة مركبة من ألف لأف قوة وأنه شيء ونحن شيء آخر ؟ هذا كل
يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره قوة فى قوة فى قوة ، فحيثما ألقى
البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية. وليست ورقة ملق
على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول إلا وفيها قوة. وإلا فكيف كان يتأتى لها
تعفن ؟ ولعمري ماذا يقول الملحد المفكر (ولا إخال إلا الحاد والتفكير يجتمعان
فى هذه القوى الفعالة الدائمة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تنفر ، ولا أول لها و
آخر ولا مبدأ ولا نهاية - ماذا يقول فيها إلا أنها معجزة رائعة ، وقد يتسا.
عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه هى صنع الخالق ! ثم يجيء العلم بمنظما
وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فـ
الحوانيت ولكن العقل الإنسانى السليم الفطرة مازال يرى فى هذا الكون شيئاً -
- شيئاً يحار فيه الذهن إلاهى المرجع ، أولى الأشياء بنا إزاءه - مهما بلغ علمنا
أن نحنى الرأس له إجلالاً وننكس البصر خشية ومهابة ونعبد إن لم يكن بالمنظما
فبالصمت !

وكذلك كان شأن الإنسان القديم المتوحش إزاء هذا الكون الباهر فقد كانه
عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الإنسان لم تغشها حجب الكفریات ولم تتراكم
أمامها سحب الاصطلاحات والعلمیات فكان الكون فى نظره إلاهى النسبة بـ
هو الإله ذاته أما تنظر إلى ذاك المتوحش الغابر إذ يعسف البيد والفلوات قد أض
السبيل فإذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة تلتهب بالألاء أبهر مما يرى أه
هذه العصور فيضىء فؤاد ذلك الضال كما يضىء له السبيل ويشرق فى نواحي

نفسه كما يشرق فى نواحي الأفق وكأنه مقلدة فى وجه السماء تنظر إليه من أعماق الأبدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين ألا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون ما نسيمهم عباد الكواكب ؟ هذا هو ما أراه سر الوثنية أعنى إفراط العجب والاندھاش من الشىء حتى يصير تقديسا وعبادة وكذلك كان كل شىء فى نظر أولئك الأقدمين رمزاً إلى شىء إلهى أو إلى إله.

وهل ينكر أن فى فعل الأقدمين هذا عنصراً من الحق ؟ أفلو دققنا النظر له أما كنا نبصره فى كل نجم بل فى كل زهرة إلهها ظاهراً ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ، ولكن ألا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته أنه يرى فى كل مخلوق جمالا إلهيا ، وأن كل شىء صاغته يد الله إنما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟ نحن نسمى من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات الله شاعراً ومصوراً وناطقة وعبقريا ، أفهل كان القدماء المتوحشون إلا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء فى تعرف بدائع الخليقة ؟ وإن لم ينطقوا بالقصيد أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمال وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شىء !

وإذا كان كل ما نراه هو رمزاً من رموز الخالق إذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الإنسان ، إن جوهر النفس الإنسانية وذلك السر الكائن فىنا الذى يسمى نفسه « أنا » - واخجلاه ما أجرأنا على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق - هذه النفس هى نفس من الله ، وكذلك الإنسان هو مظهر الخالق فى الأرض أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباساً لذلك السر المجهول الذى نسميه الله ؟ قال الصالح « نوفيلا » : ليس فى طول الكون وعرضه إلا معبد واحد وهذا هو جسم الإنسان وحقا لا شىء أقدم من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدي الرجال إلا خشوع الذات الإلهية بادية فى صورة الإنسان ، فإما لمست جسم إنسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر

الله الذى لا ينال - ولا طاقة لنا بفهمه ولا ندرى كيف تتكلم فيه بيد أنه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه إن شئنا وحسبنا ذلك وكفى.

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع إلى إدراكها منا نحن ، نعم ؛ إن الأقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون إلى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شيء بمجرد وضع الأسماء والاصطلاحات ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغظ فى شأن الكائنات ينظرون إليها وجها لوجه ، والروع والإجلال حشو قلوبهم ، أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه وأدرك لسر الله فى عبيده ، هم كانوا يعرفون - ولا بأس فى عقولهم - كيف يعبدون الطبيعة وأحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الإنسان وأعتى بالعبادة كما قدمت الإفراط فى العجب والإجلال إلى ما لا نهاية له وذلك ما كان فى طاقتهم إتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وأرجح ، وظنى أن عبادة الأبطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وأن مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جنور فكل إجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جنور تلك الغابة ولكن إجلال الأبطال هو أذهب تلك الجنور فى الثرى وأغزرها مادة وأعودها على سائر الجنور بالغذاء الطيب.

وإذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل وعبادة البطل هى كما قلت الإفراط فى إجلاله إفراطا لا حد له ، ولا أحسب إلا أن الأبطال ما برحوا موضع إجلال الناس حتى فى هذه العصور وإنه لم يجبل فى صدر الإنسان معنى أشرف من إجلاله لمن هو أعظم قدراً منه. ولست بمخطئ إن قلت إن هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الإنسان ، أو قلت إنه الأساس الذى يقوم عليه الدين. لا أقصد الوثنية وحدها بل كل دين أشرف وأصدق - كل دين كان إلى وقتنا هذا. وهل ترون معشر الإخوان فى ديننا النصرانية إلا أنها عبادة وإعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات إنسانية عليا إلهية ،

هي ذات أشرف الأبطال قاطبة - ذات من لا أسميه هنا بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس.

وإذا انحدرنا من قمة الدين إلى منازل أخط وأدنى وجدنا في جميعها من احترام الوضیع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الإيمان في الدين. إذ الإيمان إنما هو الولاء لنبي أو بطل مقدس ، وماذا ترى ولاء الصغير للكبير الذي روح المجتمع إلا فرعاً من عبادة الأبطال ؟ فعبادة الأبطال إذن هي أساس المجتمع ، والرتب والدرج الذي يقوم عليه التعاشر والتواصل هي ما يجوز أن نسميه « هيرواركي » أي حكومة الأبطال. فأهل الدرج والرتب في الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية كلها يمثل الذهب ، وإن كان الكثير منها لسوء الحظ مزوراً ، فقد نحتمل الأوراق المالية ونعيش بها وإن وجد بينها المزور. فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لا يقام عليه ولا يحتمل ، إذن تنور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها إذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة لا ينال بها من الذهب كثير ولا قليل ، أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون لا ذهب ، ولم يكن قط ذهب. والحقيقة أن الذهب - وأعنى به عبادة البطل - موجود برغم كل شيء في كل آن وكل بقعة ولن يفنى حتى يفنى الإنسان.

فشا في هذا العصر رأى باطل هو إنكار وجود الأبطال بل كراهة وجود الأبطال. أذكر لمعشر النقاد بطلا - الإمام « لوثار » مثلاً فإذا هم قد انبروا ينتقدونه - لا يأخذون في إجلاله بل في أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديًا ضعيفًا ضئيلاً ! ثم يقولون إن ما ينسب إليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته فالوقت هو الذي أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ما جرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله - هذا والله أفن وسخف ، يقول النقاد الوقت هو الذي أحدث ذاكم الرجل ؟ وآأسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل أين العظيم ولا عظيم. تصرخ الأوقات يا للفتى فيذهب نداؤها صبيحة في واد ونفخة في رماد ، وما ذاك إلا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجوداً ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم. وبعد أن

يبح صوت الوقت ولا يجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف ، لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستجده !

والحقيقة أنه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى - بين عقل يعرف به حاجة العصر ، وعزم يمضى به فى إبلاغ العصر حاجته ، وفى هذين صلاح العصر وفلاحه . ولكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة وأحوالها المختلطة المضطربة يحدو بها سائق الشقاء إلى غاية التلف - أشبه كل هذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهاباً يشعله ، وما الرجل العظيم مرسل من قوس الله يبيش فى صدره العزم ويغلى فى عروقه البأس إلا ذاكم الشهاب ، وما كلمته إلا شفاء الغلة والتام الجرح ومجتمع الأهواء ومستقر العقائد ، ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب ناراً كئناره . ولكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذى أوجد ذلك الشهاب نحن لا ننكر أن الحطب كان فى شدة الحاجة إلى الشهاب ، فأما أنه أوجد الشهاب ! يا لله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم ! أما أنه ليس أدل على حطة امرئء ولؤمه من عدم إيمانه بالعظمة ، ليس أدل على خسة جيل من الأجيال وضعته من عماه عن نور الله المقدس وإيمانه بالحطب اليابس الميت هذا والله أقصى منتهى الكفر . إذ أن الرجل العظيم ما برح فى كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس والشهاب الذى لولاه ما شبت النار فى الحطب ، وليس تاريخ العالم إلا كما قلت مجموع سير أبطاله .

أولئك النقاد الأصاغر يبذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ، ولكنهم لا يفلحون إذ مازال يظهر الرجل العظيم من آن إلى آن فيرمى بحقه باطلهم فإذا هو زاهق ، وإذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى أن إجلال العظمة فطرية فى طبيعة الإنسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن ، وإجلال العظمة باق ما بقى الإنسان . فالكتاب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل ، على أنهما كانا فى القرن الثامن عشر أشد

العصور كفرةً وفجوراً. والأمة الفرنساوية الكافرة تؤمن بفولتيرها وتظهر عبادتها الأبطال في أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينها ويمتشق بها . فحقاً إذا كانت النصرانية أعلى أنواع تقديس البطل فإن الفولتيرية من أسفل أنواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح وكان شيطاناً مريداً ، هذا مع أن أبعد الناس من فضيلة التقديس والإجلال هم فرنسيو هذا الجيل. وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شيء مذهبهم وشعارهم فليس في نفوسهم موضع للإجلال والإكبار. ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير. يدخل فولتير باريس عائداً من رحلة طويلة شيخاً فانياً مهتماً قد جاوز الرابعة والثمانين ، فيحسون أنه نوع من الأبطال أمضى حياته في محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من أرباب المناصب - إنه بالاختصار ممن جاهد الأبطال وإن لم يسلك في ذلك إلا خطة غريبة . نعم إنهم يحسون أنه إذا كان الاستهزاء هو أكبر الأمور ، فولتير إذن هو أكبر الناس - هو الإمام الأعظم الذي يقفون أثره ويتطلبون منزلته ، فهو في الحقيقة إلههم الذي لا يصلح إلا لهم ولا يصلحون إلا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة ماري أنتوانيت إلى الحارس الذي على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من أولى المنزلة والجاه يتنكرون في أزياء خدمة الفنادق لتسهل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها الفرس فإنك تسيرين بالمسيو فولتير ، وقد شبه أحد كتابهم تلك المركبة تحترق باريز براس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثراً طاهراً وذخراً ثميناً. ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل أو جميل إلا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل وأجمل.

أجل إن البطل ما زال معبوداً منذ « أودين » إلى « جونسون » ومن المسيح إلى أحقر قسيس في كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار لأنه ما منا إلا من يعشق الأبطال - يعشقهم ويحلمهم وينحني إكباراً لهم ، وهل ينبغي الانحناء لغيرهم ؟ بل ألا يحس المرء أن في إجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟

وهل جال فى صدر المرء إحساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟ وأنه ليسرنى ويشفى نفسى أنه ليس فى طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود أن تذهب من نفس الإنسان تلك الغريزة الفطرية - عبادة الأبطال. هذا وإن أجيال الكفر التى تعقبها الفن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، وإنى لأرى فى غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التى تتلقى الدول الساقطة فى مهاويها فتمنعها من الضياع فى أعماق الخراب. فإذا انتهت الدولة المتدهورة إلى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهىء نفسها للنهوض ، ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود إلى أحسن مما كانت عليه. وهكذا يظهر لى أن عبادة الإنسان للبطل هى الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور - هى النقطة الوحيدة الثابتة فى التاريخ الثورى الحديث وإلا كان هذا التاريخ كالبجر لا يعرف عمقه قراره ولا تعرف سعته شاططا.

كذلك أجد أن الوثنية روحها الحق وإن كان لها ظاهر مشوه. كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله وما زال البطل يعبد. ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وإن اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر ، وظنى أن وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولا) آخر الوثنيات عهداً إذا ما زالت مستمرة حتى القرن الحادى عشر. فمنذ ثمانمئة عام كان أهل الاسكاندينفيا يعبدون « أودين » ، ثم هى هامة لنا من حيث إنها ديانة آبائنا أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية فى عروقنا والذين نشبههم فى عدة وجوه. فعجباً أيها الإخوان أن يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف.

(و بعد) فلنلق نظرة فى عقائد أولئك القوم لجملة أسباب ، ولنعلم أن ذلك من الممكن ثم من السهل لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان.

* * *

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة « إيسلاندة » التى يخبر علماء طبقات الأرض أنه استثارها زلزال نارى من قعر البحر - وهى بقعة موحشة بباب جرداء

يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من أشهر العام مطوية في أحواف العواصف السوداء إلا أن لها مع ذلك في فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر - وهي وسط العباب الخضم تسمو صعوداً مكفهرة الجبين جهمة الطلعة تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب في الهامة الشمطاء وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تنز مراجلها وتهدر (شقاشقها) إلى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لتكافح جيوش الجليد والنار - في هذه الجزيرة وهي أبعد ما يرجى أن يكون به تاريخ مرقوم عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التي نحن بصددها وعلى شاطئ هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والإنسان من خير هاتيك النعم ومما يوجد به اليم وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصصة قوما شعراء أعنى ذوى صلور جياشة بالمعاني وألسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت أنه كان يفوتنا شيء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! : الحقيقة أن معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالي « أيسلاندة ».

وكان بالجزيرة في أوائل أمر المسيحية قسيس نصراني يدعى « سيمند » لعله كان لا يزال ينزع به عرق إلى دين آباءه الوثنية فأخذ يجمع عدداً من أغانيهم القديمة - مما قد طال عليه القدم فأسمى حوشيا مهجوراً - وكان توحيدياً صوفياً عليه مسحة دينية ، وهذه المجموعة هي ما يسميه أدباء الشمال الـ « الألدار » أو الـ « أدا » الشعرية وهي كلمة مشكوك في اشتقاقها ، لعل المراد بها « السلف » وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنورو ستلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمند » فكتب فيما كتب تاريخاً حافلاً لعقائد الوثنية وجعله ثراً مفصلاً بشنور من النظم فجاء كتاباً بديعاً موقفاً بريثاً من كل أثر للتعامل والكلفة وهو ما نسميه « عفو الخاطر » وهذا الكتاب هو المسمى بالـ « أدا الثرية » بفضله هذين المؤلفين وشتى أغاني غيرهما جلتها « إيسلندي » وبفضل ما كتب عن جميعها من الشروح والحواشى بين « إيسلندي » وغير إيسلندي مما هو للآن مستمر في البلاد الشمالية قد

نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه ولتناس قبل كل شئ أنها دين باطل بل نتأملها على أنها فكر قديم ثم ننظر أما يمكننا أن نعتذر لها ونرتاح إليها شيئا ما.

أن أول خواص هذه الوثنية فى رأى هو الإيمان الصريح بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة ، فتلك الأشياء التى تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون لرؤيتها ويركعون لها إجلالا ومهابة ، أعنى أن ما نراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة « جوتان » مخاليق جساما شعنا غيرا شنع الصور لهم طباع الشياطين والأبالسة والجليد والنار وزويرة البحر من هذه الجان والمردة ، أما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهى آلهة وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون وهما يعيشان منفردين كل فريق فى جهة ثم لا تخمد قط بينهما نائرة الحرب ويسكن الآلهة الجنة (اسجاردا) فى السموات ويقطن المردة فى بقعة قصبية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهم ».

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا ، وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسيره وسير بحسبار الفحص عمقه وغوره كان رأيه فيه رأى ، ففوة النار التى تخفى تحن ما بها من آية العجب فى طى اسم كيمائى نجعله حجبا لروعة هولها ، كان القدماء يرونها عفريتا سريع الحركة خفى المدب من قبيلة المردة « جوتان ». وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » — هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان — النار وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعا من الشياطين أو ضربا من الآلهة بعضك إذا مسسته ويعيش بأكل الخشب. وكذلك أرى أنه ما كان فى قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعينها من الحمق والغبوة — ما هى النار ؟ — أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطاننا فظيحا أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هيرم » أو « رايم » ، وهى كلمة بطل استعمالها إلا فى بعض أودية « سكوتلاندة » وهكذا لم يكن

الجليد عندهم كما نراه الآن شيئا ميتا ، ولكنه شيطان حى نراه إذ أظلم الليل يسوق أفراسه البلق إلى كهف حيث يقبل عليهن يمشط شعورهن. . وهذه الأفراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهى جلاميد الثلج ، ثم إن هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفرية فتتفطر وتنصدع.

ولم يكن الرعد فى تلك الأوقات مجرد كهرباء وإنما كان الإله « دونار » - (ثاندار)^(١) إله الرعد ، وهو أيضا إله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وإنما زجحة الرعد هى غضبه وسخطه. وما احتشاد السحاب السود وازدحامها إلا تقطيب جبين ذلك الإله وكسر حاجبيه. وما الصاعقة تنقض من السماء إلا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخرة فوق قلل الجبال ، فنويها وقفعتها هو جلجلة الرعد وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك حفيف الريح قبل الإرعاد ، و« بولدار » الإله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الأول أنه أشبه شىء بالمسيح) هو إله الشمس.. أجمل الأشياء الظاهرة. . وإحدى العجائب والأسرار رغما من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على أثره العالم الاشتقاقي الألماني « جريم » ، وهو الإله « ونش » أو « وش »^(٢) إله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الإنسانية وأعمق أصوات الروح ، وإن لم تكن بعد دعاء مهذبا وصوتا منقحا. هذا أبسط آراء الإنسان وهو مع ذلك عنصر جوهرى فى أحدث مذاهب الدين.

وأذكر من باقى الآلهة « آجير » إله الزوبعة ، وذلك لأن النوتية بنهر «ترنت»^(٣) ما برحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد - وهى حالة خطيرة - صاحوا « حذرا فإن آجير قادم ». عجبا لهذا اللفظ قد بقى بعد زوال

(١) كلمة إنكليزية معناها « الرعد » .

(٢) كلمة إنكليزية معناها « طلب » .

(٣) نهر يانكلترا .

تلك القرون كأن دنيا طغى عليها الماء فغرقت فى عبايه إلا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالإله آجير ، وما ذلك إلا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت فى أنسابنا ، فدمنا مزيج من السكسونى والدانيماركى الشمالى. ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين إلا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى.

وعن إلههم الأكبر « أودين » ستتكلم قريبا إن شاء الله. ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكاندينيفية أو الشمالية : هو الإيمان بقوى الكون واعتبارها إلهية رائعة شخصية - أعنى آلهة وأبالسة ، ولعله قول معقول ومفهوم. وكذلك كان الفكر الإنسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة ، وقد أرى فى هذا النظام الوثنى معنى حراً جزلاً شريفاً وساذجة قوية لم تهذب جد تهذيب ، مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها ، والحق يقال إن مذهب الوثنية الشمالية ما هو إلا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن. فلست ترى لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى لأختها اليونانية من الرقة واللعب ، إنما تتبين فيها قوة ساذجة وحقا مألوفة وإخلاصا جما كبيرا. وإنه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفة صورته ، منضودة دماه ، فى أبداع نظام ، وأجمل نسق إلى بيوت الوثنية الشمالية ، تمرح فى أفئيتها آلهتها وتحمز النيذ لتشره مع « آجير » إله الزويعه ، ثم يرسلون « ثورا » إله الرعد ليحضر الرجل من ديار الشياطين. ويذهب « ثورا » إلى تلك الديار ، وبعد الجهد الجهيد يأخذ الرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة ، وينقلب راجعا وقد غاب تحت الرجل وبلغ الرجل مواطع قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة إلا أنها لم تهذب ، فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة ، لكنها قدم عائرة وخطوة طائشة. فانظروا - أصلحكم الله - ماذا كان رأيهم

فى خلق الدنيا.

لما تجابوب الجليد والنار حدثت ريب حارة تكون منها مارد اسمه « يمير » ، ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد وأخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأما دمه فذلك هو البحر ، وأما لحمه فهو الأرض والصحور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكنا لهم أعنى الجنة أو « اسجارد » ، وجعلوا جمجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها فى المشرق والآخر فى المغرب وأصلها فى الأرض وفرعها فى السماء - آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تنهنه جيروتها ، وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية إلى الصفة الإلهية ، والثانية أقوى ولا ريب من الأولى . ما زالت بها العصور حتى حولتها إلى أفكار شاكسبيرية ، ومعان لوثرية^(١) ، فأولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا.

ويعجبني منهم كذلك تشبيهم الحياة بشجرة جذرها فى مملكة الموت ، ثم يسمو ساقها صعدا إلى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون ، وهذه هى شجرة الوجود. ويجلس عند أصلها فى مملكة الموت ثلاثة أفضية (جمع قضاء): الماضى والحاضر والمستقبل ، يروون جذورها من البئر المقدسة ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من إوراق وأزهار وأثمار ، وسقوط أوراق وأزهار وثمار . ويكنى بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال . تمتد أفرعها بكل هذه الأمور فى جميع الأمكنة والأزمان. أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة لإنسان ، وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها توارىخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادراً عن الأبد إلى الأبد. فإذا تنفس فى خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الإنسانى ، وإن صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة. هذه شجرة الوجود . هى الماضى والحاضر والمستقبل . ما كان وما يكون وما سيكون . تصريف فعل « يكون » تصريفاً لا نهاية له ، فإذا

(١) نسبة إلى لوثر رأس المذهب البرتستانتى .

تأملتم معشر الإخوان كيف أن جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل ، وليس واحد منها إلا آخذاً بعنق الآخر متداخلاً فيه . وكيف أن الكلمة التى ألقاها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم . إذا تأملتم كل ذلك رأيتم أنه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم هذا ما أجمله وما أجله إذا قستموه باستعارة أهل هذا العصر التى تشبه الوجود بمكينة « مكينة الوجود » ، بل أرى تشبيه الأقدمين أشرف من أن يقاس بتشبيه المتأخرين وأنبل ! حقا إن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة ، فمن أين أتى؟ من أفكار أولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالي وهبه الله قوة الفكر — أول شمالي نابغة عبقرى كما ينبغى أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر ، لم يك منهم إزاء هذا الكون الرائع الهائل إلا العجب الأبهم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الإنسان ، حتى أتى الرجل المفكر الكبير — الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقد الأفكار فى جميع الأذهان ، وكذلك شأن المفكر أو البطل الروحاني فإن ما يقوله قد كان كامنا فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويثلهفون على أن ينطلقوا به ولكن لا سبيل. فما هو إلا أن ينطق ذلك البطل حتى تنور جميع الأفكار من مكانها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أشرع إجابة فرحة به فرح السارى بالصباح. ولا غرو فإنما هو خروج من العدم إلى الوجود — من الموت إلى الحياة — فيا سقى الله عهد ذلك الرجل الكبير فإنه جدير أن يسمى شاعراً وكبيراً وعبقرياً وما شاكل ذلك ، وإن حسبه أهل عصره ساحراً وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيا وإلهها ! والفكر متى انبعث فلن ينم بعد مبعثه أبداً ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فإذا بلغه لم يكن ثمة مجال للنماء ، وإنما يقلع ذلك الغرس ويحللى مكانه لغيره.

ونحسب أن مثل هذا الرجل كان موجوداً في أمة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الإله أودين - وكان لهم أستاذاً وإماماً في أحوالهم الروحانية والجثمانية ، وبطلاً كبيراً لا تقدر قيمته ، أفرط إجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فإنه أهل لذلك ، أفما كان أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل ، وفضائل أخرى كانت إذ ذاك من المعجزات. فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ، أما فسر لهم لغز هذا الكون ، وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة ؟ وانطلق الوجود وأحى الحياة ! فهو منشئ الوثنية الشمالية. وأكبر ظنى أن أودين هذا أول مفكر من أمة الشمال كيفما كان اسمه ، كان ولا شك رجلاً يعيش بين الرجال ، وهو ما كاد ينشر رأيه فى الكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماماً ، فكأنما كان مكتوباً على صحائف الأذهان بالخير المغطى ، فما هو إلا أن فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الخير فظهر واستبان. وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على العالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئاً آخر أحسب أن فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنية الشمالية ألك « أدا » وذلك أنها ليست نظاماً فكرياً واحداً متماسكاً ولكنها مجموعة نظمات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظمات وكيف تتقلب من صورة إلى صورة بما أدخله عليها مفكر بعد مفكر ، إلى أن لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب ألك « أدا » كلا ولن يعرف ما صنعه «أودين» نفسه وماذا عسى أن يعرف من الأنبياء عن «أودين» ، بل أنى يعرف عنه أنبياء وكيف يكون له تاريخ . وعجيب أن يكون «أودين» هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنه الشمالية بشراً مثلنا تناله أحزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا وأقدامنا. عجيب أن يكون مثلنا حذوك القذة بالقذة ثم يكون قد أتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع إلا اسمه أودين : إذ أن لفظة

« وذنردای »^(١) أصلها « أودين زدای ». ولعل في هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ، وليس فيما رجم فيه المرجحون ما يستحق أن يذكر.

قد زعم المؤرخ « سنورو » زعما لم ينجل منه علي وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أو القحة ، وذلك أن أودين كان أميراً وفارسا بطلا في بقعة بقرب البحر الأسود له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته. ثم إن بلادهم ضاقت بهم فحفوا إلى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار. وإن هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرها ثم آل به الأمر إلى أن اتخذه أهل إسكانديفيا إلها معبوداً . واعتبروا أتباعه الاثني عشر أبناء له وآله كذلك ، هذا ما لا يشك فيه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاكاس » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من « سونورو » . لا يصعب عليه أبداً أن يخلق لكل خرافة من خرافات القدماء أصلا وحقيقة ، ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها. ويجيء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون وهو يا للأسف عالم ومحترس ، فيضع تاريخاً لزمان أودين إذ يقول إن أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد ، وبما أنه هذه الأقوال ظنون أساسها الشك قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة بي هنا إلى تنفيذها بل حسبي أن أقول إن تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وأزمان مديدة ! ولا أرى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه إلا شيئا قد غاب عنا البتة وسط الآلاف المؤلفة من غابر الأعوام .

يجيء بعد ذلك المؤرخ « جريم » الألماني فينكر وجود « أودين » بالمره ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول إن لفظة « فوتام » التي هي أصل كلمة « أودين » المجمعولة علما على الإله الأكبر لدى جميع الشعوب النيوتونية في كل مكان - هذه اللفظة التي تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظة اللاتينية

(١) إنكليزية معناها يوم الأربعاء .

« فادير » واللفظة الإنكليزية « ويد » إلخ - معناها القديم « الحركة » « القوة » ، فهي الاسم اللاتق للإله الأكبر لا لمخلوق . قال جريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر وما شاكل - حسن وأيم الله ما قال المسيو « جريم » ثم لا يسعنا إلا الإذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية . فلنقر ولنقتنع بأن كلمة « فوتام » أو « أودين » يراد بها « الحركة » و« القوة » . فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما أنها اسم لإله ؟ فأما من حيث إن النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس وأكبر . أليس قد اشتق الأسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبى » نعتا لكل شىء أفرط جماله حتى قالوا بسنان لوبى وورد لوبى وغادة لوبى : فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الأسبانية معناها ملائكى الجمال أو إلهى الجمال . ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة : إنه ما من نعت إلا وكان فى الأصل اسما لشىء شارك الشىء الأصيلى فى صفته ، فكلمة أخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشىء شديد الخضرة . ثم إن الناس كلما أبصروا شيئا فيه خضرة - عشبا مثلا - قالوا عشب أخضر ، وما نزال نقول ساعة ذهبنا ونحائما حديداً فكل النعوت فى زعم « سميث » كان أصلها أسماء أشياء . ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضى عليه بمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولا شك فى أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول أستاذ وقائد . وحقا لقد وجد فى وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يصصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل بطلا مصورا من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » إليها - الإله الأكبر - فهذا ما لا أحسب أن أحداً يجب أن يتفلسف فيه ، وقد قلت إن أهل عصره لم يعرفوا لإجلالهم إياه حداً ، بل لم يكن لديهم إذ ذاك ميزان يزنون به الإجلال . فإن أردت أن تتصور إجلالهم ذاك فتوهم إجلالك لبطل من أكبر الأبطال وحبك إياه

حبا من صميم الحشا ما يزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد ، وحتى يمتلئ به وعاء صدرك ويطفح. أو ربما كان ذاك الرجل « أودين » إذ منحه الله العقل الكبير وبعث في ذهنه نورا من لدنه وفجر في نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش في نفسه هو فحسب ، إنه ربما كان إلاهى المنشأ ، أى شعبة من القوة الكبرى والذات العليا المسماة فوتان أو أودين .(معنى القوة العظمى). أنا لا أحسب أن ذلك قد كان منه غشا أو تدليسا ، إنما هى هفوة وهو أصدق ما لديه ، والحقيقة أن كل ذى نفس كبيرة صادقة لا يعرف من ذا هو — فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وأنا فى أسفل حضيبض ، ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه. ثم ترى أن رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر مما يحدث نتيجة ، فإذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه وأحس هو فى فواده حرارة وجدان شريف ، ووقدة شعور طاهر كبير وخليطا مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فإذا حوالبه كون هائل يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال : هذا وقد علم أنه لم يسبقه إلى هذا المقام العلى إنسان — خيرونى نشدتكم الله ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه « أنا قوة كبيرة » فإذا الناس أجمعون يجيبونه « بلى قوة كبيرة ! » « فوتان » أو « أودين » !

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف أن الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم ما يصير فيها وكذلك إذا كان للشىء الهالك محبة فى الفؤاد وإجلال ، استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال. فما بالكم إذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر اللهم إلا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك. بلى والله إنه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاما ضربا من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء. فماذا يكون إذا مضى على وفاته ثلاثمائة أو ثلاثة آلاف عام ! إنه لا

فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فإنها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء ، ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة . حسبنا أنه لم يكن صميمها بزور ولا جنون ، وإنما حق ومعقول.

ويزعم أن « أودين » اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضروباً من السحر . فهبوا ذلك صحيحاً ، أفليس اختراع الحروف هو أكبر اختراع منذ أقدم الدهور إلى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شىء أكبر من إبراز كوامن الأفكار بعلامم ظاهرة ؟ أليس ذلك نطقاً ثانياً لا يقل غرابة وإعجازاً عن الأول ؟ ثم ألا تذكرن ماذا كان اندهاش ملك « بيرو » المسمى « أناهولبا » عندما رأى الحروف الهجائية ؟ وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد أحراسه من الجند الأسبانيين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندى الذى إلى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة فإذا كان أودين قد أوجد الحروف فى أمته فما باله لا يأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سنورو » أيضاً أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا — أصلحكم الله — أنفسكم فى هذه العصور عصور طفولة الأمم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية ، إذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى ، وإذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة ، وكل نفس بها رجاء . رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعاً جمياً ونوراً عميقاً ! أولئك كانوا أبناء الطبيعة الأقوياء ، وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائدهم وفارس خيلهم شاعر ونبى ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع . وكذلك سمة الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلاً من جميع جوانبه ، بطلاً قبل كل شىء فى روحه وفكره . وهكذا كان ذلك البطل المتوحش « أودين » بالنسبة إلى أمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الكون الكبير ، وتلقى الحياة الإنسانية كما كانت حينذاك ، ثم قال كلمته فى

هذه وذاك فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية أولية ، ولكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق. فإذا كنا نحن أبناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان إعجاب أولائك المتوحشين به ؟ حقا لقد كان عندهم بطلا بل نيبا بل إلها ، أو بعبارتهم هم « فوتان » أى « أودين » ومعناها القوة الكبرى ، والفكر رعاكم الله فكر فى أى صورة بدا وعلى أى شكل ظهر حتى لأحسب أن « أودين » هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم. وحسبكم برهانا فكره الكبير فى قلبه الوحشى العميق ا. أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ إنكليزية لا نزال نستعملها ؟. وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضائه وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع.

فجدد بنا أن نرى فيه نموذج الرجل الشمالى وأشرف بنى جلده ، ثم ما كاد يظهر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن أخلص الولاء وأصدق العبادة ، فهو الجذر الذى أنبت أشياء جمّة ، ولا تزال غماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة النيوتونية. حتى أن كثيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعاء كما ذكرت مشتق من لفظه « أودين ». أفلا ترون بعد ذلك أن آثار الرجل قد تجاوزت إلى بلادنا ، وأن أفرعا من فروعه قد امتدت إلينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق.

فإذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره ، فهذا ظله الواسع المديد ما زال ينشر أعلامه على تاريخ الأمم النيوتونية جميعه ، لأنه متى سلمنا أن أودين كان وقتا ما إلها أمكننا أن نفهم أن نظام أفكار الأقدمين أو عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد أخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، ولبس هيئة جديدة ، إذ جعل جميع الأمم النيوتونية يناقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجل وعلم بحروفه وشعره وأصبح مذهبه مذهبهم ورأيه رأيهم. وكذلك شأن الرجل الكبير فى كل حين. أو ما ترون فى العقائد الإسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل « أودين » ؟ نعم الفكر فكر كيفما

كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثاً وما تاريخ العالم إلا مجموع سير أبطاله !

بيد أنى أرى فى صورة ذلك التاريخ القديم شيئاً مرققا للأفئدة ، وهو إفراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلمهم وإن شاب ذلك الحب سداحة وعجز. نعم إنه وإن شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء والشرف ، وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الإنسان. وأما لو أمكننى أن أفهمكم ما لم أزل أعتقد منذ زمن مديد من أن هذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الإنسان فى هذه الدنيا. لكان لكم فى ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات. نحن لا نعبد أعظم رجالنا الآن كلا ولا نفرط فى إجلالهم بل نقتصد يا للأسف فى إجلالنا لهم الأمم اقتصاداً فهذا وربكم شر ونكر ، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وأنكر وأدهى وأمر.

وكذلك ترى فى مذهب هؤلاء الوثنيين على علاقته فضلاً وقيمة ثينة ، وهو وإن لم يكن اليوم بحق فقد كان فى يومه حقاً. أليست كأنها صوت آباتنا الأول يصبح من أعماق القرون الغابرة ، يهيب بنا نحن أبناءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا فى الدنيا ، هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا وبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنا شكراً لله الذى رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منا إشراقاً على كونه وأصح رؤية ، ولكن لا تحسبوا أنكم بلغت القمة فإن رأيكم وإن فضل رأينا لكنه ما زال جزئياً ناقصاً ، والأمر أعظم من أن تناله مدارك إنسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان. وكأنى بالإنسان بعد أن تمر عليه من هذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض ، لا يزال يجد أن أقصى جهده هو الإلمام بطرف من أطراف هذا الكون ، فإن الأمر كما قلت أكبر من الإنسان وليس فى وسعه أن يفهمه ، وكيف وهو شىء عديم النهاية .

الإيمان بأن الكون شىء إلهى مقدس ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الإسكندناف وسائر

الخرافات. ولعل الوثنية الإسكندنافية أصدق في هذا الأمر من جميع ما عداها إذ الإخلاص أكبر خواصها. وهذا الإخلاص هو عزائنا على خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب ، فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى ، وقلوب صحيحة مخلصه جمعت بين معنى الطفولة والرجولة ، إلى سداحة في شرف إحساس وعمق فى نشاط وصفاء وإجلال فى شغف وإخلاص فى شجاعة ، فله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم. وكذلك ترى أن هذا الإيمان بالطبيعة قد كان أكبر عناصر الوثنية ، فأما الإيمان بعظمة الإنسان وواجباته الإلهية والأدبية وإن لم يكن مفقوداً من الوثنية ، فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى. وكذلك ترى أن الإنسان يذهب فى أول أمره إلى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف أنه لا قوة فى الحقيقة إلا القوة الأدبية وإن أهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والحرم إلا بعد تصرف الدهور الطويلة.

أما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى الـ «أدا» فهى كما ذكرت آنفا أحدث عهداً من مدة «أودين» ، ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام إلا ضرباً من اللهو والفكاهة ولم تكن إنجيلاً لهم ولا توراة. إذ أن العقيدة كما قدمت لا بد أن توجد أولاً ثم تزدهم حولها الأفاصيص الشعرية التضاف الجسد بالروح. ولا أحسب العقيدة الشمالية إلا أنها كانت قبل نظم الأشعار حية فعالة فى نفوس أهلها ، وكذلك سائر العقائد تكون أنشط وأتمى كلما كانت أسكت وأصمت.

ومما يرى فى كتابهم الـ «أدا» ذلك الكتاب المبهم المظلم ، يؤخذ أن رعوس العقائد لم تكن إلا ما يأتى الإيمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الإيمان بالقضاء المحتوم وهو أن من قضى عليه أن يموت قتلاً فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر ، ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعاً. أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى شريعة لوثر وشريعة محمد؟ بل أزيدكم وشريعة نابليون

أيضا ، بل هى سنة الإنسان أينما كان وكيفما كان ، وهى السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع ، والحيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته. وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال إلى قاعة « أودين » ، أما الأرقّة الأبخساء والجنباء الأذلاء فينبئون فى ديار « هيللا » إلهة الموت . هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقسام يعتقدون أن الشجاعة رأس كل شىء ، وإنها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وأنهم يستوجبون سحق « أودين » ويستنزلون عقابه إذا هم لم يشجعوا فى جميع المواطن فانظروا بربكم أما ترون فى ذلك معنى عاليا كبيرا ؟ حقا إنه لواجب أبدي وفرض سرمدى حتى اللحظة ، كما كان حقا فى تلك العصور أن يكون الإنسان شجاعا ، وما زال أول واجبات المرء أن يقهر الخوف . وحقا إنه ينبغى لنا أن نقطع دابر الخوف فإنه لا سبيل إلى العمل حتى لصنع ذلك . فإذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا أن تحبث نفسه ويفسد طبعه ، وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكاره زورا وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان. ولذلك أرى أنه لو استخلص لباب المذهب الأودينى من قشوره لألفى حقا إلى هذه الساعة. كيف لا وإنما أول واجبات الإنسان أن يكون كما قدمنا شجاعا ، وأن يمضى قدما فى سننه ، ويكون رجلا فى كل ما يحاول ويزاول. ثم هو فى جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره. وما زال ظفر المرء على الخوف وظهره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته فى كل آن.

ولا شك فى أن شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جدا ، وقد روى المؤرخ « سنورو » أنهم كانوا يرون الموت فى غير مواطن الحرب عارا وسبة .

تسيل على حد الطباة نفوسنا وليست على غير الطباة تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
فإذا أحس أحدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعى ، أحدث الجراح

فى بدنه تزلقا بذلك إلى « أودين » ليفسح له فى جناته مقاما. وكان الملوك إذا

أشرفت عليهم منايهم أمروا بأنفسهم أن يجعلوا فى سفن ، ثم يرسل السفينة فى اليم منشورة القلاع تدب فى خشبها نار بطيئة المسرى ، فإذا انساب بها زاحر التيار وهبت له الريح ، تأججت فى بدنها النار وطار فى أركانها شواظها . وكذلك يلقى البطل العظيم بين أحشاء الماء وجوانح الهواء قبرا - شجاعة وحشية قاسية حمراء دامية ولكنها شجاعة ، وخير من لا شىء . ثم أى نجدة روعاء وهمة قعساء وأى عزيمة ومضاء قد كانت الملوك البحر من أولئك الشماليين ! لكأنى والله أراهم مشمرين على ظهور سفنهم صامتين مقلى الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة - يكافحون البحر الثائر وغفارت أمواجه وشياطين حيتانه ونيبانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهما . أولئك آباء بحارتنا : الرالى وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترمم بعضهم أعمالهم شاعر كهوميروس ، إلا إنى أرى مآثر أغامنون (أحد أبطال اليونان فى شعر هوميروس) تضاعف فى جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطال الشماليين ، رجل مثل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندى ذلك الملك البحرى الفاتك ، فإنى أرى له الآن يداً فى حكومة إنكلترا وإن كان قد مرت على عهده القرون والدهور .

ولم يكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان فى البحار ومن الحروب والوقائع أثناء عدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن إلا تنازع الرئاسة ليعلم أى أمة أقوى فتسود . ثم رأيت أن من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشجر ، أعنى الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات ، وفى ذلك معنى وأيسم الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدر » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم قاصراً على الحرب ، بدليل أن الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تميم شعباً ، وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزره ! وإنى لأحسب أن المحارب الصادق يكون كذلك الغابى (١) الصادق ، أعنى أنه يكون أيضاً المصلح الصادق والمفكر الصادق

(١) أعنى قاطع الغاب .

والعامل الصادق ، لا يدع أمراً إلا ويتناوله برفق وصدق ، وما ذلك إلا لأن الشجاعة الصادقة هى الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شىء والقسوة والفظاعة شىء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشى من قوى الكون ليذلوا لنا الطبيعة ! أو لم نسر نحن أبناءهم فى ذلك الطريق الذى نهجوه لنا ؟ إذن أفلا يعد الله تلك المهمة وهاتيك الشجاعة ؟

ويظهر لى أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة وإجابة القوم إياه ، لإصابة قوله هوى فى نفوسهم وظنهم أن كلامه وحى جاء به من السماء ، وإنه لذلك إله - يظهر له أن هذا هو أول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها وألوانها والرموز الشعرية والقصائد والقصص والأناشيد والأغاني إلخ. أقول نبتت ! عجباً عجباً ! إنما يقال نبت للشىء الحى . وقد قلت إن هذا المذهب الوثنى لم يك إلا ظلمة حالكة يبرق فى جوفها ذهن أودين كالنجم فى الديجور ، نعم ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك . هذه الظلمة هى الذهن المتوحش الجاهل - ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر إلى ما شاء الله فى قطبته ونطقه ! نعم إن الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ، ثم لا تزال تنمو وتنمو كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما لا نهاية لعدده . وذلك أن البذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذراً لشجرة جديدة تنبت فروعاً فتصير جنوراً ، وهكذا إلى ما شاء الله ، والفكر حى لا يموت ، وأول من فكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو بادئ الجميع - ثم الثانى والثالث . بل كل مفكر صادق إنما هو من قبيل « أودين » أو إن شئت فقل إنما هو « أودين » على النكرة ، ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الكون والإنسان ، ولينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعري فهذا ما لا موضع له هنا ، كلا ولا كبير أهمية . وقد توجد أشعار نبوية حادة حارة ولكنها على كل حال ضرب من اللهو أضافها إلى قواعد الدين أناس متأخرون ، وما أحسب أنه قد بقى من أشعارهم إلا الأغاني . وأمثال هؤلاء المتأخرين لا يزال منهم من يترنم بالأشعار شأن المصورين المحدثين لا يرحون يصورون ، لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصل فى التصوير والباعث عليه ، بل ربما ليس من القلوب ألبتة فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جراى » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبة الشاعر بون ، إذ ترجم « الإلياذة » فلم يؤاته الشعر على إبراز روح هوميروس ، وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة تفرغ عليها ظلال الروح والرعب فصورها كذلك ، ولم يدر أن أهم عناصرها هى وعورة كوعورة صخورها وخشونة كخشونة قفارها ، إلى أنس لا وحشة وانسراح لا انقباض ، وشئ من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشاهدتها الرهيبة . وكان القوم غاية فى السذاجة لم يميلوا فى تصوير آهنتهم ووقائع هذه الآلهة إلى ما مال إليه إخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيلية ، فكأنى بأولئك الشماليين لا يجلدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام مدهشات المرسح . ثم يعجبني جداً سذاجتهم وصدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من أن « ثورا » إله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ، ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه ، ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك ، فمن ذلك أن « تولدار » الإله الأبيض إله الشمس الكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا فى الطبيعة شيئاً إلا تقبوا فيه عن دواء . ولكنه مات وقضى الأمر فتبعث أمه « فريجا » رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه . ويطوى الرسول تسع ليال وتسعة أيام يخب فى أودية منخفضة مظلمة ، ومنعرجات معتمة مشكلة ، حتى يبلغ القنطرة وسقفها الذهبى . ويقول له الحارس « نعم ، لقد عبر « بولدار » ههنا

أنفا ولكن مملكة الموت هنالك بعيدة جداً إلى جهة الشمال « فيستمر الرسول في سبيله حتى يصل باب مملكة ويرى بولدان يحادثه ، فإذا هو رهين بذلك الملك قد قضى عليه ألا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه . وقد أبت ملكة الموت أن تطلقه ، كلا ولو أرادت ذلك الإلهة طرا . ثم إن امرأته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسه في ديار الموت فيجابه طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد . ثم يرسل « بولدان » خاتمه إلى « أودين » وترسل زوجته «نانا» خاتمها على سبيل الذكرى - وأسفاه ووارحمته ؟

والحقيقة أن الشجاعة ينبوع الرحمة - ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروعة والبر وسائر الخامد والمناقب . وقد قال المؤرخ « أهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجرد نفوس هؤلاء القوم في إله الرعد رفيقا مؤنسا ؟ وألا تخاف ولا تذعر من رعه ، بل ترى أنه لا بد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس إلى « ثورا » ويحبه ويجب سيفه القاذف بالصواعق ، ويلاعبه ويداعبه ، وكان ذاك الإله عنده هو إله الحرارة الشمسية أيضا ، أعنى إله العمل والأمن والخير والبركة ، وصاحب الفلاح ورفيقه في الغرس والحراث . ثم إن « ثورا » نفسه لا يرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشننة السوقية ، وما يزال يذهب إلى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها ، وفي بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب إلى ديار « المردة » ليجلب مرجل «هيمير» حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فيدخل عليه «هيمير» شيخ الأبالسة ولحيته مرصعة بالبرد . وكلما رمى ببصره عموداً من العُمد انفلت من حدة نظرته . وبعد طويل صخب وعريادة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه فى رأسه فإذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد - « هيمير » الذى كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

هذه أفكار وأيم الله ماردية هائلة الجساماة ، غير أنها تحتاج إلى أن تراض وتذلل حتى تصير أفكاراً شاكسبيرية ودانتية^(١) وجايتية^(٢) . ثم أنى أبصر نسبة قريبة بين « ثورا » إله الرعد و« جاك قاتل المردة » وبين « هندايين » و« إين الأهرم الإيرلندى » التي جاءت في أقاصيص شعراء أحدث عهداً من شعراء تلكم العصور الوثنية ، بل إنى لا أجد « هامليت شاكسبير » إلا فرعاً من تلك الشجرة القديمة الشمالية وهذا ما لا نزاع فيه ولا ريب ، نعم إن هامليت أو أمليت قد ورد في خرافة قديمة من أساطير الأولين ، تحدثت عن مقتل ملك بصب السم في أذنه أثناء نومه إلى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية . خرافة قديمة أخذها أولاً الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منها قصة دانيماركية ، ثم تناول شاكسبير ما صنعه « ساكسو » فصور منها ما ترونه . فهنا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صدفه |

وحقا إن في هذه الأغاني الشمالية معنى صادقا شريفا شأن كل قول يتداوله الرواة وتتوارثه القرون ، وليس هو مجرد جزالة في اللفظ وشرف في الדיباجة ولكنما شرف وجزالة في المعنى وخشونة في الروح ووعورة . وأرى في قلوب أولئك القدماء جدّاً صادقا وإطراقا في غير ضجر ولا شكوى ، وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والإلهام ما رآه الناس في جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو أن الدنيا باطل وعرض زائل بل خيال لا حقيقة ، وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى
ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة ، أن « ثورا » يذهب إلى
« أتجار » - حديقة أرض المردة يصحبه اثنان من أتباعه « ثيالفي » و« لوكى »
وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة فيجعلون يطوفون في سهول وقفار بين

(١) نسبة إلى دانتى أكبر شعراء إيطاليا وأعظم رجالها قاطبة .

(٢) نسبة إلى جايتى أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الإطلاق .

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آتسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولوجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحبه يجريان هنا وهناك فرعا يلتمسان مخرجا ، فوجداً غرفة صغيرة فعازا بها وأقام ثورا بالباب يترقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارذ جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكيرمير » وكان نائما ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عازا بها هى بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يا لها من قفازة عتيقة !

ثم إن المارد « سكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقذ فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه اتبته وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعا ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهُو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أومأ له إلى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل - انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعانتها ثورا وجهد وكذ فما فعل شيئا .

ولما همسوا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تحجل فإن فى الأمر سرا أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا

صخور وأشجار ، حتى إذا جن الليل آتسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولوجوه فإذا مكان خال فأقاموا به . فلما سجد الليل راعهم ضجيج وضوضاء فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزاً للقتال ، وجعل صاحبه يجريان هنا وهناك فزعا يلتمسان مخرجا ، فوجدوا غرفة صغيرة فعادوا بها وأقام ثورا بالباب يتزقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا أن الضوضاء لم تكن إلا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم .. المارد « سكير مير » وكان نائما ناحية منهم . وكان المكان الذى حسبوه داراً فباتوا فيه إنما هو إحدى قفازتى ذلك المارد قد ألقاها إلى جانبه عندما أراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى

بيت الإبهام ولم يكن للقفازة بيوت لسائر الأصابع . يالها من قفازة عتيقة !
ثم إن المارد « سكير مير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيقتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام . وكذلك أتاه وهو راقد فضربه معوله ضربة تصدع الصخر الأصم فلم يفعل المارد أكثر من أنه اتبته وحك وجنته وقال : ورقة سقطت . ثم عاد إلى نومه فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة أشد فلم يك من المارد أكثر من أنه همس قائلا : ما هى إلا حصاة . ثم نام فصب عليه « ثورا » يديه جميعا ضربة أحدثت أثراً بوجه المارد ، فما زاد على أن قطع شخيره وقال : أحسب أن بهذه الشجرة عصافير ، وإلا فما هذا الذى سقط على ؟ ثم إن « سكير مير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة وكان يوم لهُو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثراً . فقالوا له : طفل ولا ريب . ثم أومأ له إلى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول « ثورا » فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد إلا إحدى أقدامها ، فقالوا له : ما أنت يا هذا برجل - انظر ثمة إلى تلك العجوز البالية أيمكنك أن تصرعها . فعانقها ثورا وجهه وكد فما فعل شيئا .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا : لقد غلبت ولكن لا تتحل فإن فى الأمر سرّاً أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر فذلك البحر ، وحسبك أنك أحدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا

يستطيع أن يشرب البحر ؟ وأما الهرة التي أردت أن ترفعها فلك هي الحية التي تلتف حول الأرض فتمسك أجزائها وتضم أركانها ، فقل لي أكننت محاولا برفعك إياها أن تخرب العالم ؟ وأما العجوز فهذه هي الدهر والمهرم والدوام ، ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا إنسان ولا إله فإنها غلبة لكل شىء . وأما الضربات الثلاث التي ضربتها فتأويلها أن تنظر إلى هذه الأودية الثلاث « فهى من صنع ضرباتك » فنظر « ثورا » إلى رفيقه فإذا هو المارد « سكيرمير » وهذا المارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته إلا أحد الكهوف ، وأملس المارد فلم يبق له أثر . ثم إن ثورا التفت لينظر حديقة المردة فإذا هي قد صارت هواء ولم يبق إلا صوت المارد يهتف به ساخراً : « أولى لك ألا تعود إلى ديار المردة » .

هذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الأقاويل التنبؤية الجدلية ، ولكن أليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب إبريز ؟ نعم ذهب أنقى وأصفى مما يوجد فى خرافات اليونان ، وإن كانت أجود صنعة وأرشق معرضاً . وقد أرى لذلك المارد « سكيرمير » فكاهة جميلة أساسها الجدل والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » وهى فكاهة تجرى فى دماغنا حسبما يخيل إلى لأنى أكاد أسمعها الآن من أقاصى غابات أمريكا يصدح بها كاتبها الكبير « أمرسون » .

ومن الرائع الكبير من أفكار القوم ذاك الذى فى الصورة الآتية ، وهو أنه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخراب الكون ، ولكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجهل وأبهى ، وأرض أنضر وأحلى ، وإله أشرف وأقوى يعدل بين الناس جميعاً . فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيامة والبعث ، وهذا فيما أراه القانون الأساسى لكل مخلوق أحدثه الدهر وأقامه فى دار الأمل^(١) . قانون قد نفذ إليه نظر ذوى الإخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الإنسان .

ولننظر الآن إلى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » فى الأرض
ونجعلها خاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يتخيل إلى آخر هذه الخرافات عهداً وفيها
إنكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من عهود الوثنية ..
وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار
النصرانية ببلاد النرويج ، وهذا فحواها : بينما الملك « أولاف » أمير النرويج
ذلك الذى كانت له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى
البلاد ، سائحاً فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر إلى ثغر ويث
العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها ، إذا بغريب بادى الوقار أصهب اللحية
نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طراً ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ،
ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فخاطب الملك قائلاً : نعم أيها الملك
« أولاف » ، ما أجمل هذا الشاطئ يزهر فى رونق الضحى ، وما أندى حضرته
وأبهى نضرته . فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئاً لك الملك والدولة والسلطان
ولكن اذكر أنك ما كنت ممتعا بذلك لولا ما مهده لك « ثورا » من أمر البلاد ،
وما وطأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة .
وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب ، والآن إذا استتب
لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفنت ذكره . فى أيها الإنسان اتبته من رقدتك
وكن من أمرك على حذر ! « قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك
وحاشيته فإذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مسرح
العالم !

وإنى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت .. آخر أصوات الوثنية
الذى فنى معه « ثورا » والعالم الشمالى بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك
كل جليل ورائع وعظيم فى الفناء مصيره ، وما من شىء حبيب إلينا عزيز علينا
إلا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ، ويروعنا بنواه يوم
وداع .

وكذلك كان لأولئك الشماليين الأعمى في تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثنيهم) ما كفاهم ديننا وشرعا ، وما تقديس الشجاعة بالأمر الهين . ثم لا أحسب إلا أن عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنا شيء مفيد ، ذلك أن الدين لا يبرح منه في نفوسنا - وإن لم نشعر بذلك - أثر ، فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضي أكد وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضي تعلمون ميراث لنا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التي هي مجموع كل عصر وكل أمة فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به . وقد جاء في كلام « جايتي » أن رجلا اسمه « مايستر » سأل أستاذه بأى الأديان الثلاثة أنت مؤمن ؟ فأجاب « بجمعها ، لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

المحاضرة الثانية

(البطل فى صورة رسول)

(محمد - الإسلام)

ننتقل الآن من تلك العصور الخشنة .. الوثنية الشمالية إلى دين آخر فى أمة أخرى .. دين الإسلام فى أمة العرب ، وما هى إلا نقلة بعيدة وبون شاسع بل أى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره .
فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم إلهاً بل رسولا يوحى من الإله ، وهذه هى الصورة الثانية للبطل . فأما الأولى وأقدم الجميع فقد ذهبت إلى حيث لا تعود أبداً ولن ترى الناس يؤطون البطل مهما عظم ، بل لنا أن نسأل :
أكان من أى ناس قط أنهم عملوا إلى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ أنا لا أظن ذلك ، إنما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه على أن هذا أيضاً لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعداً ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم إلهاً غلطة وحشية فاحشة . ولكن دعنا نقل إن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزاً من الألغاز لا ندرى كيف نفسره ولا كيف نستقبله ونعامله ! ولعل أهم مزايا جيل من الأجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كإله أو كنبى أو كيفما كان ، فذلك هو السؤال الأكبر . ومن طريق إجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم فى ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .
فإن الرجل العظيم إذا كان مصدره واحداً - أعنى من ذات الله فهو جنس واحد : « أودين » أو « لوثر » أو « جونسون » أو « بارنز » وأرجو أن أوفق

إلى إفهامكم أن جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وأنه لم يحدث الخلاف العظيم بين أحدهم والآخر إلا الهيعة التي يكتسونها هم ، أو الطريقة التي يستقبلها بها أهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتقة الحصر والإحصاء كذبة وخذعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سحف وعبث وأضلولة كان الأولى بها ألا تخانق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالثناء والمرحمة . (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ألبتة من أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر ، وعصر جحود وإلحاد ، وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان ، ولعل العالم لم يرقط رأياً أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجيباً ؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب ! فهو إذا لم يكن عليماً بمخصائص الحجر والجص والتراب وما شاكل ذلك ، فما ذلك الذى يبنيه ببيت وإنما هو تل من الأنقاض وكتيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديراً أن يبقى على دعائمه اثني عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أموره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته ، وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقاً ، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقاً ، ومحنة

- والله - ومصاب أن ينخدع الناس شعوباً وأماً بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يخنال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ، ويحقيق مصابها بالغير لا به . وأى مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنساوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الكبير خاصة، فيأني أقول عنه يقيناً إنه من المحال أن يكون كاذباً، فيأني أرى الصديق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى أنه ما من رجل كبير - ميرابوا أو نابليون أو بارنز أو كرمويل - كفاء للقيام بعمل ما إلا وكان الصديق والإخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة ما يحاول . أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل أقول إن الإخلاص - الإخلاص الحر العميق الكبير - هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا أريد إخلاص ذلك الرجل الذى لا يبرح يفتخر للناس بإخلاصه . كلا فإن هذا حقير جداً وأيم الله - هذا إخلاص سطحي وقح - وهو فى الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لا يستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به ، بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الإخلاص ، إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوماً واحداً ؟ نعم إن الرجل الكبير لا يفخر بإخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه أهى مخلص ، أو عبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد . هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروجه وتهوله .. حقيقة لا يستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول . هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقه ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . هو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقا كالحياة . وهذه الحقيقة لا تفارقه أبداً ، وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية ، بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنما هى مكتوبة بحروف من الذهب لا شك فيها ولا ريب . ها هى ! ها هى ! فاعرفوا - هداكم الله - أن هذه هى

أول صفات العظيم ، وهذا حده الجوهري وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقه الله ، ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر .. فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، فقد نسميه شاعرا أو نيبا أو إلها . وسواء هذا أو ذلك أو ذلك فقد نعلم أن قوله ليس بماأخوذ من رجل غيره ، ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء .. نعم هو يرى باطن كل شىء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات، وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وإن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نيبا أو فارسا أو ملكا ألا تراها ضربا من الوحي ؟ والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة ، فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شىء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية ، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغائر . وما الرسائل التى أداها إلا حق صراح وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملقق وإنما هو قطعة من الحياة قد تظفر عنها قلب الطبيعة ، فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات - وأى إنسان لا يخطئ . إنما العصمة لله وحده - فإنه ليس فى طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى ، وهى أنه رجل صادق ونبي مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية - الهفوات ، أيحسب الناس أنه يخلو منها إنسان ؟ إن أكبر الهفوات عندي أن يحسب المرء أنه برىء من الهفوات . ما بال الناس لا يذكرون نبي الله داود ؟ ألم يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام ؟ ألا ما أهون أمر الذنوب وأصغر خطر الأغلاط - الجزئيات والقشور - إذا كان لبابها كريما وسرها حرا شريفا ، وكان في التوبة النصوح والندم الصادق ووخر الضمير ولذع الذاكرة أكبر مكفر للسيئات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب ، أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس أفعاله ؟ إنما الألم الذنب هو كما قلت حسبان المرء أنه برىء من كل ذنب . وكل نفس هذا شأنها فهي في نظري مطلقة من الوفاء والمروعة ، بعيدة عن التقى والبر والحق - أو هي ميتة - أو إن تشأ فقل هي بقية بقاء الرمل الجاف المميت . وإني أحسب أن سيرة داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء في معارج المكرمات ، وعلى حرب العقل والهوى - حربا طالما يهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبيه وتتركه لقي مشفيا على الانقراض ، ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبدا بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذي لا يبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الإنسانية !! ما أشد خطبها بين ضعفنا وقوة شهواتها ! أو ليست حياة الإنسان في هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل في استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق في ظلمات هذه الحياة إلا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة إلا لأخرى وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات . وإنما الأمر الهام هو أيظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات ؟ وإنا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا ، وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة إنسان .

* * *

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلاداً كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلفظ من قسوة قلوبهم مزاج من

اللين والدمائة كما كان ييسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقبعان ذات أمواه وأكلاء . وكان الأعرابي صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفراً تخالها بجرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخصر ولا أحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار ، يجادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكاء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبي النظر . وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق ، فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول : لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس ، كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحصن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحدر له ، فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه . ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتا فإذا قال أفصح : ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجسد وخالفوهم فى حلالة الشمائل ورقة الطرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب . وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد ، حيث كانت تقام أسواق التجارة فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفافة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ، ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفرش ويتهاكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بجذافيرها ، ألا وهى التدين . فإنهم منذ كانوا ما برحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان ، وكانوا يعبدون الكواكب وكثيراً من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للحائق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع

وجوهه ، فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رمزاً له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال ، أو « أسرار الجمال الشعري » ، كما اصطلاح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد وأى تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن « سفر أيوب » أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب . ورأى فى هذا الكتاب فضلاً عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها - عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفاً أن يكون يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة إلى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضى إليه منتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الأنوف . والكتاب المذكور هو أول ما جاءنا عن مسألة المسائل - حياة الإنسان وفعل الله به فى هذه الدار . وقد أتانا بذلك فى أنصح بيان وأشد إخلاص وأحسن سهولة . وإنى لأتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع ، فهو الحق من حيث جئته والنظر الراسب فى قرارة كل شىء وصميم كل أمر - مادى وروحانى . ألا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى أودع الرعد حنجرتة » « فهل ترى صهيله إلا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هذا والله أجود الاستعارة ، وما أحسب أن فى عالم التشبيه كله ما يماثل ذلك أو يقاربه . ذلك إلى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط إلا حسبت قلب الإنسانية يترنم شجى ووجداً ، ودمع الإنسانية يفيض حرقة وكملاً . فىا لها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة وما أشبهها إلا بسحر الليلة الصائفة - رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم ، وإلا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب أن فى جميع التوراة شيئاً يدانيه فضلاً وقيمة .

والحجر الأسود كان من أعم معبودات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » . وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال : إنها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طراً وأقدمها ، وذلك قبل الميلاد بخمسين عاماً . وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » : إن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات . فإذا صح ذلك فلا بد أن إنسانا قد بصر به ساقطاً من الجوا والحجر موجود الآن إلى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر تعلمون منظر حيثما كان سار مفرح ، تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت ، فما بالكم بها إذا كانت تقيض .

بديومة لا ظل فى صحصحانها ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجاً وبارحها المسموم للوجه الطم
أطل إذا كافحتها وكأننى بواجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسمها زمزم من صوت تفجرها وهديرها . والعرب تزعم أنها انبجست تحت أقدام هاجر وإسماعيل فيضا من الله وشفاء ، وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين . وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التى ترسل كل عام ، والتى يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعاً حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصاييح ، وبها نقوش وزخارف عجيبة ، وتوقد تلك المصاييح لتشرق تحت النجوم المشرقة فنعم أثر الماضى هى ا ونعم ميراث الغابر هذه كعبة المسلمين ا ومن أقاصى المشرق إلى أخريات المغرب .. ومن دهنى إلى مراکش تتوجه أبصار العديد الجمهر من عباد الله المصلين شطرها ، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم لهى والله من أجل مراكز العمورة وأشرف أقطابها .

وإنما من شرف البئر زمزم وقدسية الحجر الأسود ومن حج القبائل إلى ذبائك المكان ، كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتنا ما ذات بال وشأن ، وإن كانت الآن قد فقدت كثيراً من أهميتها . وموقعها - من حيث هى مدينة -

سيء جداً ، إذ هي واقعة في بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم يمتار لها جميع ذخائرها من جهات أخرى حتى الخبز ، ولكن الذي اضطر إلى إيجاد هذه المدينة هو أن كثيراً من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ، ثم إن أماكن الحج مازالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة . والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض رأوا أنه لا بأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع ، وإن لم يكن فى الحسبان . لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين إيطاليا . وقد بلغ سكانها فى حين من الأحيان مائة ألف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للمأكولات والغلل . وكانت حكومتها ضرباً من الجمهورية الأرسطوقراطية عليها صبغة دينية . ذلك أنهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة وحراس الكعبة ، وكانت لقريش فى عهد محمد ، وأسرة محمد من قبيلة قريش . وكان سائر الأمة مبدداً فى أنحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والأخرى البيد والقفار ، وعلى كل قبيلة أمير أو أمراء وربما كان الأمير راعياً أو ناقل أمتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف علنى إلا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد ، وإلا رابطة الدم واللغة . وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهوراً طويلاً خاملى الذكر غامضى الشأن - أناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لا يشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير فى الآفاق صيتهم ، وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت إلى طور الاضمحلال وأذنت بالسقوط ، وقد حدث بينهم دواعى اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض أنباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة - أعنى حياة المسيح ووفاته ، وهى التى

أحدثت انقلاباً هائلاً فى جميع سكان العالم - فلم تعد هذه الأنباء تأثيرها من الفوران فى أحشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه قبل مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه - وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحاً باراً ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بماء قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسناً وفضلاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده ، فرباه عمه - وكان رجلاً عاقلاً كما يشهد بذلك كل دليل .. على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ بوضع سنين - رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد القتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جداً فى نظره - أعنى الديانة المسيحية . وإنى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجيوس « بحيرا الراهب » الذى يزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنوا معه فى دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما . فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيراً من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطاً مشوشاً من أشياء ينكرها ولا يفهمها . ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ، ولا بد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشغون فأقامت فى ثانيا ضميره ولو غير مفهومة ، ريثما ينضحها له كر الغداة ومر العشى ، وتحلها له يد

الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . ففعل هذه الرحلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمّة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبداً ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هي أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية ، وعجيب وأيم الله أمية محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يبصره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ، ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية فى ظلمات الدهور - من كان بين محمد وبينه أدنى صلة ، وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكراً ، وقد سماه رفقاًؤه الأمين - رجل الصدق والوفاء - الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته ، وكشف ظلمته ، وأبان حجته ، واستثار دقيته . وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأينا طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم ، كريماً برا رعوفاً نقياً فاضلاً حراً - رجلاً شديد الجذ مخلصاً ، وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة ، جم البشر والطلاقة ، حميد العشرة حلو الإيناس ، بل ربما مزاح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامه مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله - هؤلاء لا يستطيعون أن يتسموا .

وكان محمد جميل الوجه وضئى الطلعة حسن القامة زاهى اللون ، له عينان سوداوان تتلألآن ، وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى يتفخ ويسود فى حال غضبه ، كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء « لوالترسكوت » وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية . كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

الوذعيا كأنما بين جنبيـه هـ مصاييح كل ليل بهيم
ممتلئا نارا ونورا . رجلا عظيما بفطرتة لم تتفقه مدرسة ولا هذبه معلم ، وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

وما ألد وما أوضح قصته مع خديجة وكيف أنه كان أولا يسافر فى تجارات لها إلى أسواق الشام ، وكيف كان ينهج فى ذلك أقوم منهاج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو . ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحه . ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ومما يطل دعوى القائلين إن محمداً لم يكن صادقا فى رسالته بل كان ملفقا زورا أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة المطمئنة ، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة ، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية ، ومن هذا التاريخ تبدئى حوادثه وشواذه حقيقية كانت أو مختلفة ، وفى هذا توفيت خديجة . نعم لقد كان حتى ذلك الوقت يقنع بالعيش الهادئ الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميل ظنونهم به . ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجعا وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير أبين القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيراً ، وحناناً وبراً ، وحكمة وحجى ، وإربة ونهى — أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف وتلك نفس صامته كبيرة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين . فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسرون طبق اعتبارات باطلة ، إذ ترى محمداً لم يرض أن يلتفت بمآلوف الأكاذيب ، ويتوشح بمتبع الأباطيل . لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات . لقد كان سر الوجود يسطع لعينه كما قلت بأهواله ومخاوفه ورواقه ومباهره ، لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه ، فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » . فمثل هذا الإخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعية ، فإذا تكلم فكل الآذان يرغمها مصغية ، وكل القلوب واعية ، وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار: ماذا أنا؟ وما ذلك الشئ العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا؟ وما هى الحياة وما هو الموت؟ وماذا أعتقد؟ وماذا أفعل؟ فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شمرايخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ، ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة ، لم يجبه لا هذا ولا ذاك وما للجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغي لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه . فقد أحس ذلك الرجل القفرى أن هذه كبرى المسائل وأهم الأمور ، وكل شئ عديم الأهمية فى جانبها . وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلوية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص

البطل وأول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فنبذها جيدة كانت أو رديئة . وكان يقول في نفسه : « هذه الأوثان التي يعبدها القوم لا بد من أن يكون وراءها ودونها شيء . ما هي إلا رمز له وإشارة إليه . وإلا فهي باطل وزور وقطع من الخشب لا تضير ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ، وأنى تؤثر في مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها المحجاج من عدنان والأقيال من حمير ؟ أى خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ إنه في واد وهم في واديهم يعمهون في ضلالهم ، وهو مائل بين يدي الطبيعة قد سطعت لعينه الحقيقة الهائلة . فيما أن يجيها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجها يا محمد أحب لا بد من أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذي أقام محمداً وأثاره ؟ حتى وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالمجة ؟ وأين تصير الممالك والتهيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف ؟ أو في ملك كسرى وتاج ذهبي الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا — إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل إن محمداً كاذب، ونعد موافقتهم عاراً وسبة وسخافة وحمقا ، فلربما بنفوسنا عنه ولنترفع .

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعاداتهم ، ونعمت العادة ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد !! لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . أجل حيناً تلك عادة ونعمت - فلما كان في الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه في غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر في تلك المسائل الكبرى ، إذ هو قد خرج إلى خديجة ذات يوم وكان قد استصبحها ذلك العام وأنزلها قريبا مكان خلوته ، فقال لها : إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وإنه قد أنارت

(الأبطال)

الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء . وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة ، وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا وبرزقنا ، وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له ، وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدي . الله أكبر و الله الحمد : ثم الإسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه ، وأن القوة كل القوة هي في الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلتلقه بوجه مبسوط ونفس معتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو . ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم « جابتي » : إذا كان ذلك هو الإسلام فكلنا إذن مسلمون . نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم ، وما قيل إن منتهى العقل والحكمة ليس في مجرد الإذعان للضرورة - فإن الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الإنسان مكرها - بل في اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هي خير ما يقع للإنسان وأفضل ما يناله ، وأن لله في ذلك حكمة تلتطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الإنسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن إدراكه . وإن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة . نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه في سكون وتقوى .

أقول وما زالت هذه الخطئة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيبا وظافرا وحرأ وكريما وسائرا على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة ما دام معتصما بمجل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الممكن ، غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم هو ظافر إذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهري - قطب رحي الكون ومحور الدهر - وليس بظافر إذا فعل غير ذلك . وحقا إن أول وسيلة تؤدي إلى اتباع هذا القانون هي الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شيء غيره صالح ، وهذا يا إخواني هو روح

الإسلام ! وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والإسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ، والإسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شيء ، وأن نفظم النفس عن الشهوات وننهي القلب عن الهوى ، وألا نجمح فى عنان المنى وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف أننا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يداً بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ، ونقول « إنا بقسمة الله راضون ولو كان ما قسم لنا المنون » .

فمن فضائل الإسلام توضحية النفس فى سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض . نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فأثار ظلماتها ، هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد « عليه السلام » وحيا و« جبريل » وأينا يستطيع أن يحدث له أسماء ، ألم يجئ فى الإنجيل أن وحى الله يهينا الفهم والإدراك ؟ ولا شك أن العلم والنفاذ إلى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من أغمض الأسرار لا يكاد المنطقيون أن يلمسوا منه إلا قشوره . وقد قال نوفاليس : « أليس الإيمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد إذا اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هى أهم ما يجب على الناس علمه لم يك إلا أمراً بديها ، وكون الله قد أنعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا إلى إظهارها للعالم أجمع - هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصديق الجلى والحق المبين .

ويجئ إلينا أن الصالحة خديجة أصغت إليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت « إى وربى إنه الحق » . وتوهم أن محمداً شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى إيمانها بكلمته المخلصة المقنوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل ، فإنه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط أكد ليقينى وأوثق لاعتقادى من انضمام إنسان آخر إلى فى رأى . نعم إنه لصنيع أغر ونعمه وفيرة . وكذلك ما

انفك محمد يذكر خديجة حتى لقي ربه حتى إن عائشة - زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها - هذه السيدة البارعة الجمال والفتنة سألته ذات يوم أأنت الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تجنبي أكثر مما كنت تجبها . « فأجاب محمد » كلا والله لست أفضل منها ، وكيف وهى التي آمنت بى والكل كافر ومنكر ، ولم يك لى فى هذا العالم إلا صديق واحد - وهذا الصديق هى . وآمن به مولاه زيد (بن حارثة) كذلك وعلى ، وهؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جحوداً وسخرية ، حتى إنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلاً وذلك منتهى البطء وبس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث أدب مآدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم بمد إليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة ، وثب على وكان غلاماً فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة إنه ذاك النصير والظهير ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمداً ومعاديه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ، ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك ، فانفض القوم ضاحكين ، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجذ والخطر ! أما على فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فإنه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ويتلظى فؤاده بجدة وحماسة ، وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى . وقد قتل بالكوفة غيلة ، وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلاً مثله وقال قبل موته حينما

أومر فى قاتله « إن أعش فالأمر إلى ، وإن أمت فالأمر لكم ، فإن آثرتم أن تقتصوا فضرية بضرية ، وأن تعفوا أقرب إلى التقوى » .

وكان فى عمل محمد هذا إساءة ولا شك إلى قريش حراس الكعبة وخدمة الأصنام ، وانضم إليه منهم رجالان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمد ببطء ولكنه سرعان على كل حال ، وكان عمله بالطبع سيئ الوقع لدى كل إنسان حيث جعلوا يقولون من هذا الذى يزعم أنه أعقل منا جميعا ، والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب ؟ وأشار عليه أبو طالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده ، وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم وألا يسخط القوم ويشير غضبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمد : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . كلا فإن فى هذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشمس ولا القمر وأى مصنوعات الطبيعة ، ولا بد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر ما دام قد أراد أن تظهر ، ويرغم قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والكائنات . نعم لا بد من أن تظهر ولا يسعها إلا أن تظهر . بذلك أجاب محمد ، ويقال إنه « اغرورقت عيناه » : لقد أحس من عمه البر والشفقة وأدرك وعورة الحال ، وعلم أنه أمر ليس بالهين اللين ولكنه أمر صعب المراس مر مذاق .

واستمر يؤدى الرسالة إلى كل من أصغى إليه وينشر مذهبه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهناك وهو يلقى أثناء كل ذلك مناظرة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرأ باديا وكامنا ، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه . ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه ، فنصبوا له الأشرار وبشوا الحباثل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمداً بأيديهم . وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب ، وتعلمون - أصلحكم الله - أن محمداً ليس بحاجة إلى أن نرثى له ولحاله النكراء إذ ذاك ومقامه الضنك وموقفه الحرج ، ولكن اعرفوا معنى أن حاله إذ ذاك

من الشدة والبلاء كما لم ير إنسان قط ، فلقد كان يجتنب في الكهوف ويفر متنكرا إلى هذا المكان وإلى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تهدده الخوف وتنوعه الهلكات وتفغر له أفواها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صغيرة - كإجفال فرس من أفراس أتباع محمد - فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ولكنه أمر محمد - ذلك الأمر العظيم - ما كان لينتهى على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، وألقى المقام بمكة مستحيلا هاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة أى مدينة النبي وهى من مكة على ٢٠٠ ميل تقويم وسط صحخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يتدئ التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فتزون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحداً بعد واحد ويحلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ، فإذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوايس الخطوب ، ويحيط به من كالحات الحن والملمات . وهكذا شأن كل إنسان فى مثل هذه الأحوال ، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط . فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه ، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة - عزم ابن الصحراء عل أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول : وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن ! وحقا رأى . فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق ، وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر . وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا . فليجعل الأمر

إذن إلى الحسام المهند والوشيج المقوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابجة جرداء ا
وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم
يسترح غمضة عين ولا مدر فواق ، وكانت النتيجة ما تعلمون ا

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فإذا جعل الناس ذلك
دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا . فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا
السيف ، ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى
الجديد أول ما ينشأ . يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقد هو فرد - فرد
ضد العالم أجمع . فإذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله
يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال .
أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ وحسبكم ما
فعل شارلمان بقبائل السكسون . وأنا لا أحفل أكان انتشر الحق بالسيف أم
باللسان أم بأية آلة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو
بالتار ، لندهعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظفارها فإنها لن تهزم إلا ما
كان يستحق أن يهزم ، وليس فى طاقتها قط أن تغنى ما هو خير منها بل ما هو
أحط وأدنى ، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم ما أعدل
وما أقسط ، وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب أعراقا فى الطبيعة فذلك هو
الذى ترونه بعد المهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

أقول الطبيعة أعدل حكم ، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم .
إنك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى بطن الأرض ، وربما كانت هذه الحبوب
مخلوطة بقشور تبين وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقداء ولكن لا بأس عليك من
ذلك ، وألق الحبوب بجميع ما يجالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة
فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقياً . فأما القذى فإنها تبلعه فى سكون وتدغنه
ولا تذكر عنه كلمة ، وما هى إلا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك
الذهب الإبريز، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقداء وأغضت، بل إنها
حولتها كذلك إلى أشياء نافعة ولم تشك منها شجواً ولا نصبا . وهكذا

الطبيعة فى جميع شئونها فهى حق لا باطل، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون، وهى لا تشترط فى الشئ إلا أن يكون صادق اللباب حر الصميم . فإذا كان كذلك حمته وحرصته أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه . فترى لكل شئء تحميه الطبيعة روحا من الحق . أليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وأسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعنى أن الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور فى ظلام ، وتحيينا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لا يمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة ، ثم لا بد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب . نعم يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى أبدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ، وما يزال ينتقل من الأثواب والأبدان من جسنا إلى أحسن وجيد إلى أجود سنة الطبيعة التى لا تتبدل . نعم إن جوهر الحقيقة الكريم حتى لا يموت، وإنما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ويجلس قضائها هو هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشئء أو عدم نقائه وليس هو بالسؤال النهائى . ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم إليها أنت لتصدر حكمها فىك هو : أفىك أقدار وأكدار أم لا ؟ وإنما هو أفىك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟ أو بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو أفىك قشور أم لا ، بل أفىك قمح ؟ أيقول بعض الناس إنه نقى ؟ إبنى أقول له « نعم نقى - نقى جدا ولكنك قشر - ولكنك باطل وأكثوبة وزور وثوب بلا روح ، وبمجرد اصطلاح وعادة ، وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة ، والواقع أنك لا نقى ولا غير نقى وإنما أنت لا شئء والطبيعة لا تعرفك وإنما منك براء .

نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا أنه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان - تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك

القلب يبطلانها قفراً ميتاً : على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جداً ، وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا إنها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ، ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم - نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجليلة إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أحشاش لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفضيح وكفر لو تعلمون . إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، خلقنا ويده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وإن ديناً آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقاً وجدير أن يصدق به . وإن ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشىء الوحيد الذى للإنسان أن يؤمن به ، وهذا الشىء هو روح جميع الأديان - روح تلبس أبواباً مختلفة وأتوابها متعددة وهى فى الحقيقة شىء واحد ، واتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماماً كبيراً لهذا المعبد الأكبر « الكون » جارياً على قواعد الخالق تابعاً لقوانينه لا محاولاً عبثاً أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفاً للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فإن الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة ، وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر ؟ أما أنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها ، وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الإسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها ، وحق له أن يتلعتها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة وما كاد يظهر الإسلام حتى احتزقت فيه وثنيات العرب

وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق فإنها حطبت ميت أكلته نار الإسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة . هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة . ولذلك لا عجب إذا قلت إن الأوربي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ، ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أدواقهم من الملاءمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصراني لإنجيلهم ، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شئون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستئثار به في غياهب الحياة . وفي بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئاً على التوالي ، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته في آذان الألوفا من خلق الله وفي قلوبهم اثني عشر قرناً في كل آن ولحظة ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله أنه طائفة من الأخاديع والتزويق لفقها محمد لتكون أذكاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فيأني لأمقت كل من يرمى محمداً بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل ، والقرآن لو تبصرون ما هو إلا حجرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات ،

وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجاً . وقل ما نطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتميق الكلم . ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير ، فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن - حروب مع قریش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه ، وهياج نفسه وثورانها - كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط . وقد أنجى روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر ، يطفر بها الوجد ويرسب ، وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نوراً هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال ؟ كلا ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقاً وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والإخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى المتوحش ، وهى أولى فضائل الكتاب أياً كان وأخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها بل لا شىء غيرها يمكنه أن يعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقاً من الشعر يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ، ثم يتخلله نظرات نافذات - نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كان لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كان له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه ، أنا لا أحفل كثيراً بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الإنجيل شبيهاً ، ولكنى شديد الإعجاب بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتیه من يشاء .

وكان محمد إذا سئل أن يأتي بمعجزة قال : حسبكم بالكون معجزة . انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التي خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير في الآفاق لا يدرى من أين جاء ، وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأغابا . أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكأأ لنا وهى فخر لكم ، والسفن - وكثيرا ما يذكر السفن - كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح ، وبيننا تسير إذا هى وقد وقفت بغتة وقد قيض الله الريح معجزات وأى معجزات بعدها تريدون ؟ أليستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغاراً وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل « ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات » وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ، وتموتون فتصبحون غير موجودين « ثم وهبكم الرحمة » لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فإن الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة . وكذلك أرى فى محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف الحماد وأكرم الخصال ، وأتئين فيه عقلا راجحاً عظيماً وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا ، أو فارسا بطلا ، أو ملكا جليلا ، أو أى صنف من أصناف البطل .

نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاضم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو أن هذا الكون الصلب المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء - إنما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر القضاء لا غير . وكان يقول هذه الجبال الشاخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى ، وكان يقول الجبال أوتاد الأرض ، وأنها ستفنى كذلك يوم القيامة ، وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء مثورا فتعلم . وكان لا يزال واضحا

لعينيه سلطان الله على كل شيء ، وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورنق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة ، والجوهر والحقيقة ، وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئاً مقدساً ، بل لا يرونه شيئاً واحداً وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية . فسرعان ما تنسينا الكيماوات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سر الله . وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إنما . وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر ؟ إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية - بقلة ذابلة نعم ، وما أحسب العلوم - لولا ذلك - إلا خشباً يابساً ميتاً وليس هو بالشجرة النامية ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تمدك بالخشب إثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولاً إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد ، وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيراً فى شهوانية الدين الإسلامى ، وأرى كل ما قيل وكتب جوراً وظلماً . فإن الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وإنما كان جارياً متبعاً لدى العرب من قديم الأزل ، وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده وجعل عليها من الحدود ما كان فى إمكانه أن يجعل . والدين المحمدى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة .. إقامة الصلاة خمسا فى اليوم ، والحرمات من الخمر ، وليس كما يزعمون كان نجاح الإسلام وقبول الناس إياه لسهولته ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم أن يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل وإتيان الجساتم هو طلب الراحة واللذة التماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فإن أحسن الآدميين لا يخلو من شىء من العظمة والجلال ، فالجندي الجاهل الجلف الذى يؤجر بعينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به ، فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى . وليست أمنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى ، بل أن يأتى عملاً شريفاً وفعلاً محموداً ويثبت للناس أنه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم

إلى أبلد إنسان فبريه سبيل المكرمات والمحامد فإذا هو قد تأجج قلبه حماسا ،
واتقدت نفسه غيرة ، وصار في الحال بطلا . وما أظلم الذين يهتمون الإنسان
بقولهم إنه ميال بفطرته إلى الراحة ، وإنه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة . إنما
مغريات الإنسان وجاذباته هي الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدم ما
بنفس المرء من زناد الفضل تذك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ،
وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد أبا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور
ونخطئ إذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ - كلا ، فما
أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه
ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ،
وربما تابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وإنهم ليدكرون - ونعم ما يذكرون -
أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرومة ومفخرة ؟ فحبذا محمد
من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار شاهر الليل ؛ دائب
في نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو
سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم وإلا
فما كان ملايقا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما ، وما
كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون
به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة
وبادرة وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعباب الشكيمة .
فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم
الله بطل كبير . ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا
أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنائه . وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل
محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصورجانه ، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار

ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال . وكانت آخر كلماته تسييحا وصلاة - صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه . ولا نحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله ، كلا بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكررات عالية منها قوله حين رزئ غلامه : العين تدمع والقلب يوجع ولا نقول ما يسخط الرب . ولما استشهد مولاه زيد «ابن حارثة» في غزوة « مؤنة » قال محمد : لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، ولقد لقي الله اليوم فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك بيكى على جثة أبيها - وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب ينوب قلبه دمعا ! فقالت « ماذا أرى ؟ » قال « صديقا بيكى صديقه » مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الإنسانية الرحيم - أختانا جميعا الرعوف الشفيق ، وابن أمتنا الأولى وأبينا الأول .

وإني لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد ، يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية . إذا كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره . ولم يكن وجدانه لديه بالتهمم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد ! إنه لا يلبث إلا يوما . فماذا تنزودون للأخرة ؟ والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية ، إذ يقول للكفار ستحزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب وهو ، بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفضع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل إنه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروعة والشرف - شعاع الله - متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين المس رقيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما بقيعا وموتا ذريعا .

وفى الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها ، وهى التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفوس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض ، والناس فى الإسلام سواء ، والإسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الإسلام . ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة ، تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا . وما هو إلا صوت الإنسانية - صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصبح من فؤاد ذلك الرجل - ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فأقول إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب . فإن القرآن قد أقل جدا من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح . وإنما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جسمانيا حتى أسندوه إلى النار . ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام

عليكم طبتهم فادخلوها خالدين» فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشئ الذى عبثا يتلمسه الإنسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أجهت من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ؟ وأى شئ أهنأ من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل أشهر براءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتقرع عن مآربها ؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم . فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وإنما المنكر هو أن تذلل النفس لجبار الشهوات ، وتفقاد لحادى الأوطار والرغبات . ولعل أجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعتها ، ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصوداً من محمد معيناً ، أو كان وحى الغريزة وإلهاماً فطرياً فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز الحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صادفت فى القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها : « يوم ترونها تهمل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هذا إلا ظلالاً تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق ، أعنى الواجب وجسامة أمره . لقد كان هذا الرجل يرى الحياة أمراً جسيماً ، ويرى لكل عمل إنسانى مهما حفر خطايرة كبرى . فما كان من سيئ فله من السوء نتيجة أبدية ، وما كان صالحاً فله من الصلاح ثمرة سرمدية ، وأن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ، ويهبط بمواقفه إلى أسفل سافلين ، وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمة بأحرف

النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد إخلاص وأحد جد أن يخرجها للناس ويصوره لهم ، فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة ، وأى ثواب ليستة هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية ، وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها ، فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه ، ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم . وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم ، ولا أحسب أن أمة من النصرارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين بإسلامهم -- إذ يوقنون به كل اليقين ، ويواجهون به الدهر والأبد ، وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة « من السائر ؟ » فيجيبه السائر « لا إله إلا الله » وإن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وإن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والمالاي فيهدمون أضرابهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام ، ونعم ما يفعلون .

ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحى به من العرب أمة هامة وأرضها مدة . وهل كانت إلا فئة من جواراة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله ، فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعفة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوءه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح للدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والتبيل والبروة ، والبأس والتجدة ورونق الحق والهدى على نصف العمورة . وكذلك الإيمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة

رقى فى درج الفضل ، وتعريج إلى ذوى المجد ما دام منهبها اليقين ومنهاجها الإيمان . ألسنم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم ، كأننا قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير ، فإذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت ، وإذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى ؟ ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالخطب ، فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

المحاضرة الثالثة

البطل فى صورة شاعر

(دانتى - شاكسبير)

البطل فى صورة إله والبطل فى صورة نبي هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبداً ، وهما يدلان على جفاء فى الفكر وغلظة فى الفهم يحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية . ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والإعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه إليها أو ناطقاً بصوت إله ، إلا إذا كانوا عائشين فى عصر خال ألبته من الأراضاع العلمية الطبيعية . نعم لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وأبهة وإن لم تك أقل فضلا وحقا ، أعنى صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبي شاعر - إلى غير ذلك من شتى الأسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الأزمان والأمكنة ، وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق ، وحسبما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! أو على هذه القاعدة يمكننا أن نعطي كثيرا من الأسماء غير ذلك . وإنى لأوقن بأنى لا أحسب أن هناك رجلا عظيما لا يمكنه أن يكون عظيما فى كل فن ، فالشاعر الذى لا يستطيع إلا أن يجلس إلى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة ، مستحيل عليه أن ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع إلا إذا كان هو نفسه فارسا أروع . ولا أحسب الشاعر الكبير إلا أنه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف ، وإنه قد كان يمكنه أن يكون - بل هو بالفعل - كل هذه . ثم لا أفهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل « ميرابو » صاحب القلب الكبير المتوهج ، المتأجج

نارا ، المفعم دموعاً ، أن يكون شاعرا ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات ، فيقرع بها القلوب والأكباد لو قد ساقته الأحوال والأسباب إلى ذلك . والأمر الأولى الجوهري هو أن يكون الرجل عظيما . وإن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعة ، وقد أذكر قواد لويز الرابع عشر فيخيل إلى أنهم كذلك شعراء ، وأن في كلمات القائد تورين ما يماثل أقوال سامويل جونسون حكمة وبلاغة . فالقلب الكبير والعين البصيرة هما رأس الفضائل ، وما كان لامرئ قط أن يُجمل ويُعظم بغيرهما . أو لا تذكرون أن الشعارين « بتزارك » و« بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسننا القيام بذلك ؟ أم لا تحسبون أن الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابوا » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم أى عمل من الأعمال كان شاكسبير لا يؤديه على أكمل حال لو قد أسند إليه .

ولست أنكر أن لكل امرئ طبيعة خاصة واستعدادا فطريا ، وأن هنالك فروقا فى الغرائز ، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر وأكبر . وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر إلا كأصاغرهم ، فإنك لتتناول الطفل الممكن تصيره أى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا أو بناء ، ومتى أصبح هذا أو ذاك بقى كذلك طول عمره . وإذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لا يحمل إلا خيطا وإبرة يخف محمولهما على النملة . على أن الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف ؟ - أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ إنها المناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ا وما عليه إلا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم . إن بين الشاعر وبين النبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا ، ولقد كان مدلولهما فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبى .

والحقيقة أنه مازال بين النبي والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما و/أحدا من حيث إن كليهما ينفذ بصره إلى سر الكائنات المقدس . أو ما يسميه « جاتيى » السر الجلى ، الجلى لكل إنسان ولا يكاد يراه مع ذلك إنسان . السر الإلهى الكائن فى كل كائن - المستقر فى باطن « الظاهر » كما يقول « فيشتى » - السر الذى ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة إلى الرياض الناضرة إلى ظواهر الإنسان وأفعاله ، إلا ثوب له وبدن يتزاعى فيه ويظهر . نعم السر الإلهى فى كل زمان ومكان موجود ولا ريب ، وربما أغفله الناس فى معظم الأوقات والجهات إذ يحسب الكون البدى هو « فكر الله المحقق » شيئا عاديا تافها هامدا كأنما هو شىء جامد تولى صنعه التجار والحداد . ولا داعى هنا للإكثار فى ذلك الموضوع ، ولكنى أقول ويل للذين لا يفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، ويل بهم وأسف عليهم ، ويا بؤس للحياة إذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولكنى أقول من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله ، فإن « الفاتيس » أعنى الشاعر أو النبي ياحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ، ولكنه نفذ إليه ببصيرته ، وإنما أرسله الله ليفعل ذلك وليكشف من سر الله ما غمض . هذه هى إبداء رسالته إلى الناس أن يجلو لنا غامض السر - ذلك السر الذى هو إليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فإذا نسوه فقد ذكره مسوقا إلى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه ، عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر فهو ليس بتابع لمعتقد القول ولكنه رجل نظارة مبتدئ محقق ، فهو لا يستطيع إلا أن يكون مخلصا . ومن عاش من الناس وسط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق ، المجتهد فى الله الجاد فى شئون الحياة والكائنات . ولو عبث العالم طرأ فالإخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته ، وهكذا يشترك الشاعر والنبي فى إدراك سر الله الجلى فهما من حيث ذلك واحد .

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبي قد تناول هذا السر المقدس من وجهة نظر الخير والشر - المحظور والمباح . وتناوله الشاعر من وجهة الجمال والحسن

والجلال وما شاكل ، فأحدهما الهادى إلى ما فعل ، وثانيهما الدال على ما نعشق . على أنهما بعد متداخلان وفرعان متعاقبان لا يمكن الفصل بينهما وفصم عروتها . ولا يخلو النبي أيضا من تتبع الجمال أيا كان ، وإلا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا إتيانه ؟ ولقد جاء فى التوراة - وهو قول نبي - آية جديرة أن تحسب كأبداع ما نظم شاعر وهى : « انظر إلى زهر الرياض فإنك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج ، وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان فى ريعان سلطانه » أليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة إلى أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون ألوانه فى أقشب من مطارف الأمراء وآتى من حلل الملوك وهى بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتظامن ، كأنها عيون الملاح ترنو إليه من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للأرض أن تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد التلبد ؟ ومن ثم قال « جيتا » قولاً استكره الكثيرون وهو : « الجمال أفضل من الخير ، والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وإنما قصد إلى الجمال الحق الذى يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » ، وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبي .

قليل فى شعراء الأعصر القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى . وهذا القول وأيم الله إن كان ظاهره الصدق فهو فى الواقع أخلوعة . إذ الحقيقة أنه ليس فى جميع الشعراء كامل ، وإنما الشعر عرق يجرى فى طبيعة كل امرئ لا يخلو منه ، وكل إنسان يجد فهم قصيدة فهو فى أثناء قراءتها شاعر ، وما الفؤاد الذى يرتاع لتلاوة جحيم « دانتى » إلا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وإن كان بعد أقل شاعرية . ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة - حكاية الشاعر « ساكسو جراماتيكا » . ولكنه ليس من إنسان إلا ويستطيع أن يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه . وأرى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما

بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله ، حتى نضع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدرهم كان جديراً أن يسموه شاعراً . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم فإن من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القراء وحلق فى سماء الخيال حتى علا النظراء ، أجمعوا على إجلاله وسموه شاعراً عاماً . على أن مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة إلا مسألة ذوق ورأى خاص ، فإن فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشعرية العامة لم يخل فرد من ذلك . وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء ثم لا تحسبن أن الأعظم الأفضلين منهم : أمثال شاكسبير وهوميروس : إلا ملاقين من النسيان حظوظهم ، ولا بد من يوم يصبح أمرهم فيه نسياً منسياً .

ولسائل أن يسأل : أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ، ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان فى ذلك الصدد وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة ، فمن ذلك قولهم : إن الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ، ثم هو ينفذ هذه الخاصية أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه أو يصوره . فهذا الكلام وإن لم يكن محكم ولكنه جدير بالذكر ، إذ كان إنما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر . ثم هو لا يخلو من بعض المعنى إذا تامل وتدبر . أما أنا فإنى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر وهو إنه الكلام الموزون المودع شيئاً من الموسيقى حتى لهُو ضرب من الغناء . وحقاً لو اضطرب الإنسان إلى إعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزاً ذلك التعريف القديم ، فإذا كان نظمك موسيقياً لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق ، فهو شعر وإلا فلا . والمعنى الموسيقى هو ما إذا خرج من ذهن نفاذ إلى لباب الشىء وأدرك مكنون سره ، أعنى النغمة الكامنة فى جوفه — أعنى ما يستمر فى ضمير ذلك الشىء من موسيقى الائتلاف والوثام — من تلك الموسيقى التى ليس إلا بفضلها يوجد ذاك الشىء ويكون أهلاً لأن يوجد فى هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شىء موسيقى ، أعنى أنه إذا بدا

للناس بدا فى منطق موسيقى ، أى بدا فى صوت الغناء . وإنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا ، إذ أين ذلك الذى يستطيع أن يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان ؟ والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق ، الذى يذهب بنا إلى شواطئ المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر .

أجل إن فى جميع الكلام حتى فى أكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء . وليس ثمة قرية فى العالم مهما حقرت إلا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم - فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم إن اللهجة ضرب من النشيد والترنم ، وما من قوم إلا ولهم لهجة خصوا بها وإن كانوا لا يقطنون إلا للهجات غيرهم . ثم اذكروا أيضا أن كل كلام صادر عن انفعال فإنه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا . بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشئ عميق فهو غناء ، بل يظهر لى أن الغناء هو لبابنا الجوهري ، وإن كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فإنما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء ، ولقد كانت اليونان تقول فى حرافاتها إن للقلبك فى مسيره موسيقى . ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى ، وإن روح أصواتها وتعبيراتها لم يك إلا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فنسسمى الشعر : فكراً موسيقيا ، والشاعر هو الذى يفكر على هذه الصورة . وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن ، وإنه الإخلاص ونافذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعراً . انظر إلى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا ، فإن قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك أن تنفذ إليه .

ويظهر لى أن الشاعر - كاشف أسرار الوجود بنغماته - ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جداً عن منزلة النبى ، إذ يرون عمله تافها ووظيفته صغيرة . فكان البطل عندهم أولا إلها ثم نبيا ثم شاعراً . أليس فى ذلك دليل على انحسار الرجل العظيم فى أنظارنا على توالى الزمن ؛ فإننا نراه أولا إلها ، ثم ذا وحى إلهى ، ثم لا نرى فيه بعد ذلك إلا ناظم أشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما

أشبهه ؟ هذا هو الظاهر لى ولكنى أحمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك ، شعوراً منى بأنه لا يزال فى بنى آدم الإجلال المفرط — لم ينقص مثقال ذرة — للعظمة والبطولة فى أية هيئة بدت وأى اسم أعطيت .

وقد أعلم أنه إذا كنا الآن لا نرى فى الرجل العظيم إلها ولا نبيا ، فما ذلك أن أرينا فى الله وفى ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الأوفى قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه . ولا أنكر أن الشك والكفر والاستخفاف آفات هذه العصور قد أحدثت ضرراً عظيماً فى هذا الأمر الأجل الأعلى بإضعافها فى نفوس الناس إجلالهم للبطل ، حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للإجلال . وهذه وأبيكم الأم العقائد وأنكاهها وأوخمها مغبة . ولن يكون مع اعتقادها إلا اليأس المطلق من الإنسانية وسائر أمورها وأشياؤها . ومع كل ذلك فانظروا إلى نابليون ا ضابط صغير على طائفة من جند المدافع . هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم إياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبايرة الملوك . ثم انظروا إلى الشاعر بارنز كيف كان إذا اطرد به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الإصطبلات بسحر بيانه فلم يبق منهم إلا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وأنه هكذا تكون الرجال وإلا فلا ! فترون من ذلك أنه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وإن لم تصرح به ألسنتهم ويلمح من خلال حركاتهم — وإن لم يظهر ساطعا جليا — أنهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لا يجودونها لسائر الرجال ، فى ذلك الفلاح الكفيف الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع ، وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو لا نشعر نحن أيضا بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من أدران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم لو أبدلت القلوب من رذيلة الإيمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الإيمان بالجواهر

الصادقة ، إذن فأى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوسنا وأى حجة وإكبار تمجيد ؟

وعلى كل ذلك ألا ترون أن لدينا شاعرين هما وإن لم ينالا منزلة الألوهية ، فقد نالا فى هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية ؟ نعم إن شاكسبير ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل إنسان أن ينال مقامهما الشريف بأذنى إساءة ، وهذه نتيجة وصل إليها العالم بالإلهام والفترة رغما مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية ، وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه.

غربته العلى على كثرة الأهدى — ل فأضحى فى الأقرين غريبا
لا مثيل لهما فى سائر الشعراء تباركا عن الأنداد والأقرن ، يفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال فهما مقدسان وإن لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس . وهكذا ترون كيف أن ما أودع نفوس البشر من فترة إجلال البطل ما يزال يحيا فى قلوبهم برغم انتشار السخرية والاستخفاف واستيلاء الجحود والكفر ، وسنلقى نظرة فى تاريخ هذين البطلين .

لقد ألفت عدة تراجم لدانتى ، وجملة حواش وشروح لكتابه ، ولكنها على العموم قليلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شئ وقد باد معظمه حتى لا يمكن تداركه ، لم يك دانتى فى زمانه إلا رجلا صغير الشأن شريداً طريداً مكسور الفؤاد مهيب الجناح قليلا اهتمام الناس به مدة حياته . وأسوأ من ذلك أن معظم أبناء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاقتها قد بادت على ممر خمسة قرون ، وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح ، فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة إلى المصور « جيوتو » التى إما نظرت إليها لم يسعك إلا الشهادة لصانعها بالإحسان والإجادة أيا كان . أما أنا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لكبدى وأقرعها لأحشائى ، وأرى آية الحزن والألم وآية

الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة المصور منفرداً وحيداً لا يحفه شىء من الأثاث والمتاع ، إلا ما يرفرف عليه من روح الوحشة - أرى كل ذلك عنواناً على تاريخ دانتى ! وظنى أنه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة - وجه محزن مفتت للفؤاد أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان ، لا كما تكون فى الرجل بل كما تكون فى الطفل . ولكن قد خالط هذه المعانى الرقيقة معان أقسى وأمر ، معانى وحشة وسخط وألم فى تجلد وتعزز ويأس فى رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد لبست آية البأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر إليه من وراء سجف من الثلج ! وقد قلصت شفتاه احتقاراً وازدراء ، لا كازدراء الإنس بل كازدراء الآلهة للشىء الذى يذيب حشاه ويأكل فؤاده ، كأن ذلك الشىء هو أحقر ما يكون وأدنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشىء ، وإن كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب . إنما هو وجه رجل منابذ للندىا مناصب لها معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقاً بضاعتها أبداً نافقة ، ورحى ما تبرح العمر دائرة . وهل هى إلا محبة تحولت حقاً لا يفتر ولا يستريح ، متمهلاً مطرداً ساكناً كحنتق إليه ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى ، هذا هو صوت عشرة قرون نحرس ، هذا هو الرجل الذى صدح لنا صوتاً عن الجحيم والجنة !

وأرى هناك مطابفة بين ما نعرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه . ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من أعمال إيطاليا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان إذ ذاك . وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ، وله قدم راسخة فى بعض أبواب العلم . ولم يدع دانتى فيما نظن شيئاً يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفى مهذب وذكاء مشتعل وعقل راجح . وكان قد أتقن من العلم ما جاء فى الأزمان القريبة من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد إليه سبيلاً لخلو عصره من المطبوعات ومن أسباب التواصل . وسلك فى حياته المذاهب المعتادة فصحب جيش بلاده فى حربين .

وذهب مرة سفيراً إلى بعض الولايات ، وأصبح بفضل ذكائه وجده أحد القضاة الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وكان قد عرف فى طفولته صبية حسنة فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها أحيانا وكانت تمتد بينهما صلوات على بعد . وكلكم يعرف ما كان من أمره معها ، وما كان من الشتات والفرقة ، ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل ، وهى تشغل جزءاً عظيماً من كتاب دانتى ومن حياته أيضاً . ويظهر لى أنه لم يجب قط غيرها إنسانا وكان حبا من صميم الأحشاء . وأن فواده ما برح بناجيتها - والقبر ما بينه وبينها - وينزع إليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امرأة أخرى ولكنه لم يسعد . وشتان ما بينه وبين السعادة !

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه ، فإنه لولا تلك المصائب لما كان دانتى إلا أحد قضاة بلده ، ولخسر العالم كلمات من أبرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحداً ، ولكن العشرة القرون الخرس كانت تستمر على خرسها ، والعشرة القرون التالية المصبغية (لأنه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون وأكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة - كتاب دانتى - وتخسر للذيد مسموعها . نعم لا أسف ولا حرقة ولا حسرة ، وكيف وإنما أراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى . ولعلنا لا نعرف أيهما الأسعد الأهنأ - عيشته المرة الأليمة ؟ أم عيش هادئ عادى ؟ والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عايش فى وطنه قائم بوظيفة القضاة ، إذ ثارت فتنة أدت إلى نفيه وسائر حزبه ، فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل ، وانتزعت أملكه وأصبح وهو :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد كالسيف عرى متناه عن الخلل
وكان يشعر فى حشاه جمة تتوقد ، بأن ما لقيه من أفحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع إلى وطنه وثروته ، ولم يدع وسيلة إلا اتخذها حتى السلاح ، ولكن عبثاً حاول ، وما زاده اجتهاده إلا عخطبا على خطب ومحنة

فوق حنة فأهدر دمه ، ونودى متى قبض عليه أعدم إحراقا . هكذا وجد فى بعض الآثار . وألقى أيضا رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ، رداً من دانتى على اقتراح قدمه إليه قضاة بلده يعدونه بالعفو والعودة إلى منصبه وأملاكه ، إذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة . فأجاب فى عزة وكبرياء « إذا أنا لم أرجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبدا » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف إلى مضيف ، ومن محل إلى محل ، منطبقا عليه قوله : آه ما أوعر المسلك وما أحشن الطريق ! » ولم يكن دانتى بالجليس الممتع ، وأنى يكون كذلك من ظل وهو كسير القلب كسيف البال ؟ كلا ولا كان دانتى صاحب الطبع الحاد والفؤاد الجاد والأحزان والأشجان بمجدير أن يلهى الغير بفكاهته ويضحكهم بنادرتة ، وقد روى عنه « بترك » أنه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلا سكاللا » وقد لامه ذلك الأمير على إطراقه واكتتابه وصمته ، أحابه بجواب خشن . وكان الأمير إذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « أليس عجيبا أن نرى ذلك الماخن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا ولذة ، وأنت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فاليوم والشهر فالشهر مطرقا صامتا لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب . أو لا تذكر المثل : إن الطيور على أشكالها تقع ؟ فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات والكلمات الموجهات والصمت والإطراق ، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى أفهمته أنه أصبح ولا مأوى له على ظهر الأرض ولا ملاذ ولا ملجأ ولا أمل ، وأن الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى أنحائها شريداً .

كأنما هو فى حل ومرتحل موكل بفضاء الأرض يذرعه
وإنه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له ، أو حشا يخفق وجدا
عليه ، وإنه لا نخل ولا صاحب ولا سلوة ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجاقت جنح بالطبع إلى الآخرة ، وتوجه
وامتلاً خياله بصورة العالم الأبدى - ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا
وبلدانها ومناصبها ومصائبها إلا ظلاً كاذباً يرفرف عليه . وناجته نفسه : أما
وطنك « فلورنس » فلست ناظراً آخر الأبد ، وأما الجحيم والجنة فسوف ترى
أوماذا وطنك والأمرء وماذا العالم والحياة ؟ تلك لا شىء ! وكذلك إذ أصبح
دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل . وكذلك
أصبح لا يرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومرح أفاكاره .
والآخرة سواء حسبها الناس شيئاً معنوياً أو شيئاً حسياً فإنها ما برحت أهم
أمورهم ، ولكن دانتى كان يعتقد أنها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس
باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور . فلم يشك دانتى فى أنه سيصير
طبقات الجحيم وينظر بها بركة « مالبولج » كما يشك أحدكم فى أنه يبصر
القسطنطينية لو أصبح على شاطئ البوسفور . فلما أفعم فؤاد دانتى من هذه
الأفكار والخواطر ، وطال عليه تأملها فى سكوت ، وتدبرها فى صمت ، طفح
بها إناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر ..
كتابه المسمى « القصة المقدسة » أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى ، بل من أعظم دواعى الفخر أنه
استطاع أن يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منفاه ومحنته ، وأنه لم يك فى طاقة
« فلورنس » ولا فى قدرة أى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين إتيان تلك
المأثرة الكبرى والمفخرة العظمى أو يعينوه عليها . وكان يشعر بعض الشعور أنه
عمل جليل كأجل ما يستطيعه امرؤ ، وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة
بأسائه وأزمته نكرائه إذا أمضيت عزمك ظفرت - كل من سار على الدرب
وصل - وكانت مؤنة الكتابة كبيرة عليه جداً ، وكان نضبها شاقاً حتى قال :
« هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل لقد أحرز دانتى
قصبات السبق بالكد والألم لا بالدعة والعبث . بل بالجد العلقمى والجهد
الناصب . كيف لا ؟ وإنما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه . وكذلك معظم

الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها ، والكتاب مودع سيرته جميعها . وكانت وفاته بعد أن أكمله بـعده سيرة ولما يطعن فى السن — وإنما قضى فى السادسة والخمسين من عمره ضحية الحزن والكمد .. هكذا يقال ، وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى « رافينا » فأبوا كل الإباء ، وعلى قبر دانتى هذه الآية : « هأنذا — دانتى — مدفونا بعيداً عن وطنى ومسقط رأسى » .

قلت : إن قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزياً عميقاً ، وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال « كولريج » فى بعض كتاباته : إن كل جملة موسيقية التركيب . يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم ، فلا بد من أن تكون ذات معنى جليل شريف ، لأنه ما زال أبداً بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ألفة وشبه . والشعر القديم الجيد .. شعر هوميروس مثلاً ، كله غناء ، بل كل شعر حر غناء . وأن كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو ، وأذى ومصاب على القراء . وإذا كان فى رأس أحد الناس خاطر فما باله لا يديه فى عبارة سهلة قريبة .. أعنى فى جملة نثرية ؟ بل ما باله لا يستريح أو يخرج ملثوياً معقداً تطن به القافية ؟ أما أنه لا حق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد ، فيصبح صوت منطقته بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقياً . إذن فله علينا أن ندعوه شاعراً ونصغى إليه على أنه غريد الناطقين وهزار اللافظين ، والأدعياء فى ذلك كثيرون . ولذلك كانت قراءة النظم على القارئ الأريب عملاً شاقاً إن لم نقل عملاً لا يطاق ! وما أقبح النظم الذى لم يكن هناك ضرورة إلى نظمه .. الذى كان أولى له أن يلقى إلينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . وإنى أنصح إلى كل من أمكنه أن يقول أفكاره ألا يغنيها ، وأن يفهم أنه لا مجال فى الأحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعراً . وكما أن الغناء الحر يلذنا ويطننا فكذلك الكاذب منه يؤلنا

ويوجعنا ولا يقنع منا إلا موقع الضوضاء المقوتة المنكرة ، ولا نراه إلا كظنين الذباب أو دوى النحل .

وحسب دانتى فخراً أن أقول: إن قصته هى غناء حسن . بلى إنى لأجس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الأناشيد . ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك ، بل أرى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص . ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فجورها ومادتها من الموسيقى . وهى بفضل عمقها وحرارتها وإخلاصها موسيقية ، وإنك ما تعمقت قط إلا أصبت الموسيقى فى كل شىء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب ، وهذا أيضا من حسن الموسيقى . وكأما أركانها الثلاثة : الجحيم ومكان التطهير والجنة .. فى تواجدها الأركان الثلاثة لقصر مشيد ، وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آلة الروح والجلال والهيبة . هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملأه بالأرواح بين منعم ومعذب - هذا هو عالم الأرواح خلقه دانتى ؟ وهى أشد أشعار الدنيا إخلاصا ، فالإخلاص هنا أيضا مقياس الفضل . ولقد خرجت من لباب لبه فهى ما تزال تبلغ لباب ألبابنا .

أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبه إلى كل نفس وكان أهل فيرونا إذا بصروا به فى إحدى الطرقات قالوا . ها هو الرجل الذى كان فى جهنم ! بلى وخالق الخلق لقد كان فى جهنم .. فى جحيم الحزن والكربة والبلاء ، والقصاص التى تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها إلا الشقاء والبث واللوعة . أوليس الفكر والعمل الحرأيا كان والفضيلة العليا .. أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنها نتجت من الزوبعة السوداء . أليست بجهودا صادقا كجهود الأسير إذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصفاة النفوس وراووق للطباع .

وقد هذبتك الحادثات وربما صفا الذهب الإبريز قبلك بالسبك

(الأبطال)

بلى ليخيل إلى أن شعر دانتى قد سبك فى تنور روحه ، وبودقة قلبه . ألم يتركه « مهزولا » عدة سنين ؟ وأن الدقة لتعتور قصته جميعها لم تغادر منها فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك أصدق ما يكون وأجلى وأنصح ، و تراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها فى موقعه كأنه حجر المرمر أنعم نحته وأجيد صقله . وهل هى إلا روح دانتى تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبداع قوالب الشعر وأعجب . وتالله ما هو بالعمل السهل وإنما أمر عظيم وخطب جلل ، ولكنه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل الحدة هى مميزات دانتى ، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمع النفس ولكنه رجل ضيق الطعن متحزب . وبعض هذا راجع إلى طبيعة العصر ، وبعضه إلى طبيعة الرجل . فترى أن ملكات دانتى وقواه الذهنية قد تجمعت وتكثفت حتى أصبحت حدة نارية ، وشعوراً عميقاً فهو ينفذ فى جسم كل شىء حتى يرسب فى قرارته . ولست والله أعرف فى الوجود شيئاً له مثل هذه الحدة . انظروا إلى تصويره الأشياء تروا أن له أقوى قوة بصرية ، فإذا نظر إلى الشىء عرف حقيقته فأداها وحده ، وتذكرون صفته لقاعة « دايت » بالجحيم إذ قال : « ذروة حمراء ا حديدة حممة جمرية التوقد مخروطية ، تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصح هذا الوصف وما أئينه وما أوضحه لأول وهلة ، ثم إلى الأبد : وهذا عنوان الرجل فإن فى دانتى لأخصر إيجاز واقتضاب فى دقة وإحكام ، وإنه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى .. ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه
ما أرشق تشبيهاه وما أدقها وما أحكمها ، حتى ليخيل إلى أنه يحز فى الشىء بقلم من نار ، فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لجزر فرحيل : « إنه كالشراع انخطم عموده بغثة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول : « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج النارى) المتساقط على المعذبين (تلج نارى بلا ريح بطيء مصمم دائب لا بنى ولا يتهى) ولا أحسب هذا التصوير

إلا قطعة من صميم عقل الرجل ، وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطلياني الحاد السريع الناري الصامت الشديد القوى ، وحر كاته الوشبكة المقتضبة وثوراته الساكنة العظيمة .

لأن التصوير وإن لم يكن من القوى الظاهرية السطحية ، ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، أوجد رجلا يحسن الوصف تجد رجلا فاضلا ذا قيمة ، فإنه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن فى فؤاده حب يلقه على ذاك الشيء فيكون سببا إلى التعمق فيه وإنعام النظر .. لو لم يكن ذا جد وإخلاص . والرجل العديم الفضل لا يستطيع أن يصف لك شيئا فإنه بضعفه ولؤمه لا يمكنه أن يتعدى الظواهر ، ولا يقف إلا عند الأكاذيب والأباطيل . أو لا يمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء؟ - استبانته بالامتزاج بها الناشئ عن محبتها والابجذاب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا للولوع بها الذى كله إخلاص لها وصبابة إليها . وقديما كان الحب أول هاد إلى خبايا الحقائق . الحب الصادق الصاحي الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر بأجنحة الخديعة والطييش . لأن الحب الصادق يستلعى رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجليه للغوامض المستبطنة للدخائل . ولن ترى الرجل البليد الإحساس الكليل إلا محجوبا عن أسرار الأمور لا يلبس منها سوى القشور . وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية ، فالرجل الذكى الأريب هو ما أبصر من الأمر المراد إتيانه النقطة الجوهرية ، فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذى كأنه وهج الحريق فى الليل البهيم ، هو كل ما يمتاز به وصف دانتى وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيته ، ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا إلى ما ورد بالقصة من حديث الغادة « فرانسسكا » وعاشقها - ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الأكباد تجلوه كأنه متنسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، أو كأنه صوت ناى جم النواح مبجوح الأنين يناجى حبات القلوب

باديا فيه رقة الشكوى وذلة الوطى ورنه الثكلى . وأشجى ما فيه أن الحبيين يلقيان عذاب الجحيم معا ، فحبنا ذاك الاجتماع سلوة فى الشقاء وعزاء فى الضراء . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسكا » هذه ، وربما جلست تلك الفتاة على ركية دائتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها إذا أذنت فى حياتها أبى دائتى إلا عدل الجزاء فجعلها فى جحيمه بحيث تعلمون . ولكنه شفيع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بجيبيها . يا لها رحمة فى قسوة ، وعفو فى شدة ، وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن إدراكها دائتى . وما أقبل رأى القائلين بأن كتاب دائتى لم يكن إلا هجاء فاحشا أراد أن يسىء به إلى من أعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم . وأحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرعوم ورأفتها فذاك هو دائتى . ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا ، والذى تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الاختيار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دائتى ولا أكثر حبا ، وإن بين جنبيه لحشا خفقا ، ووجداً وإشفاقا ، وفؤادا ملتاعا ، وولها ونزاعا ، كحنين النايات والعيدان ليانا لينا ، أو كمهجة الطفل . ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعدا ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجذ وجور القضاء ولوم الزمن ، وصبابة وحنين إلى حبيته « بياتريس » ولقاءهما فى الجنة ، ونظره فى عينيها النحلاوين تشرفان بشعاع النور المقدس - وقربه منها .. من الغادة التى طهرتها حياض الفردوس وصفاء الأبدية . كل هذا شبيه عندى بأغاني الملائكة . ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شىء ، فلقد نفذ بمجدهته إلى كل جوهر ولب . وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل إلا ما يعثور جميع ملكاته من الحدة . وهو فوق كل ذلك كبيرا من حيث الصلاح والتقوى وذلك أساسه وعنصره . فاحتقاره للدينونة عظيم ، وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده . وهل الأسف والاحتقار إلا حب قلب تحول عن جهته وأحيل عن طبيعته . ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم

: « لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة إليهم ثم نضرب صفحا ». يا له احتقار في ترفع ونفرة في سكوت وأنفة فى صمت وإعراض ثم قوله يذكر فئة من المعذبين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل إلى أن دانتى يعرض بنفسه فى هذه الجملة ، فلقد أتى عليه حين من الدهر كان قد يمس من الراحة حتى راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلم شعاع أمل أنه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحة القبر ، وأن القضاء نفسه لا يمكنه أن يجرمه « هذه النعمة » . مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل ، وأراه فى الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظر إلا فى أنبياء بنى إسرائيل . فإذا أردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية .

ولا أوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على قسميها الآخرين ، ومرجع هذا التفضيل هو فى ظنى « بيرونية »^(١) فى الذوق والمشرب . ولعل القسم الثانى « مكان التطهير » أبرع من الجحيم وأسمى . أجل ما أشرف ذلك الجبل - جبل التطهير - فهو رمز لأشرف أفكار هذا العصر .. رمز لبراءة الإنسان بالتوبة . وإذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون ، والجحيم من العذاب والألم كما تعهدون ، أليس جديراً أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمال النصرانية . ثم ما أبدع ما وصفها دانتى وأبرع ، إذ قال : إنه بعد خروجه من الجحيم أبصر على مدى العين بريق أمواه تترقق ، ولمع أمواج تهتز وتخفق فى بريق الصباح ولمع الضحى . فهذه صورة تدل على تحسن الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حى لا يموت وأشد ما يكون فى الحزن ، كالشهاب أسطع ما يكون فى فحمة اللبجور .

كالكوكب الدرى أخلص ضوءه حلك الدجى حتى تألق وإنجلي
وهناك جيل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون الثابتون وقمة الجبل
فى عليين دونها باب الجنة . وماتنى أنفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد إلى

(١) نسبة إلى بيرون - يراد طريقة بيرون وهى كراهة العالم .

عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونه : استغفر لنا ربك . ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاءً ومشقةً وعناءً ، وقد أدنى الكلال خطاهم وأضى الكد أبدانهم وأسنوا وشاخوا فى ذلك الصعود ولما بلغوا القمة . ولكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس ، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع ، وترنح الجبل طرباً ووجف سروراً وهتفت الملائكة بنشيد مقلدس ! فهذا فى نظرى تصوير لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متوازرة ولا غنى لواحدة عن الأخرى وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقياً صامتاً وغناء ساكناً ، وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ، ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى ، وهو شئ جليل حر الجوهر طول الدهر . ولعله لم يتمثل فى نفس إنسان كما تمثل فى نفس دانتى ، إذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر . وما دانتى إلا نبي أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر . وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية إلى العالم الخفى ، حتى لنجدنا بعد سبعة أبيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لا ريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده إلا سبيلاً إلى حياة أخرى خير وأبقى . ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ، ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . وإذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح . أو ليس فى كل امرئ روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جلياً ، ولقد كان يعتقده وينظره ، فهو من أجل ذلك شاعره ، والإخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما إنما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون . ولعل ناقداً يقوم فيقول لنا ما قصة دانتى إلا ألعبوبة شعرية وضرب من

اللهو والعبث . كلا والله إنما هي أشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهي تمثل بأجسم رموز التمثيل ما أحسه دانتى من أن الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذان عليهما مدار كل شىء . وإن الخلاف بينهما ليس هو أن الخير أفضل من الشر .. منهج الماديين الذين يرجعون فى كل أمر إلى الحساب والوزن والمكسب والخسارة ، بل إن الخير هو الصالح فقط والفرض والواجب ، وأن الشر هو الخيىث المحرم إتيانه تحريما كليا لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل ، فأحدهما للآخر كالحياة للموت ، كالجنة للنار . نعم ما شعر دانتى إلا رمز لذلك ، ورمز للعدل السرمدى والتوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت فى تلك القرون رمز . ولكنها فى نظر دانتى ونظر تلك الأجيال عين الحقيقة التى لا ريب فيها ولا شك ولا نزاع ، التى يعتقدونها الناس من صميم أقدتهم . ولقد قلنا من قبل إن الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والأقاصيص المنظومة . ولا أحسب أن أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتى مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا إليه وبجرد عبث وصنعة ، فإذا رأى ذلك أهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية إنها البيان الحق لما كان يجيش فى صدر المتوحش من وقع مشاهد الكون وتأثير روائعه - بيان كان فى وقته حقا صادقا ، وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية - فرقا كبيرا لم تكن الوثنية إلا تمثيلا لظواهر الكون وأفعال الطبيعة ، وحياة الإنسان وطبائع الأشياء وتقلباتها ، وتصرفات شعونهما واختلاطهما فى هذه الدنيا . وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب الإنسانى - قانون الأخلاق والآداب . فكانت إحداهما للطبيعة الحسية يانا عاجزا سادجا لأفكار الإنسان الأولية ، إذ كان أهم الفضائل هى الشجاعة - الاستعلاء على الخوف . ولم تكن الأخرى للعالم الحسى بل للعالم الأخلاقى ، فإن لم يكن من الفرق سوى ذلك فأى فضل بين وارتقاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها ، و« القصة المقدسة » من يراع دانتى ولكنها فى

الحقيقة إملاء عشرة قرون نصرانية ، وإنما أتمها دانتى وأكملها . وتلك ما زالت الحال . وكذلك الحداد بآلاته وأدواته وصنعتة وحذفه .. قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعتة . وإنما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها وأبوابها ، وكلهم قد صنع معه ما صنع ، وتلك هى الحال فى كل أمر . فدانتى هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطورہ يلذ آذاننا صوت أفكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم وأشهى الغناء . ويرن فى مسامعنا موسيقيا أبديا ما دعا لله داع وما ترنم فى الأيك مسجع . وما أفكاره تلك السامية الجميلة الرائعة إلا ثمرة ما ذكر جميع الصالحين من قبله ، ولو أفضل والله أولئك ، وهل خلا هو من الفضل ؟ أما إنه لو لم ينطق لبقى الطيب الكثير من تلکم الأفكار كما نأ مكتوما - لا أقول ميتا : بل حيا صامتا .

وعلى كل حال أليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من أكبر الأرواح ، وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتى شئء خلاف الوثنية الشمالية وخلاف النصرانية التى هدمها الإسلام بقصرى الشام - وإنما هى أجل فكرة اعتقدها الناس انبرى لها ذلك الشاعر فغناها وألبسها ثوبا لا يليه الدهر .

* أبقى على الزمن الباقي من الزمن : أليس خليقا بنا أن نفرح بذلك الكتاب ونغبط ؟ وظنى به سيقى الآلاف المؤلفة من السنين ، لأن فرقا عظيما بين ما خرج من أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها . فالخارجى هو سحابة صيف ومسألة تولد مع الصبح وتموت مع المساء ، وتزول كالظلال بزوال الأهواء والأميال ، وما تزال تتلون وتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال . وأما الداخلى فإنه سواء اليوم وفى غد وآخر الأبد وما يزال ذور النفوس الحرة والقلوب البارة فى كل زمان ومكان يجدون فى دانتى هذا أحبا وصديقا وخلا شفيقا لما بين روحه وأرواحهم من النسب ، وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

أو لم يكن نسب هناك فملؤنا ماء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من أصل واحد ، أصبح
الأم الذى يقدح فى نفسه كذلك فى نفوسهم ، والأمل الذى يدب فى روحه
يدب أيضا فى أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالنأى والعيذان إذا حن وهتف خفقت
جوابا وأنت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح فى منفاه بسانت هيلينا إلى
قصيد هوميروس ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق . وبين القارئ والمقروء كما
تعلمون عدد السنين ، وأقوال أنبياء الله الأقدمين ما تريح تحالط نفوسنا لخروجها
من نفوس قائلها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر خلوده الوحيد .
ودانتى فى عمق الإخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء ، وأقواله كأقوالهم خارجة من
القلب . ولا عجب إذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شئ أخرجه
أوربا لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شئ . وكل ما بالقارة الأوربية من كنائس
ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة ، فمهما بلغت من المتانة والرسوخ
فهى قصيرة العمر فى جانب غناء قلبى كهذا . وظنى أنه سيقى حبيبا إلى القلوب
شهايا إلى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن أوضاعها ، وليست محدثة
وتألفت فى تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وإن لم تعدم مادتها . وإن ما
صنعت أوروبا وما أتت لكثير جدا : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع
وطوائف ، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتى إلا شيئا قليلا .
وذلكم هوميروس حى للآن يخاطبكم وجها لوجه . ولكن أين دولة اليونان ؟
بادت من القرون العديدة ، وذهبت وزالت ولم يبق منها إلا كئيبان أنقاض إن
تسلها عن سالف مجدها لم تخر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة
أصبحت فى الثرى . كأنها رفات أميرها أغا بمنون ! وكذلك قد كانت
اليونان ، وهى اليوم لا تكون إلا ما نظقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دانتى ؟ ! » إنه سؤال غريب لا
يسعنا أمامه إلا الضحك والاستغراب . حسبنا القول بأن العقل الذى أمكنه أن
ينغمس فى عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمت غناء حسنا ، جدير أن يكون
قد أثر أكبر الأثر فى صميم الحياة وقلب الوجود . وإنه ما زال طول الدهر ينبوع

الغذاء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة ، يغذيها بطريقة لا يهتدى إلى قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبتول؟ والخلاصة إن دانتى أجل من أن تقدر قيمته .

وعلى العموم فما كانت الرجال وأعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا - بما نراه نحن أنه تأثيرهم - تأثير ؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل ، ليصنع كل امرئ صنعه فما ثمرته إلا حسب عناية غيره وسيثمر ثمرته . وليس يهمننا أخرجت أعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفأة ، أم خرجت عارية من كل هذه - خفية صامته - نعم ماذا بهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة إلا ما أحسن ، وإذا كانت أعمال الملك أو الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فإنها كالهباء ، وما ذلك الملك إلا أكذوبة وباطل وحرص هالك وسقط متاع مهما أحدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ، ومهما قلل من مضارب السيوف وأدار من أقداح الختوف ، ومهما قبض من الآجال والأموال ، وملك من أعنة الرجال والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . ألا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياتهما الله من عالم ودولة ! لا يريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك أنفع من الصراخ وأجدى ، وخير من الضجة وأبقى .

* * *

وكما أن الله أرسل دانتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة . فكذلك أرسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما كانت إذ ذاك ، وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة والمروءة ، وشتى الأهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأى . وكما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ودانتى بعد آلاف السنين المعرض الواضح لأوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية

ودنيوية ، نعم لئن يك دانتى أدى إلينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكان الله أبى إلا أن نعطي البدن أيضا فأعطانا على لسان شاكسبير . وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى - تلك الحياة الشريفة العالية - حد الكمال ، وأذنت بالاضمحلال السريع أو البطيء كما نراها الآن في كل مكان ، أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم في الشجر ، وغرد البلبل في القمر . رجلان كفئان - دانتى عميق حاد فائر كأنه ما بجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادئ بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهري . أحدهما ثمرة إيطاليا ، والثاني بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقط الصدفة إلينا ذلك الرجل ؟ وظنى أن شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة والكمال والاستغناء بالنفس بحيث إنه لو لم يخرج من قريته بسبب ما أتى من سرقة الغزلان ، لكان له فى عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ما عداهما . وكان قد عاش ومات ولم تفتح أغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم أكبر شعرائه قاطبة . نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغيابات والسّموات والريف والعيش القروى . ولكن إن كان شاكسبير هذا قد جاءنا عفواً ، ألم يجى ذلك العصر - عصر الإصابات - أيضا عفواً كأنما من تلقاء نفسه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحى وتذبل وتنضّر ، كالشجرة التى جعلها الوثنيون فى الشمال رمزاً للحياة الدنيا - ولكنها تأبيل وتنضّر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين أزلية ونواميس أبدية ، لا تظهر عليها ورقة إلا بميقات : لا يظهر عليها بطل إلا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق إلا وهى جزء متداخل فى نظام الكائنات أجمع ، مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة أو فعلة لرجل ما إلا ومنشؤها العالم أجمع . ولا بد أن تعود بالتأثير آجسلا

أو عاجلا ظاهرا أو باطنا في العالم أجمع . أجل ، هى شجرة « أجدرازيل »
التي أصلها في مملكة الموت وذرى فروعها فى الجنان ! .

وعهد إليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ثمرة العصور السالفة —
وينسب إلى كاثوليكية القرون الوسطى . وإنما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية
التي تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التي سجع بها دانتى . لأن الدين
كان إذ ذاك كما هو الآن وكما يكون فى كل أن روح العمل — كان الحقيقة
الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب أن ظهور شاكسبير لم يكن إلا
بعد أن نسخت اللوائح البرلمانية تلك الكاثوليكية التي شاكسبير من ثمراتها — بقدر
ما فى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى — ومع ذلك فقد ظهر
شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها . لقد أرسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال
باللوائح والبرلمانات . فإن للملوك والأميرات مذهبها وللطبيعة كذلك مذهبها .
واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ما تحدث من الجلجلة والدوى . إذ أى لائحة أو
مناظرة كانت قادرة على إخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولايم بالقصور ،
ولا افتتاح صحائف الاشتراك ، ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطين الحق
أو الباطل ! إنما جاد ذلك العصر الإليصاباتى بحجده وشرفه من غير ما طلائع
ولا رواد ، ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد . وجاء معه شاكسبير منحة
الطبيعة وجائزة الدهر ، أداه إلينا الحظ فى سكوت ، فتناولناه فى سكوت . كأنما
هو شىء صغير الشأن قليل الخطر ، وإنه فى الواقع النعمة لا تقدر ، والهبة لا يجد
مقدارها ولا يحصر .

إن صفة الأبداء فى جميع الأقطار الأوروبية ، وأعظم الفحول من النقاد
والكتاب والشعراء قد أوشكوا أن يجمعوا على أن شاكسبير سيد شعراء العالم
على الإطلاق . والحق أقول : إنى لا أعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة
والذهن القوى إذا تأملنا جميع صفاته فى أى إنسان آخر . تبارك والله تعالى عن
الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجليلة الصافية تترأى فى جوفها صور جميع
الأشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق . وقد قيل إن فى تركيب روايات

شاكسبير - فضلا عن سائر الفضائل والمزايا - آية على فهم مماثل لما جاء فى كعب بالون « النظام الجديد » « نوفام أورجنام » وهذا حق ولا غرابة فيه ، وربما كان أبين إذا نظرنا إلى الحوادث التاريخية أو الجغرافية العاربية الجافة التى أحدثت منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة ، واجتهد أحدنا أن يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع ذلك الشاعر الأكبر ! حجارة وأخشاب وحديد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد اختلاط وتشويش شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الأركان ، مونق البنيان ، تتلي فى أصغر أجزائه آية الإحكام والصنعة ، حيثما ألقيت البصر لم تلق إلا إتقاناً وإحساناً ، فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى . وما هو إلا أن ننظر إليه حتى ننسى الأناقض المبعثرة والأخلط المشوشة التى صاغ منها وصور ، وإن كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لنخفى فضل الصانع وتغيبه . ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل إنسان وفوق كل امرئ بطبقات ، فإنه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال ، والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرته فى ذلك بالسريرة القصيرة ، ولا غناء فى تلك ، وإنما نظيرة طويلة حجة الشعاع غزيرة الضياء ينير إشراقها الموضوع كله - وعين ذات إبصار دائم - ساج ساكن ، أو بالاختصار عقل كبير . وعسى أصبح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن يجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره ، فتتظر أى تمثيل وصورة يقدم لك ، وأى حادثة هى فى نظره أعظم وأجل فيبرزها ، وأى أمر أدنى وأقل فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال ، وأعجب تخلص وانتقال ، وماذا أبرع تقسيم وتبويب ، وأبدع تنسيق وترتيب . وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة النهاية ؟ فإذا حملت الرجل على إبداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ، وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، إذ لا بد له أن يفهم الشئ الذى يحاوله ، ويصير الأمر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون فضل الجواب . أترأه يضع الكلام فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ إلى لفته وقريبه ، والمعنى إلى شكله

ونسبيته ؟ وهل أرسل روح النظام فى تلك الأنقاض المبعثرة والأحلاط المشوشة فرد الفوضى نظاما ، والخلاف وئاماً ، وألف أعناق الشوارد ، وجمل شمل البدائد ! وهل أمكنه أن يقول للشئ كـن فيكون ؟ هل أمكنه أن يقول ليكن ثم ضياء يحول به عالم السديم نظاما ؟ أما إنه ليستطيع ذلك لو كان الضياء فى عقله والشعاع فى نفسه .

ومن أسباب عظمة شاكسبير أيضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء ، لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تنجلي عظمته فى ذلك وتستبين . ولا أحسب أن إنسانا يمثله فى تلك القوة المخترعة الهادئة . فإذا نظر إلى الشئ لم ينظر منه إلى ذلك الوجه أو ذاك بل إلى صميم له . فكان ذلك المنظور يتحلل أمامه فى ذوب من الضياء فتكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه . نحن نسمى ذلك إبداعا واختراعا وخلقا - خلقا شعريا وما هو - لو تأملت - إلا النظر الدقيق المستوعب للشئ المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا . ثم أما ترون فى شاكسبير أيضا فضائل الحكمة والعظة ، والعبرة والشجاعة ، والمروءة والصراحة ، والحلم والعفو ، والسداد والصدق ، وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذلة العقبات ، الهازمة المشقات للخروج من كل قحمة عزاه ، وورطة نكراء . عظمة ويمين الله فى سعة السموات والأرضين ، وعقل يمثل لك الحقائق كما هى لا كما يجرفها الزمن المنحرف عن الجادة ويجورها الفكر المصدود عن القصد ، فكأنما والله عنل شاكسبير المرأة المستوية إذا كانت أذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . أعنى أن شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى فى الرأى بين جميع الأشياء والبشر - رجل كريم عادل . براعة والله وقوة ، وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع أصناف الرجال من هامليت إلى أويلو إلى فولستاف ، إلى روميو إلى كوريلاناس ، وتأديته إياهم فى أكمل خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم فى حبه ومعذرتة ، وسعته إياهم جميعا بلطفه ورحمته - حبذا هو أخو البشر وشقيق الإنسان ، وما كان ذهن باكون ليقاس

بذهن ذلك الشاعر ، فإن الأول على كماله وعظمته من طينة أدنى من طينة الثاني — طينة أرضية مادية حقيرة بالقياس إلى ذهن الشاعر الأكبر ، وإنى لا أجد لشاكسبير فى التاريخ الحديث مثيلاً قط ، وليس منذ أيامه حتى الآن من يذكرنيه إلا رجلاً واحداً هو « جيتا » فإنه أيضاً نظار إلى حقائق الأمور وجواهر الأشياء . ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسبير إذ قال : « أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه — بينما تريك الساعة فى وجوهها ، إذا هى أيضاً تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة وأحشائها » .

العين البصيرة ، هذه هى الكشافة لبواطن الأمور ، والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف — الكشافة لما أودعته الطبيعة أجواف الأشياء من الأغراض — من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة . نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شىء مهما قبح ظاهره غرضاً هو للعين البصيرة واضح بين ، أفهل هذه الأشياء خبيثة دنيئة ؟ إنك قد تضحك من تلك الأشياء وقد تبكى ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، أو على الأقل يمكنك أن تصد عنها وتصرف ، وتعرض وتتحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها . والعقل الكبير هو أول مواهب الشاعر ، فإذا أوتى ذلك فقد صار شاعراً — شاعراً بالقول فإن لم يؤاته ذلك فشاعراً بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب — ثم يكتب شعراً أو نثراً هذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف — ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التى تمكنه من أن يبصر لباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن لكل كائن نظاماً فى جوفه وائتلافاً موسيقياً فى ضميره ، وإلا فما كان يتماسك ويكون) ما هى بنتيجة عادات ولا صدف ، ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل إنسان هو — أنظر ! فإذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنا لك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ، ولا حاجة هناك إلى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعراً ، وأولى لك أن تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فإذا شئت ، فإن لك فى غير الشعر مجالاً ومندوحة ، فى التجارة مثلاً أو الصناعة أو الزراعة ،

وحسبك ذلك . وأنت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنت عملك أيا كان ، بشرط أن يكون حلالا طيبا كريما ، ولا عار فى العمل المتقن ما لم يكن خبيثا ، والإتقان نتيجة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما فقدته أشد المحن .

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماسة أعت من يداويها والحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته . ولو سئلت أن أعرف بملكات شاكسبير فقلت إرباء عقله على كل عقل لكنت قد أدركت الغاية وبلغت النهاية . وما هى فى الحقيقة تلك الملكات التى نذكرها كأنها أشياء شتى ، كأن للمرء ذهننا وخيالا وإدراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان ، وهذه غلطة مبينة ، ثم نسمع أيضا أن للمرء « طبيعة ذهنية » و« طبيعة أخلاقية » كأن هذين شعبتان كل فى ناحية . أما إنه لا باعث على استعمال تلك الألفاظ المختلفة إلا ضرورة النطق ، وأرانا إذ كنا لا بد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة . ولكن لا ينبغى أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء ، فإن ذلك هو السبب إلى خطئنا فى هذا الأمر وضلالنا . وإنما يجب علينا أن لا نزال نذكر أن هذه الأقسام ليست فى الحقيقة إلا أسماء ، وأن طبيعة المرء الروحانية - القوة الحية الكامنة فيه - هى شىء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ، وأن ما نسميه خيالا وإدراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك ، إنما هى صور مختلفة لتلك القوة المبصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض .. دليل بعضها على بعض ، حتى لو عرفنا أحدها لأمكننا أن نعرف الباقي . وما أخلاق المرء إلا ناحية من تلك القوة الحية التى بها يعمل وبها يكون . وكل أفعال المرء - لو تفقهون - دليل عليه ، حتى ليتمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه فى الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فإن جبهته أو إقدامه ليبود لك فى خلال لفظه . وما كلمة الرجل أو رأيه بأقل نغما عن شجاعته أو خوره من ضربته أو طعنته ، وهو هو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة فى صور شتى .

قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه يسعى بهما فى الأرض ويضرب . ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق ، والرجل الذى لا خلاق

له المجرد من كل أثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة ، لا يرى شيئاً حق الرؤية ولا يعرف شيئاً حق المعرفة . لأن المعرفة الصادقة لشيء ما تستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أعنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة . وإذا لم يكن من العدل بحيث لا يزال ينتصف لكل شيء من نفسه ، ويأخذ الحق منها لغيرها ، ويقمعها ويقذعها ويذها ويقهرها ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل إلى الحق على ما فيه من عذاب ومضض ، فكيف يجد إلى العلم بالحقائق سبيلاً ؟ وإنما الطبيعة وحقاتقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختموم ، وما يعرف مثل هذا من الطبيعة إلا قشوراً وأباطيل وخبائث مما يستخلمه فى أغراض ساعته . وما مثله إلا كمثّل الثعلب ، أو ما يعرف الثعلب شيئاً من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز ! وكذلك الثعلب الآدمى وما أكثره فى كل زمن وبقعة ، أترأه يعرف إلا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل إن اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتدائه إليها ، فضيلة تعلية . ولو أنه أضاع أوقاته حزينا أسفا مطرقا يفكر فى نحسه وشقائه وظلم القضاء له ، وجور الدهر واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة وإقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب التعلية ، لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فإذا قلت إذن إن شاكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على أن فى ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو ما أسميه ذهننا غير متعمد ، وفيه من الفضل أكثر مما يشعر به صاحبه . وقد قال نوفاليس : ما روايات شاكسبير إلا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وأرى ذلك صوابا وحقا . فما صناعته بصناعة إنما هى وحى يتدفق به طبعه عفواً ، ويهطل به خاطره سحادرًا .

ويدر درك للألى ييغونيه عفواً بلا مسح ولا إيساس
شياء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب ، ينوب كدمعة المحزون
غير معتصر ، ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويجيء كوداد المحب غير معتنف

ولا مقتسر ، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل في السحر ، وغناء الحمام فى الشجر ، أو كشذا المسك يفوح وينتشر ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف ولا تعمل ، ولا تصنع ولا تمحل ، وإنما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيحترق روح ذلك الرجل ، أو صوت الطبيعة يخرج إلينا من فم ذلك الرجل . أو أن شاكسبير نأى تناوله الطبيعة فتزتم فيه بأشجى نعماتها ، وتخرج منه أشهى أصواتها . ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فى شاكسبير هذا معانى جديدة وبيانا لألغاز حياتهم . وإنها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق أن يجعله جزءا منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها ، تخرج من مجاهل أعماق نفسه عفواً لا أثر فيها للصنعة والتكلف — كاللوحه نابتة من الثرى ، وكالجبال والأمواه إذ تليس أشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان . ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ، أرأيتموه يتسخط ويتشكي ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه يتألم ويتحسر ، ويتوجع ويتضجر ، أم كان خلواً من الألم والرح والكمد والترح ؟ كلا ولكنه ستار للشجو كوم للمصيبة ، وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والحن فلم يظهر إلا ثمارها من بارع الكلم ، ورائع الحكم ، كأنها الجنود ، وكأنها الأغذية النباتية والقوى الكونية الخفية الفعل المستورة الأثر العظيم والله الكلام ولكن الصمت أعظم .

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هى من جلائل الصفات . ولا أنعى على دانتى كآبته وشقوته فإنها حرب بلا ظفر ، ولكنها حرب صادقة وهى أهم المسائل وأخطر الأمور . وأرى شاكسبير يعد أعظم من دانتى من حيث إنه جاهد فظفر . ولا يخجلكم الشك فى أنه قد كان له حظه من الهموم والأحزان ، وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرح من مرارة الحن ، وغامس من حومة الخطب ، وكافح من غمرة الكرب . يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ، ويطفو به ذلك العباب ويرسب ، حتى بلغ شاطئ الأمن ونجاء الله من الحين . وقد أقال الرأى من زعم أن عيش

شاكسبير كان خلواً من الأسي ، صفواً من القذى ، لم يرد منه إلا عذبا زلالا ، وفراتا سلسالا ، وأن شاكسبير لم يك إلا بلبلا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعاً وتوتيا ، وبلغ أجله شدواً وتطريبا ، سعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادئ البلبال ، شأن البلبال والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دئرات الدهر كيف تدور
كلا وأبيكم ما كان امرؤ قط هكذا ، وأنى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان إلى كتابة مبكيات كمبكيات شاكسبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن وليس الشجى ؟ بل كيف يتأتى لرجل أن يصور أمثال هامليت وكريالاناس وماكيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة ، إلا وقد عرف قلبه الكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج إن المبالغة عنده مقصورة على فن الفكاهة رهن بيباب الضحك . وكثير فى روايات اللفظ الموجه والقول المقذع والكلم النافذ المحرق ، ولكنه عند حد ، وما كان قط ليغلو فى كراهة البشر ولكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر . وإذا نصب من أشخاصه واحداً للفكاهة هال على رأسه ما لا يمحصى من فنون المزاح والمجون وألقاب السخرية ، وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفذ الاستغراب . فكأنما يضحك بماء ضلوعه وقلبه ، ثم هو ضحك صالح لا يقصد به إلا السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء . ولن يكون الضحك من هؤلاء ضحكا وإنما هو سفالة ولؤم ، فإن الضحك الحر الكريم من شىء ما يستلزم حبك لهذا الشىء ، وليس الضحك الكريم بمعمعة النار تحت القدر - تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب . وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الأغبياء والأدعياء . وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ساحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة ، وإن كان لا يزال فى ذلك متسع للقول ومنفسح للكلام . فلو أن كل قصة من قصصه أتيح لها شارح مثل « جيتا » لكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما . وقد

سمى الفيلسوف الكبير الألماني « سكيلجل » رواية : هنرى الخامس وما شاكلها تاريخاً جليلاً وطنياً . وتذكرون ما قاله القائد « مارلبرا » من أنه لم يعرف من تاريخ بريطانيا إلا ما علمه من شاكسبير ، وقل في كتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازى تلکم الروایات قيمة وفضلاً . وما أبدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الإنكليز المكشود المنهوك . وساعة التصاف إذ توشك الحرب أن تبتدئ ، تلك الساعة الجلييلة التي يكمن في أثنائها النحاس والسعد ، ثم تلك الشجاعة الخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صبغت أكفهم في بريطانيا » ألا تجدون في ذلك ريح الوطنية ؟ أما فى ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة ؟ أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادئ برىء من كل أثر للجلبة والغلواء ، كأنما صوت نبضه رنين الحديد الصلب . وظنى أن فى صدر شاكسبير هذا جرأة ليث ، وفى يمينه بطشة قسور لو أشهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية « ستراتفورد » الذى ارتفع إلى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السؤال ، والذى رمقه اللورد سواذمتون بعين رحمته ، والذى كان السير توماس - حفظه الله - يريد إرساله إلى السجن ! إنا لم نعهده إليها كأودين إذ هو عائش وسطنا ، ولكنه رغما من ضعف إيمان الأزمان الحديثة بالأبطال ، فأى إجلال وإكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الإنكليزى ؟ أى رجل ، بل أى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شاكسبير الذى هو أكبر مفاخرنا وأعظم مآثرنا ؟ - مفخرة نزهى بها على الأجانب ، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا . انظروا ماذا يكون الجواب إذا خيرنا بين أن نترك شاكسبير أو بلاد الهند - أن نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط إمبراطورية الهند - أنا أعلم أن رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ، ولكننا نحن لنا الحق أيضاً فى أن نختار ما نراه أفضل ، فنقول سواء حكمنا الهند أو لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوماً ما ولكن شاكسبير لا يذهب .

بل إن لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخر . وتهذيب النفوس والأخلاق فائدة مادية عملية وهي أنه الجامعة الكبرى والعروة الوثقى لشتى طوائف البريطان فى أنحاء المعمورة . وسيجىء يوم تظلل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء بريطانيا إلا الجزء الأخس ، وسائرهم مبعثر فى نواحي الكرة مبدد فى جوانبها . وإذا كان ذلك فما الذى يقرب بين هذى النفوس المتدابرة ، ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة ، فيخضّر بينهم الشرى ويتحلى ، ويشرق الجو بينهم ويتلأأ ، ويصبحون بفضلله أمة واحدة ، ما ذاك الذى يكون قطباً تدور حوله مصالحهم وأوطارهم ، وكعبة تشرئب نحوها أعناقهم وأبصارهم ؟ وماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره ونصابه ، ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ وماذا يكون ذاك ؟ أبالحكومة ولائحتها ، أم بالوزارة واقتراحاتها ، أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا ، فهو الملك الأكبر الحاكم على جميع طوائف الإنكليز فى سائر الأنحاء والأرجاء .

المحاضرة الرابعة

البطل فى صورة قسيس

لوثر .. البروتستانتية .. نو كس .. البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبى نوع من النبى ، إذ لا بد من أن يكون منطويا على نور الوحى . والقسيس دليل الناس فى مذاهب الدين وقائلهم فى مناهج العبادة ، والوصل بينهم وبين السر الخفى ، فهو وزيرهم الروحانى ، إذ النبى أميرهم الروحانى ، والقساوسة وزرأؤه . وهو « القسيس » العارج بهم إلى السماء عن طريق الأرض ، الصاعد بهم إلى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارض الخيرات والحسنات . وهو أيضا فى اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس أسرارها بعبارة أقرب إلى الأذهان وأشبه بالذتيويات من عبارة الأنبياء والرسل : يترجم أسرار السموات - أو ما سماه جيتا (السر الجلى) الذى لا يكاد يراه إنسان ، فكلنا - إلا من اصطفاه الله - إزاءه كما قيل :

يا شاهدا يرنو بعينى غائب ومشاهدا للأمر غير مشاهد

هو نبى عار من روعة جلال النبى وهول مهابته ، يشرق له فى نواحي المعيشة اليومية سراج أقل وهجا من الشهاب النبوى ، وأسكن للألاء هذا ما يجب أن يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم أن الكمال نادر ، وأنه ينبغى الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية إلى الحقائق الواقعية . فأما أن يكون قسيس مجرد من كل هذه الشروط غير محمول أن يكون كل ما وصفت ، ولا متمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه .

* * *

كان لوثرار ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أديا الوظيفة فى أمانة وصدق . وأولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية ، أعنى مصلحين . وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساؤون لوثرار ونوكس فى حسن القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها - يستنزلون هدى الله على عبيده ، ويجدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة . ولكن إذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبيل وأوعثت ، وقامت فيها القحم والمقات ، والموارط والهلكات ، ودجت الخطوب وأظلمت الفتن ، وأزمت الكروب وتشنعت الحن ، فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى فى البحر ذى الصخور والحجارة :

تجافى بها النوتى حتى كأنما يسير من الإشفاق فى جبل وعر ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويوثب ، ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب ، إلا أكبر من غيره - ولا سيما فى نظرنا نحن - وأخطر . فهو القسيس المجاهد المقاتل لم يكن طريقه بالذللول الركوب ، ولا جرت سفينته على يـم ساكت مطمئن تحت ربح رخاء سهوة إلى مرسى الهدوء والسكينة ولكنه نزل بأناسه سوح « ساحات » القتال فى زمن فتوق ثائرة ، وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة ، وأمور باثرة ، ونفوس حائرة ، فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث إنهما أكبر مصلحينا . أو ليس كل مصلح صادق قسيسا قبل كل شىء بطبيعته ؟ وكيف وإنه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين ، وجور الجائرين ، ويعلم أن بطش الله فوق كل بطش وأن :

يد الله كانت فوق أيديكم التى أرادت بنا فى الظنون الكواذب ليس هو المؤمن بالأسرار المقدسة - كاهنا يهتك بصره الشبهات عن حقائقها - أعنى قسيسا . وإذا لم يكن قسيسا قبل كل شىء ، فلن تراه من الإصلاح والمصلحين فى شىء .

وكما رأينا أعظم الرجال فى مراكزهم المختلفة بينون الأديان - الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية - العقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى بها أمثال دانتى ،

والأفعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير - نرى أيضا عكس ذلك : أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال الأبطال ومفاخرها العظمة . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه فى الحقيقة ضرورى . حتى ترى نور الشاعر - ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض ، الطائرة الشعاع . ولا بد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ، ولولا المصلحان القديس « ومينا كيس » والرجل الشديد الباس ، الصعب المراس « ثياد أرماتس » ما ترم دانتى ولولا ما سبق شاكسبير من أعمال الأمم ومساعى العالم من « أودين » إلى معاصره « والتر رالى » ما نطق شاكسبير . بل إن الشاعر الكامل للدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال ، وأنه قد أوشك أن ينتهى ويجيء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة ، فلا بد إذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة .

ولا شك أنه قد كان خيراً لنا وأجمل ، لو أمكننا أن نقلت من تلك الفتن والثورات ، ونتاجمى هذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير أبدا السير اللين الرفيق على أنغام الشعراء ، يروضنا شجى غنائهم ، وطرب حدائهم ، كما كان يفعل « أورفيس »

حيث استفز الراسيات بلحنه أورفيس استدنى القطا الحذرات
ودعا الوحوش النافرات فأقبلت خضع الرقاب نواكس الهامات
وكان خيراً لنا إذ لم يواتنا غناء الشعراء ، لو أنا سرنا فى طريق السكينة
والأمن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من
أحوالنا يوماً فيوما . لقد كان حسبنا والله ذلك ، ولكن أبت سنة الطبيعة إلا
أموراً أخرى . إذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة
الدينية ، بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من أسباب الرقى عقبة وعائقاً
وقيداً لا مناص من خلعه وإطراحه ، وفى ذلك ما فيه من الجهد الجهد والمشقة .
وعجيب والله كيف ترى الخطبة الدينية ، والنظرية الروحانية ، التى كانت
بالأمس تشمل العالم طراً ، وتسمع الأمم جميعا ، ويرضى بها تمام الرضى ذهن

ثاقب دقيق كذهن دانتى ، تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب وإنكار ، وسخر وإصغار .. شبيهة عندهم بنظرية « أودين » . كان دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصته ، وتلك الأودية والجبال . ولكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الأيام كاثوليكية دانتى ، حتى تذهب ويعقبها بروتستانية لوثر ؟ اللهم لا شئ يبقى !

أنا لا أحفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنية كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فإن كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخطب مضطرب مشوش ، ولكنى أقول على الرغم من ذلك إن ارتقاء النوع حقيقة لا شك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء ، وذلك أن كل إنسان فضلا عن أنه متعلم ، فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهب الله ما صنع السلف . وبنفس هذا العقل يكتشف أموراً جديدة ويبدع ويتكرر ، وليس إنسان قط يخلو من ملكة الإبداع والاختراع ، ولا رجل قط يعتقد ما كان يعتقد جده حذوك القذة بالقذة ، بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الكون ، ويعد مدى رأيه فى الخلائق . والكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لرأى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ، ويشتمل عليه ويحتويه . أقول كل امرئ يزيد رأيه فى الكون على رأى جده ، إذ يخطئ بعض ما كان يراه ذلك الجدد ويراه غير منطبق على حقيقة حديثة الاكتشاف ، هذا تاريخ كل فرد ، وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفاً أعظم تضعيف حتى يبدو فى هيئة الانقلابات الكبيرة ، والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتى يحسب أن فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يطهر الله فيه أرواح المذنبين قبل إدخالها الجنة ، وهو ما وصفه فى قصته وسماه جبل التطهير . هكذا كان دانتى يعتقد . فلما ذهب كرستفور كولباس إلى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتى يعتقد وجوده هنالك أفتزى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتى ؟ كلا ، وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم ، وحال ما ينشأ عنها من النظلمات الدينية والدنيوية .

فإذا أضفنا إلى ذلك الأمر المحزن ، وهو إنه إذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك في عظام اليقين ، فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهنالك الأغلاط والمظالم والمصائب ، ومدت الفتنة أسبابها ، وأخذت الثورة أهبتها ، وشمرت جلبابها ، وما زال من البديهي أنه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده . فإذا ضعف اعتقاد الإنسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الأعمال ، بل أصبح يجرى في جميع أمره على مذهب العرب السائد ، وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رأيه لرأى الدنيا ، جاعلا إرادته رديفا لإرادة العالم ، وفكره جنيا لفكر الملأ ، فما هو والله إذ ذاك إلا عبد وأسير وبالخطأ فيما يسند إليه خليق وجدير ، وهو أحد سواق الفتنة ، وحاداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها إلى اليوم الموعود ، والأجل المحدود . وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا إخلاص ناظرا إلى ظاهره الكاذب فقط ، إلا وهو إثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان . وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية ذاتي من حيث معانيها ، ولا يقدسونها ، لما أفسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، أتيح لشمها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبد ومفرق ، وقضى ربك على العيشة الإقطاعية ، تلك العيشة المونقة البهجة التي أبدع صفتها شاكسبير أن يكون ختامها الثورة الفرنسية ، وإنما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كأنفجار البركان ، ثم لا تستقر الأمور إلا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وإنه لمن البلية أن نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة ، فلا نبصر في آراء البشر ونظاماتهم إلا أنها مشتبهة ملتبسة ، وقتية رهينة بالفناء والموت ، والحقيقة غير ذلك ، إذ نجد أن الفناء هنا إنما هو فناء الثوب لا الجوهر ، والموت موت الجسم لا الروح ، . وكل إتلاف بسلاح الثورة إنما هو خلق جديد على نظام أبداع ، ونطاق أوسع ، فكانت الوثنية الأودينية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة ، وما الخشوع إلا ضرب من الشجاعة أشرف

وأكرم . وما من رأى جال فى صدر الإنسان جولة جد وإخلاص عن عقيدة صدق وإيمان إلا وكان فى وقته نظرة صادقة من الإنسان فى صميم الحق ، فيها عنصر صدق ما يزال على تجدد الأحوال جديدا ، فهو ذخرا لنا باق على كر الجديدين ، وتعاقب الخاققين . ثم أليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الأمم فى جميع الأزمان والأمكنة ، مخطئ ضال إلا نحن ؟ وأنه ليس فى خلق الله غابرا وحاضرا من بات على هدى من ربه إلا نحن ، وأن جميع الأمم والشعوب ضلوا وخابوا لكى نصيب ونفلح نحن — الفئة الضعيلة القليلة ، وأن جميع تلك الأمم إنما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية ، لم يك زحفهم نحو الخندق إلا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسلوه بأجسامهم الميتة ، فيكون لنا ثمة من جشتم جسر نعبر عليه إلى المدينة المحاصرة فتأخذها ! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون أنهم سائقون على جثث جميع من سلف من القرون إلى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال إذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجسادا ميتة ؟ وكذلك أرى فى قطرة الإنسان أنه ما يرح يحسب فكره إمام الأفكار ، ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضى على هذه العقيدة . ولو أنصف لأبصر أن جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر ، إنما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا أمتى به عالم الظلمات والباطل ، فقيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا لبعض مجرد اختلاف فى اللباس والزى ؟ ألا كل الأزياء حسن ما زرت عراه على ذى مروعة ونجدة ، ومرحبا بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله ، من العمامة العربية واليماني المرفف إلى معول « ثور » يضرب به الجان والمردة ، وما زجرة لوثر فى حومة الحرب ، وألحان دانتى من اليراع والقصب ، إلا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذاك القائد وذاك اللواء !

« وبعد » فلنتلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم أى ضرب من الجهاد هو ، وكيف كان فيه بلاؤه ؟ ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحانيين — نيبا لأمتة وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لا تكون إلا فى مستقرها وموضعها . لقد كان من أهم خواص محمد « عليه السلام » ومما امتاز به الأنبياء عامة شدة الإنكار للوثنية ، وهو أكبر مسائل الرسل ، وعبادة الأوثان الميتة كإله هو ما لا يسكنون عنه أبداً ولا يطيقونه ، بل لا يزالون يشددون التكبير عليه ويسمونونه بالذغ مياسم القذع والقذف ، وهو عندهم أس الذنوب ورأس الكيثر . وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة « أيدول » أصلها « أيدولون » ومعناها الشيء المنظور ، أعنى العلامة أى الرمز . فليس معناها إذن إلها بل رمزا للإله ، وجدير بنا أن نشك هل كان قط إنسان — مهما بلغ انحطاطه وعماه فى رأى ذلك الصنم — أكثر من أنه رمز ؟ أنا لا أظن أن مثل ذلك الإنسان كان يحسب أن الشيء الذى صنعه يديه هو الإله ، بل كل ما يحسب هو أنه يمثل الإله ، وأن الإله كائن فيه بشكل ما . وإذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل : أليست كل عبادة أيا كانت هى عبادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ؟ وسواء تمثل الإله للعين الخارجية فى صورة متطورة ، أو للعين الداخلية أعنى الذهن أو للخيال ، فإنما هو فرق سطحى لا جوهرى . إذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى أن هناك شيئا ينظر — بالعين أو بالذهن — دليلا على الإله . وليس يخلو أورع الناسكين وأرلع المتصوفين من المثلثات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله . ولولاها ما وجد إلى العبادة سبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هذا الحد أشياء متطورة ، ولا تسير العبادة قط إلا بالرموز — بالأوثان وعلى ذلك نقول إن كل دين وثنية ، وإنما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين إذاً شرها ؟ أما إنه لا بد من أن تكون منطوية على شر كبير ، وإلا فما كانت ملاقية من إنكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه . أجل لماذا نرى الوثنية

بغیضة كل ذلك البغض إلى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب أن أكبر ما أسخط نبيا على الوثنية وملاً صدره غیظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان یخطر بباله فی ذلك الصدد ویصرح به للغیر ، فإن أحط وثنی من عباد الكواكب أو الأصنام كان كما رأينا ، خیراً من الحصان الذى لم یعبد شیئا ! بل لقد كان فی عمله الحقیقیر هذا نوع من الفضل الخالد ، شیهة بما یحمد فی الشعراء ، أعنى إنسان الجمال الإلهی والمعنى الكبیر فی النجوم وسائر الكائنات الطبیعیة على الإطلاق ، فلماذا یا ترى ینقم علیه النبى كل هذه النقمة ؟ إن أحقر وثنی عاكف على صنمه لیس إذا امتلأ صدره إیمانا بهذا الصنم ، إلا جديرا بالرحمة لا بالإغاض وإن كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتناب إن شئت لیمتلئ باعتقادها قلبه ولیستنیر بها وعاء ذهنه الضیق المظلم ، أو بالاختصار لیؤمن بصنمه الإیمان كله یكن فی ذلك خیر له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فی ذاك الوقت من الخیر وممكن ، ثم دعه وشأنه آمنا فی سریه ماضیا على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بأفتها الكبیری ، وهی أن الإیمان بها یكون قد تطرق إليه الفساد أزمان النبوة ، ویكون الكبیر من الناس قد أدركوا بعض ما أدركه النبى من أن هذا الوثن إنما هو قطعة من الخشب . وینكر النبى هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الإخلاص والصدق لما أكلت الشكوك قلبها ونحبت الشبهات لبها ، فینا یتشبث بها الوثنى إذ یخیل إليه أنه یتشبث بطیف الخیال وأشباح الظلال . وهذا لعمری من شر البلیة وأسوأ الخنة ، ولقد قال كولریج : « إنكم لا تعتقدون وإنما تعتقدون أنكم تعتقدون » . وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد ، وآیه دنو الموت واقتراب الملاك ، وهو شیهة بما نسجیه اليوم اتباع الثقالیة وتقديس العادات . ولیس فی طاقة الإنسان أن یأتى جنایة أفطع ، وموبقة أشنع ، ولا إنما أفجر - وجرما أنكر - وما هى إلا رقدة العقل وشلل النفس ، وضیاع الإخلاص والصدق ، فلا عجب إذن أن ینكر الحر ذلك ویمقته ویرأ إلى الله منه .

ولا أجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيورها إلا كآى نبي من الأنبياء ، وما كان بغض محمد « عليه السلام » لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية . وإنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع إلى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء . ويقدر حبه لحقائق الأشياء وإجلاله إياها إجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجح ، أو إجلالا مقعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقتنه وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل التمويه من أطرافها ، وهذب التزييق من حواشيتها ، ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية . والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نيبا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر ، وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد لجديد صالح مستقبل سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر أن من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال ، وجعلها أساس الخير الدينى والدينوى ترك الثقة بزعماء الدين ، وعدم الإيمان بهم . وطالما نسمع أن البروتستانتية أوقدت عصراً جديداً شديداً الخلاف لجميع ما سبقه من العصور ، « عصر الرأى الشخصى » كما يسمونه ، وإذ كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا ، أصبح كل فرد بابا لنفسه ، وعلم فيما علم أن من أول واجباته عدم الثقة بأى بابا أو إمام دينى ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون أو لم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامه دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا أنكر أن البروتستانتية لم تك إلا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما إليهما ، كما لا أنكر أن البيوريتانية الإنكليزية التى كانت ثورة ضد الملوك والأمراء إنما هى الفصل الثانى من الرواية التى أول فصولها البروتستانتية ، وأن الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التى كان من شأنها فيما يرى ويظن أنها نسخت جميع الزعامات الدينوية والدينية — الأرضية والسماوية — أو جعلت أمر نسخها قضاء لا بد من تنفيذه . والبروتستانتية هى

الجزر الذى عنه تفرع تاريخ أوروبا الحديث وتشعب ، لأن الروحانيات ما برحت تتقمص فى العمليات والروحانى مبدأ العملى . وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » « يا للإخاء » « يا للحرية والاستقلال » : وأصبحنا ولدنيا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب . وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الإنسان للإنسان فى الدنيويات والدينيات . ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسى من الدنيا وأريقت صبابة رجائى ، ولكن أرسخ عقائدى أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أخيار الحكام - الدنيويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى . ولكنى أرى البروتستانتية رغمًا مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ، ومنشأ نظام وصلاح وإحكام ، وأراها ثورة ضد أشرار الملوك وأكاذيبهم ، وأراها الخطوة الأولى إلى إقامة أحرار الملوك بيننا وصلاحهم ، وهذا يحتاج إلى قليل من الشرح .

ولنذكر أولاً أن أمر « رأى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ، ولكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتستانتية شىء جديد فى جنسه ، وإنما هى رجعة إلى الحق والجوهر بعد الإقامة على الباطل والظاهر الكاذب بشأن كل رقى وتعليم صالح . ولا أحسب إلا أن حرية رأى الشخصى ما برحت فى الناس من قديم الأزلى لم يخل منها جيل من الأجيال . وما أظن أن دانتى كان قد عمد إلى عينيه فقلعهما ، ولا إلى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حراً طليقا ، وإن أصبح قوم فى أغلالها من يعده مكبلين ، وفى أصفادها موثقين ، حرية رأى ؟ ماذا أسمع ؟ كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ، ولا أى قوة بشرية ترغب إنسانا على الإيمان بهذا الأمر أو الكفر بذلك . وإنما رأيه فى ذلك سراجة الدائم الاشتعال الذى لا يخبو إلا مع أقول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده . إن أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المهينة ، لا بد من أن يكون قد أقنع نفسه أولاً بأنه لا حق لها فى طلب الإقناع . نعم و« رأى الشخصى » هو الذى أشار عليه بذلك كأصوب ما يؤتى . فمثل هذا الرجل حر الرأى فى

ضلاله ، ولكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء إخلاص . فالرأى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجل الكاذب الذى يحاول جهده أن « يعتقد أنه يعتقد » يسلك طريقا آخر ، فلأول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ا » وتقول للآخر « ويل لك ا » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء ، وإنما كما قلت عودة إلى جميع ما قيل من أقوال القدماء « كن حراً صادقاً كن مخلصاً » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقى الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبهم الذى تبعه (برأيه الشخصى) .

وإنى لأقول ولا حرج إن الاستمرار على إعمال الرأى الشخصى لا ينتهى قط بالاستبداد الأنانى والافتراق والتقاطع ، بل ينتهى بعكس ذلك بطبيعة الحال . وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ، ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الإيمان . وما ثورة المرء ضد الباطل إلا ميل منه إلى ناحية الحق وجنوح إلى اللحاق بزمرة أهل الصلاح والتقوى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال أن يكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفى جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شىء وإلى أمر بالحقائق لا بالأباطيل ، وإذا أقفر القلب من العاطفة على الأشياء ، أفترجو أن يكون منه على إخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا إنه لا يأتلف بالناس - إنه رجل فوضى ، والوحدة - أيدكم الله - والجامعة لا تكون إلا بين إخوان الصديق وأولى الإخلاص .

أما من حيث قولهم إن كل إنسان يعبد الله « برأيه الشخصى » فإن معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وإنما الرأى هبة الله يهبها لأعظام الرجال . ثم لا بأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأى العظيم ويستشعروه حتى لكأنهم مبتكرونه وقانصو شريدته ، ومخترعون وناشسو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، أن يصح إيقانه ويصدق إيمانه . فإذا كان

ذلك ، فما ضره إن لم يكن من الرأى بمنزلة كشف خبيثته وفاض لطيمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص . بل إن له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستتبطه . فإن فهمك لرأى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى إحدائه ، وكذلك لكل امرئ أن يكون متى شاء مخلصاً صادقاً ، أعنى مبتكراً بمعنى ما . بل لقد أوجد الله أمماً وشعباً كل أفرادها مؤمن صادق ، تلك أمم الحق وشعوب الإيمان ، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات ، كثيرة الخيرات ، حجة المبرات ، إذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل . فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لقحة صنع غزيرة الدر ، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب إلى ناحية واحدة ، ويؤم غرضاً بذاته وأمداً بعينه ، هذه أعصر الربح لا الخسران ، وأزمن الزيد لا النقصان .

ولد لوثر بيلدة أيزيلين بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت أمه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض مغادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبوا إلى سوق إيزيلين الشتوى ، فأخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره ، فعادت بدار حقيرة وولدت غلاماً سمي مارتين لوثر ، عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه . لقد ذهبت هذه المرأة « فراو لوثر » وبعلمها إلى ذاك السوق لتقضى حاجاً من البيع والشراء - علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ، ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة ، ولعل فى ذاك اليوم لم يك فى طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأننا وأخمل ذكراً وأقل خطراً من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقه فى جانب دينك الاثنين ا لقد ولد اليوم بطل جليل ، وشب لله شهاب وقاد سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه ، فى ذلك اليوم ولد بطل أطال سكان الأرض (الأبطال)

ارتقابه ، وحوله التاريخ احتفائه وترحابه . عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصراً ، وأسمى منزلة وأرفع قدراً ، وقع منذ ألف وثمانمائة عام ، وهو حادث الصمت إزاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال فى مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده أن الأرض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات . كلا وأسماء الله إنما العالم غريق فى الإعجاز ، والمعجزة من نبات ذياكم الثرى .

وأرى أنه كان ملائماً جداً لوظيفة لوثر فى هذا العالم ، وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيراً وربى فقيراً كأفقر عباده ، وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولاً بالغناء من دار إلى دار . وكان البؤس رفيقه ، والكرب شقيقه ، والشقاء أبداً مجاهره وجهاً لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة لا تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ، وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاماً خشن الهيئة ضعيف المنة فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء ، وشعور شب فى ملتطم أمواج البلاء . ومصطدم أواذى الشقاء . ولكن ذلك خير مدراس له تعلم فيه سنة الحق وألف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه فى الحياة أن يعرف الحقيقة ، ثم يرجع إليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاحه ، واشتد بالزور والكذب لهاجه ، غلام نشأ فى مهد العواصف ، وربى فى حجر القر والزمهرير ، وغذته مرضعات الهم والنكد ، وغازلته بنات البأساء والكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثور »^(١) من ضمير إسكاندنياfia ، وكيف وإنه ما انفك يضرب فى شياطين الإفك والزور ، وأبالسة المنكر والفجور ، كما كان يفعل « ثور » بالجان والمردة ، حتى هزم كتائب الكذب والجمال ، وكشف جنود البدع والضلال . ولعل الأمر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه « ألكسيس » بالصاعقة ، لقد كان لوثر أظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل

(١) إله الرعد عند الأمم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره .

للدروس والمذاكرة رغما من كاراتات الفقر ، ورجا أبواه أن يكون له فى الرقى
قسمة فأركبه طريق الدراسة القضائية ، لأنها الطريق إذ ذاك إلى النهضة
والصعود ، فرضى لوثر بذلك رضى ككره ، واساغه مساغ الشجى وأغضى منه
على القذى .

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « ألكسيس »
ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد » ثارت زوبعة ورمت بالصاعقة فأصاب
صديقه ، فإذا هو تحت قدميه ميت ، فواجه مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا
لهذه الدنيا وقبحا لهذا النار ، ويايؤس للحياة ويا رحمتا للإنسان ! ما هذه
الحياة ؟ أتزول فى لفنة الجيد ولمح البصر . وتذهب كالقرباس طوته ألسنة النيران
فتضيع فى مجاهل الأبد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقيصرة ؟
كلهم فى التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكفون . تفغر الأرض فها
فإذا هم فى بطنها ثاؤون ، وبالعفر والرغام مكحولون ، والمدر والحجارة
موسدون ؟ بلى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، عزم
من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة
القديس ، ثم أن لوثر أوجاستين بيلدة « أرفورت » برغم أيه والكثيرين من
معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات ،
وقد حدث نفسه أنه كان فى تلك المدة قسيسا صالحا يجد ويجتهد ليؤدى وظيفته
ويدرك السعادة . ولكن عبثا حاول فما خف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن
تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد ، وما أشقاه لا من كد فى عمله ولا
نصب ، ولا من مهانة العمل وذله أتاه البلاء ، وإنما لسقوط نفسه إذ ذاك فى
أسحق مهاوى الشك والخوف - الشك فى أنه على الهدى والخوف من عذاب
الله فى الآخرة ، وقام بخاطره أنه قد دنا أجله ، وشر من ذلك أنه قد دنا عذابه
الأبدى . أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعتة وإخلاصه ؟ لعله
جعل يقول فى نفسه « من أنت أيها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى ما

عرفت إلا الشقاء والهوان ؟ كلا ذلك مقام دونه الشمس » ولم يكذب يفهم كيف أن في الصوم والتهجد وتكاليف الدين والكنيسة منجاة للمرء من النار ، فمن ثم هوت نفسه في أعتم ظلمات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الإنجيل في مكتبة أرفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الإنجيل فلقنه درسا خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك أخ في الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للإنسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات ، وإنما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب إلى العقل وأوقع في الجنان . فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وأنشأ من مغفرة الله في أرسى طود وهضبة ، ولا بدع أن جعل يقلس الإنجيل الذي أسدى إليه تلك المنة ، فأجله كما يجلب مثله كلام الخالق ، وعزم على ألا يجيد عنه أصعبا . وقد كان منه ذلك حتى لقي ربه .

فكان ذلك خلاصه من أسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال إلى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم إلى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية أنه أظهر للملأ ما كان مكتنما قبل في زوايا صدره من المواهب الإلهية ، والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبوعوه من الدرج ما هو أهله ، ووكلوا به أمر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه أخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » ، وكان عاقلا عادلا أستاذا في جامعة « وتندرج » فأحسن أداء ذلك العمل كما أحسن البلاء في جميع ما نيظ به من الأمور ، وجعل من يوم إلى آخر يعلو في أنظار الناس ويتغلغل في نفوسهم .

وكان في السابعة والعشرين من عمره أن رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من ديريه ، ولا إخال إلا أن لوثر عجب لما أبصر من حال البابا « يولوس الثاني » وسائر أحوال روما إذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد أتى المدينة المقدسة عرش ولي الله في الأرض وإمام الناس وهاديهم سواء السبيل ، فإذا هو

بين فسق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين إثم ووزر ، وبلاء وشر ، وباطل ومنكر ، وما أحسب إلا أن هذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره فى أودية الفكر وشعاب الظن ولكنها كانت هواجس لم يرفقها قلبه إلى لسانه ، ولا أسلمها وجدانه إلى بيانه ، لقد علم أنه لا يبصر أمامه هدى ولا حقاً ، ولكن أماله ولذلك ؟ وأنى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالماً ويقب دنيا ، حقاً إن لمثل هذا العمل لإنساناً غيره أعظم قدراً . وأكبر خطراً . وحسب لوثر أن يوقفه الله إلى هدايه ، ويسدد إلى خطوة الحق خطاه . وبحسبه أن يقوم بواجبه فى خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء والله فى خلقه شئون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضلالة وشأنها وعاد إلى بلاده ، نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها إلا بعد أن تعرضت له ، ينقض عليها ويسطو بها حتى حاجته واستارته ، ومن أكبر فضل الله أنها حاجته واستارته واستدعته بذلك إلى شن الغارة عليها والإيقاع بها ، إذ ماذا كانت الحال تكون وإلى أى شىء كانت تصير الأمور ، لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخلتر فى وجه ذلك المذهب الباطل فيرد عرامه ، ويفل غربه ، ويكف منه عن العالم شراً مستطيراً : كان يؤذن بالويل العظيم ، والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب فى سنن غوايتها ، وتمعن فى طريق عمائتها ، من غير أن تعترض لوثر فى سبيله ، وتصادفه فى منواجه فتضطره إلى الحملة عليها ؟ إنما الواضح لى أنه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه بينت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها ، وإنما يجعل الأمر فى ذلك لله شيمة الرجل المتخشح المتواضع الذى لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت أن حسبه من التطفل بالصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويغى بها جادة الحق ومنهج السداد ، ولكن البابوية لم يكفها ما أتت فى سائر الجهات والأمصار من التضييل والتغريب ، حتى هجمت على لوثر فى قرينته الحقيرة فسامتته خطوة الخسف والضيم فأبى ، وآية الرجل الشريف أنه إذا سيم الخسف قال لا بملء فيه . ويبان ذلك أن البابا « ليو » العاشر احتاج إلى المال

وكان مبذراً متلافاً ، فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، إذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج إلى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع في السوق بالذهب والورق ، وإنما هي بضاعة لا ثمن لها إلا الإخلاص الصريح ، والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبائيه . فإن كان لا بد من شفيح فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والإنجيل ، ولكن البابا رأى الجهل فاشيا في الناس فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك الأوراق المدلسة المرزولة ، وكان يسميها أوراق الغفران . ومع كل راهب صندوق فيقول للناس « من كان له في الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله إلى الجنة ، فلينبذ في هذا الصندوق قرشا ، فإنه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مثواه في النار إلى أنضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه «تنزل» على بضعة فراسخ من بلدة «وتنبرج» حيث كان لوثر ، فأصغى إليه كثير من العامة لسناجحتهم ، وبلغ من شره أن بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من أوامره اتكالاً منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك في أحشاء لوثر ، ورأى أنه قد آن له أن يثور في وجه البابوية الكاذبة ، ولم يخش الراهب « تنزل » بل قال « إن يشأ ربي وربكم فلأصدعن مروته ، ولأنحن أثلته » .

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن في خطته ، وأرسل صورة منها إلى بطريق مدينة « ماجدبرج » شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة « وتنبرج » فهب هذا النبا مهب الريح في كل وجهة ، وطار في أنحاء العالم الأوربي مطير البرق .

وأدبر الراهب « تنزل » فنزل بلدة فرانكفوت الواقعة على ضفة نهر «أودار» . فكتب ردوداً على أقوال لوثر ونشرها ، فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة « وتنبرج » . . وسمع البابا بذلك فقال متهكماً : « لا إخال أن لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وأبصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ، ويحمى به وبهم وطيس

الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ، ويدفع باليقين شبهاتهم . وما زال ذلك دأبه ودأبهم حتى نفذ صبر البابا ، وذهب عنه ما أبقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاوله ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقه ، وأمر بكتاباتته أن تحرق ، وبه أن يرسل مكبلا في الأغلال إلى روما لعله ليحرق أيضا فيلقى من الجزاء ما لقي القسيس « هاس » من قبله ، ونعم المناظرة النار ما أحصر وما أسرع ، وما أقرب إلى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور ! يستدعى البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه ألا يمسه بسوء ولا يناله بأذى ، ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغبا شديد الخصومة ، ولا مشاكسا ألد الجدال . وإنما رجلا سهل الشكيمة لين العطف سلس العنان ، فيودعونه سجننا أضيق من يياض الميم ثلاث أذرع في مثلها ، ثم يضرمون عليه نارا فيقطعون بصوارم اللهب صوتا ما رفع إلا في طاعة الله . لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب يتقلبون .

أنا أحد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر في قيامه الآن ضد البابا ، فإن ذلك البابا المترف الكافر والوثني الأنيق الثوب السائغ الطعمة ، لما أوقد ناره لحريق مکتوبات لوثر أحجج بها حنقا وسعر بها غيظا وحرادا في أشجع فؤاد كان إذ ذاك في العالم - أشجع فؤاد وأضرعه الله وأشدته تواضعا . بلى لقد استعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين إطفاء . وكأني بلوثر يقول في نفسه حينذاك « أتحرق يا هذا الرجل كتاباتي هذه وما أريد بها إلا الحق والهدى ، ولم يعمد بها إلى غير الله ، وتسمى نفسك بعد ذلك إمام الناس وخليفة المسيح في الأرض ؟ أتجعل الجواب على هذه الأوراق إحراقها وما فيها إلا عظة لك وحكمة ، وتريد أن تحرق كاتبها ؟ أنت خليفة الله في أرضه ؟ كلا : أنت خليفة الشيطان ومثواك مشواه ، ودارك معنى لإبليس وجنوده ، وعش لخفافيش العمى والجهالة ، وجحر لهوام السفه والضلالة ، وإني لأشهد على لائمحتك تلك التي أصدرتها نغمه على بالكذب والجور ، وليس لها لدى إلا النار ، ولنفعل بعد ذلك ما تشاء . » ثم إن لوثر جمع من شيعته وأنصاره مجمعا ورفعوا نارا فأحرقوا فيها لائحة البابا وأكثروا

عليها الهتاف والصياح بمراى من مدينة « وتبرج » ، بل بمراى من العالم أجمع .
لك الله أيها البابا : لبغسما صنعت إذ استشرت من صدور الناس تلك الصبيحة .
فإنها صبيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى
ضاق ذلك الصدر بما كظم ، وحتى طفح ذاك الإناء ولم يبق فى قوس الصبر
منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال ، وتراخت مدة الباطل وشاقت فيهم
دولة الزور والبهتان ، وقد آن للحق أن يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر إلا من قبيل الأنبياء حاطمى الأصنام ، ومرجعى الناس إلى
الحقيقة بعد طول الإقامة على الضلال . وتلك وظيفة العظماء عامة ؟ أو لم يقل
محمد (عليه السلام) للناس إنما أصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ؟ وهل
كانت مقالة لوثر للبابا إذ يقول له (ما هذه الأوراق التى تسميها أوراق العفو إلا
أكذوبة وأضلولة ، وما أنت والعفو عن الناس ؟ إنما ذلك بيد الله) إلا كمقالة
محمد ؟ الله أنت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ أمة ، وأى مرجم شياطين ،
وسيف على رقاب الظالمين أنت ا وبأبى أنت إذ تقول ولا تبالى نيران البابا ولا
جيوش السلطان : « إنما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وإنما البابوية وما
يدعونه من تلك الرعاية الروحانية إفك وزور . وكيف وما أراها إلا أنوابا
مرفوشة ، وأوراقا منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة
دينية ، ورعاية روحانية ، إنما هى حقيقة رائعة ، وما دين الله وفردوسه وجحيمه
بأباطيل كلك ولا أكاذيب ، فهذا وحده ، أو من وبه اعتصم ، وعليه أقوم ،
وفيه أضرب أتادى ، وأرسى أطوادى ، وإنى إذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ،
وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعازل ، وبأس الله
من بأسكم أشد ، وكيد من كيدكم أقوى ، وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فأزهقت ما دبروا إحدى هنالك إنما إزهاق

أنا فى وحدتى يهدى الله قوى ، وأنتم فى جموعكم بالضلال والكذب
ضعاف ، أنا من طاعة الله مدجج فى أكمل سلاح وأحصن جنة ، وأنتم من
معصية الله فى أسمال رثاث وأطمار رعايل ، منكشفو العورات حاسرو المقاتل ،

وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها فى السماء ، وأتم فى باطلكم كالمكئى على الهواء ، والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة « ورمز » وظهور لوثر هنالك . ولعل هذا كان أجل مشهد فى تاريخ أوربا ، والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدينة الحديثة ، والذى كان من أمر هذه الحفلة أن إمبراطور ألمانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل فى لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر فى شئون الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده وليتهى معه عند حال ، وكان المجلس حافلا بجميع الوجوه والأشراف وأمراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ، وإلى هذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريته ليسأل ألا يزال مصرأ على رأيه ؟ فيجيب نعم أو لا ، خصمان متواجهان ، وقرنان متبارزان ، أحدهما : قوة العالم وزهرة الدنيا وجيوش الأرض ، وثانيهما : رجل فرد نجل الصانع المسكين « هانز لوثر » قائماً فى نصرة الحق . وقد نصح إليه الإخوان ألا يذهب ، وذكروه نبأ القسيس « هاس » ليكون فيه عبرة ومزدجر ، فأغلق دون كلامهم أذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم ، وقال (تا لله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل الناس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة إلى الحفلة ، أن أقم على مبدئك وتشبت برأيك ومذهبك ، وإياك والانخدال والهزيمة . وجعلوا يتمثلون له آية من الإنجيل فى ذلك المعنى ، ذلك ما طلبه إليه أهل وطنه ، وهل هو فى الحقيقة إلا طلب العالم أجمع - طلب العالم الذى جهدهته أغلال الباطل ، وشفته ظلمات الضلال ، وأخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى - طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا أدر كنا يا بطل الأبطال ، فإن مدار أمرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا يخيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيباً فتكلم ساعتين كلاماً سداه الحكمة ولحمته الإخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن ، وأن كتاباته بعضها من إملاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات خاطره فذاك ملىء بالعيب والخطأ بما أنه كلام بشر ،

وأما ما كان مأخوذاً من قول الله فأساسه الحق وليس يبرأ منه أبد الدهر . ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فإذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار إلى ما يجوبون . إلى أن قال : « أنا لا أخالف ما يأمرني به العقل والنهي ، ويوحى إلى به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس . ذلك ما فى وسعى وطاقتى وليس لى عنه محيد ولا دونه مذهب ، وعلى الله أتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل . ألا ترون أيها الإخوان أن هذه كانت أخطر ساعة فى التاريخ الحديث ، وأن عليها قامت دعائم الدستور الإنكليزى وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها فى أنحاء الأرض ؟ نعم فى هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر فى تلك الساعة خطوة أخرى لكان لها عواقب أخرى ، وكأئنا العالم الأوربى كان ساعتئذ ماثلاً أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا أزال فى محنة وبلاء يهوى بى التحس إلى مساقط الجهل والشقاء ؟ أم يرزقنى الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر أنه أثار فى وجه الدين ثورته ، وأحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زواجع الفتنة أو يسعر نيران الهيجاء : بل حقن الدماء فى الأبدان ، والسيوف فى الأجفان ، ولم يحول اليراع حساماً ، والقراطيس أعلاماً ، ولا استبدل من صرير القلم فى الطروس ، سليل السيف فى الرعوس ، ولا من التناضل بالأقوال ، التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم^(١) موضع الكلام ، والجلاذ بدل الجدل والخصام . وقلماً نجد رجلاً أحدث أمراً جلالاً وهاج حركة هائلة إلا غاله مما أحدث غائلات . والتهمة مما أثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الأوضاع المألوفة ومروق . وإنما وفق لوثر إلى ذلك بفضل ما أوتيته من الحزم والبصيرة ، والحزم رأس بوارع الخصال ، وكرائم الخلال ، وداعية الصلاح ، وسائفة الفلاح .

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح .

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسى الجوهري من غيره . فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد أنه يعظ الناس فى قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكي ومخالفة لمبادئ الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى بل قال : « وأى ضرر فى القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثاً إذا شاء » .

وقد ذكر « ريشتر » لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حرية ، وما أخطأ فى قوله ، ولعل أهم صفات لوثر هو أنه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ، ويقاوم فيتصمر ، وإنه كان قطعة من الشجاعة ، وقلدة من المروءة ، ولا نعلم قط فى التاريخ الحديث والغابر إنساناً أشجع قلباً من لوثر ، ولما قال فى مدينة « ورمز » كلمته المأثورة وهى : « ولو أن فى « ورمز » من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك مجرد الافتخار والتهى كما يكون فى مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب إلى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للإنجيل ير على أحد حيطانها بقعة سوداء — إثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك أن لوثر كان جالساً فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الإنجيل وكان قد نهكه الكد ، وأعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك أن تراءى له شيخ مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه إبليس أتاه ليقعده عن عمله ، فنار لوثر ثورة جبار . وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فإذا هو قد املس . وأثر الدواة فى الحائط باق إلى الآن آية دليلاً على أمور شتى ، وأن فى قدرة أى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ، ويحل لنا مشكلها ، ولكن اعتقاد لوثر أن الشيخ القائم أمامه هو إبليس ، ثم نهضته فى وجه إبليس وقذفه إياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة وأقصى غايات البأس والتجدة . ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم ، فهو أحرى ألا يهاب ملوك الأرض وجبابرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية : (الشيطان يعلم أن عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة ، فلقد طالما رأيت

الشياطين وناذتها . والدوق جورج لا يعادل شيطاناً واحداً ، وأين هو من سطوة الشياطين ؟ فليعلم هذا الدوق أنى لئو شئت أن أدخل بلدة « ليزبيج » لدخلتها قسراً وعنوة وجست خلالها ، ولو أن نساءنا تمطر أمثالاً من الدوقات تسعة أيام (ولاء) ، لك الله يا لوثر ! أى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم .

وشد ما يخطئ الذين يحسبون أن شجاعة هذا الرجل كانت ضرباً من البطش والفتك ، وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعرقية ، وما أبعدها عن ذلك . وأنا لا أنكر أن هناك ضرباً من قلة الخوف مصدره قلة العطف أو قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى ، كشجاعة النمر . وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ أما لوثر فكان غير ذلك بته ، ولم أر تهمة أكذب من نسية الفتك والقسوة إليه وكيف ؟ وما كان قلبه قط بجلا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذى مروءة وبر ، والنمر إن صادف قرنا أشد منه بطشا فر هاربا ، فما هذه بشجاعة وإنما فتك وقسوة . ولست أعلم شيئاً أرق وألطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف . تلك التى كانت أرق من أنفاس العاشق فى الحجر ، وأنفاس النسيم فى السحر ، لله ما كان أرق هاتيك الأنفاس ، وأعنى بها كلمات الرجل ، وما كان أصفها وأخلصها من شوائب الرياء والكلفة ، وأشبهها بالعذب الزلال تنفجر به الصخرة الملساء . وهل كانت كآبته وإطراقه ويأسه مدة صباه إلا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة ، والنفوس الجديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذوو الرقة من الشعراء ، وقد أصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه أنه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلاً ضعيفاً هياية ، وعندى أن أكرم الشجاعة وأسمائها ، بل أشدها وأقواها ، هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى « حديث المائة » ذلك الذى جمعه أصحابه بعد وفاته من أقواله وكلماته من الآيات البيّنات الدالة على عظمة الرجل وفضله .

فمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيده له من جلد فى رقة ، وصبر فى حرقة ، وقوله أنه استودع الصبية عند الله ، ولكنه لا يملك مع ذلك وجداً عليها قد أوقد لوعته ، وهاج غلته ، وكمداً والتياغا ، وحنينا ونزاعا . ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ، ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة إلى الله قد غابت فى أثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، - ينظر دهشاً حائراً وحسبكم ذلك دليلاً على صدق الرجل وإخلاصه وعلمه . إنه رغمًا من اختلاف الملل وافتراق النحل فإننا معشر الآدميين لا نعلم شيئاً ولن نعلم ، وكل ما يدرك إزاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو أنها ستصبح عند الله ، وأن الله أَرَأف بها وأرحم ، وأن خير الأمور أن يسلم الأمر لله ، فالإسلام دينه ومنهجه .

ومن آيات عظمتة أنه أطل من من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسه : « عجباً لهذه القبة الزرقاء ، وهذا الفلك اللوار ، وهذا السحاب الركام ، يا لله ما أروع وما أجل ! على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لا دعامة إلا قوة الله سبحانه رفع السموات بغير عمد ، وأمطر من السماء ماء فأخرج به نباتاً ، وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » . ولما كان عائداً ذات يوم إلى داره أعجبه رواء مغارس القمح فقال : ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقائق الذهب على قضبان الزبرجد ، بركة تفتطرت عنها أحشاء الأرض ونعمة سلتها يد الله من أعماد الثرى .

ومن آياته أيضاً : أبصر ذات مساء عصفوراً قد نخيم فى وكره على شجرة بأحد البساتين ، فقال : عجباً لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات أن يطمئن فى عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضاً أمره للخالق الذى مهد له فى جنباه ووطأ له فى كنفه . هذا وما زالت شنور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمه ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحي رقيق الحواشى ، غزير مادة الحنان والحب ، وقدمًا كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وأمارة المروعة والبر . ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، وجمع تفاريق هذه

النزعات العالية ؟ وكم من معنى لطيف يعبأ به البيان ، ووجدان شريف يعجز عن تأديته اللسان ، أذاه إلينا لسان مزماره ، وباحت به مناطق أوتاره . وكان يقول إن الشياطين لتفر من نعماته ، وتفقد عند وجود ألحانه ونبراته . فله أنت أيها البطل من جامع الضدين ، ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها ، ورقة جذبت بلبك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها . إنهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى في وجه لوثر عنواناً على خلقه ، فهو وجه خشن الملامح تعرف في نتوء عظامه ووعورة أركانه معاني البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفي العينين حزن في صبر ، ووجد في نسكينة ، وكآبة لا تكيف ، ورنه لا توصف ، وتلك أصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبيل ، وقد قلنا إن الضحك كان مغروسا في طينة الرجل ، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا ، وكأن فيها يتابع الدمع وبحاره ، وخلجه وأنهاه ، وكان أساس حياته الحزن والجهد والإخلاص والجد . ولقد قال في أخريات عمره بعد مظاهره وانتصاراته إنه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وأن له عند الله أمنية هي أن يريجه من متاعب الوجود ويقبضه إليه . ومن عابه بكلمته هذه وأعد لها عليه فقد أخطأ ! وما أحسب إلا أن لوثر كان رجلا كبيرا - كبير القلب كبير العقل كبير النفس - رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، ولا أراه إلا كا-نبيل الأشم ، أصم الصخور صلد الصفا ، وفي نقره وثغبانه الزلال ، العذب السلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة ، إلى زهر وريحان ، وفاكهة ألوان . وقصارى القول إنه بطل ونبي ، ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة ، والجددير أن يحمد الله عليه هذه الأجيال ، ومن سوف يدرج على هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم إن مذهب لوثر تفرق شعبا فأكرم شعبه وأطيب فروعه ، ذلك الذي نبت في إنكلترا أعنى الملة البيوريتانية . فأما في جرمانيا ذاتها فإن البروتستانتية ،

أخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الأديان إلى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب إلى اللسان ، وعن العقيدة إلى الحججة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت إلى تلك المباحثات الجلية التي كانت أيام الثورة الفرنسية ، أما في بلادنا « بريطانيا » فقد أخذت البروتستانتية صورة أخرى هي البيوريتانية ، ثم غولى بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة (البريزباتيريانية) وهي الكنيسة القومية لأهالي اسكوتلاندة ، وهي ملة حق صريحة ، وعقيدة محضة صادقة مغرسها القلب ، وغمارها حجة في أنحاء العالم البريطاني ، وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الإمام « نوكس » ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية في إنكلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية - مذهب القسيس نوكس .

في عام ١٩٢٥ رحل القسيس الإنكليزي وليم تيندال إلى بلدة لوثر « وتبرج » منجذباً إليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه . وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقوى ناقماً على الكاثوليكية ، فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب . وكان قبل رحلته إلى جرمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدلين : (إن يطل الله مدتي لأترك راعي الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولما ذهب إلى بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال ، قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحبوب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا في حبه فلم يكن لحالهم تلك مثل إلا حالة الصليبيين ، ولا لبلدة لوثر شبيهاً إلا مدينة بيت المقدس ، وكانوا إذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله وصاحوا غبطة وسروراً ، وهنالك ترجم تيندال الإنجيل وأرسل ستة آلاف نسخة منه إلى إنكلترا . ولم يك هذا الكتاب قاصراً على ترجمة الإنجيل بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الإنكليزية بأشد المقت والإنكار ، وأمرت بعدد كبير من نسخته أن تحرق فأحرقت في مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى . ولكن ذلك لم يمنع أرباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك النسخ ، ومن الرسائل المهيجة التي كان يكتبها لوثر وأنصاره إلى الأقطار

الإنكليزية ونشرها بين طبقات الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المتولى لذلك جمعية اسمها « الإخوان النصارى » مؤلفة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ، ولكن رسلها تنتشر في سائر البقاع البريطانية ، فوجدت هذه النسخ سبيلها إلى الجامعتين « كامبرج وأكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح إلى المسائل الدينية ، وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمنظرات الفقهية والإلهية ، وكانت كامبرج قد رميت بالزندقة وسرت منها العلوى إلى أختها أكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى أعقب انتشار النسخ المذكورة ما ألجأ الوزير ولزى إلى مؤاخضة الهائجين ، فزج قسوس أكسفورد فى السجن وأحرقت كتبهم . ولكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغماً مما ملكهم من الذعر والفرق ، وإنما صرفته شئون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الإنجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له مثال فى تاريخ البشر ، إذ أصبحت إنكلترا أمة كتاب — وهذا الكتاب هو الإنجيل ، نعم أصبح الإنجيل كتاب كل إنكليزى يتلى فى الكنائس وفى المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذاناً لم تخلقها كثرة الإعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ما حركت وهزت من كل جنان أريجته ، وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته ، وحب الأمة للإنجيل راجع إلى علة خلاف السبب الدينى ، وذلك أنه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه الشعب الإنكليزى وتنزه فى رياضه وحنانه ، وجنى أزهاره وثمراته ، ولم يك قبل ترجمة الإنجيل لدى الإنكليز من أسفار الأدب إلا ما كان كتبه « ويكيليف » وكاد أن ينسى ، وإلا ما نظمه الشاعر « تشوسار » وكان لا يعرفه إلا الأقلون ، نعم لم يوجد قبل ترجمة الإنجيل فى اللسان الإنكليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر إلا منظومات تشوسار ، فلا غرو أن أصبح الشعب الإنكليزى يهدف الآذان لاستماع عبارات الإنجيل فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص ، وأغانى الحرب وأناشيد الدعاء ، والتراجم

والسير ، ومواعظ الرسل ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والأخطار البحرية ، وجولات القسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة ، فقد كان إذ ذاك نهضتان - علمية أحدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية - ودينية أحدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، والثانية أبعد أشواطاً وأمد أنفاساً ، وأعمق جنوراً وأطول أغراساً ، من حيث إنها نهضة شملت الخاص والعام ، فى حين انحصار الأولى فى دوائر العلية المتأديين . وذلك أنه لما لم يك فى طاقة الترجمة أن تنقل إلى الإنكليزية براعات اللسان اليونانى ، تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خلدورها فلم يستطع استجلاؤها إلا الواقفون على أسرار اليونانية وهم قليل . ولكن الآيات العبرانية كانت أسمح ما يكون قياداً فى عنان الترجمة ، حتى أصبحت فى ثوب الإنكليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسناً وبهاءً ، وبهجة ورواء ، بل أصبحت أشرف ما لدينا من تحف اليراع الإنكليزى وأكرم نفائسه ، وأسلوبها ميزان الأساليب فى الإنشاء ، ونظامها معيار النظم فى الكتابة ، بل إن أثره أبقى فى نفوسهم ككتاب أدبى ، وإذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار مؤلفينا - أعنى تلك الشذور التى تسربت إلى أحاديثنا من دولوين شاكسبير وملتون وصحائف دكتور وثنكرى ، أدركنا كيف كان اللسان الإنكليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الإنجيل زخارفه وحليه .

وأعظم من أثر الإنجيل فى الأدب ولغة المحاررة ، أثره فى أخلاق القوم ، لقد كان الإنجيل يفعل بالألباب إذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره أنه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحياة وأحوال الإنسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من طبقات الأمة روحاً جديدة أخلاقية وأخرى دينية ، ونفض الدين صبغته على الكتابة ، فما من رسالة تصدر إلا وبها عرق زانحر بالورع والتقوى . وهكذا خلفت الكتابات الدينية فى ذلك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر إنكلترا : « وأصبحت

السيادة فيها للدين » ، وقصارى القول إن البلاد أمست وهى كنيسة كبيرة ،
ومسألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاضت على ذوى الألباب
وأولى النهى فى عصر شاكسبير ، فما عرفوا لها حلا ، عادت الآن نصب عين
الفلاح والتاجر يطالب نفسه مجلها ، ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفاً
وتعصبا ، ولم تتعد إلى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيها وتبطلها ، وإنما كان
البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل :

فلله منى جانب لا أضيعه وللهمنى والخلاعة جانب

فمن أدلة ذلك أن إحدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون
وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها إلى إبراز جماله كما كان أيام صباه . ولو
كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم إذ ذاك من أمر الزخرف والزينة ،
لكان لها مندوحة عن فعلها ذلك ، ولكن السيدة مالت إلى إبداء ثغره الواضح ،
كالكلائى النسق والأفاح ، وجيين كأنه المصباح ، أو فلق الإصباح ، ولة حالكة
مدلومة ، فهى كما قيل :

وجاء بها ثور ترف كأنها سلاسل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد
والقنص ، مغرما بالمسابقة والرقص ، كلفا بالفنون الجميلة ، ما تزال تستخفه
قصيدة وتستفزه صورة ، وتستتبه نعمة وتطيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه
فسقى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقع وهذب .
وكان البيوريتانى بعد عزوفا عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صботاته عن
الحرام ، وعدل بصباته عن مراتع الوخامة والوبال ، إلى مقامات الشرف
والكمال ، فكان أبا رحيفا ، وخلا حميما ، وزوجا شفيقا ، وأخا رقيقا ، ولم
يك قط فى فتنة النساء ما يجرى شهوته ، بل كان غضيب الجفن عن كل ما
يريب ، شامس العطف عن المغريات ، تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ،
عفيف النفس عفيف الطرف طيب معقد الإزار ، يقف من النساء عند محاسن
الحديث والسمر ، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى أمره ، قليل السرف يياكر شؤونه ،
والبركة فى البكور ، لا ونية عنده ولا فتور ، مشراً من ذيله ، منكمشا فى
عمله ، وكان أحسن ما وفق إليه من المحامد فضيلة المساواة . وذلك أن إخاءهم
فى الله أنساهم ما كان قبل راسخا فى نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل
المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد أن الله قد شرفه وقدس ، وحتى صار
أكبر الوجوه والأعيان يوقر مساكين الأبرار ، وصعاليك الأتقياء الأخيار ، ولكن
إفراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقى وإن عاد بالقوة على أخلاقهم ، فإنه ضيق
دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر أثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون —
فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه
عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه
شاكسبير لا يظهر ارتياحا إلى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، وإذا كانت
هذه حال ملتون وهو يعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت
الحال مع من هم أقل أدبا وعلما ، وأجد قريحة وأكثر فهما ؟ نعم لقد آل ذلك
التشدد فى التدين والإفراط فى التورع بهؤلاء القوم إلى أجد أساليب الحياة ،
وأمرها وأكرهها وأبعدها من الألفة وحسن العشرة ، وأصبح البيوريتانى وليست
الرابطه بينه وبين الغير هى رابطه الإنسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين
طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه . وكل من خرج عن دائرة هؤلاء
الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وإنما هم منه أبرياء . وإن نفور
البيوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين
رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال . وهذا كروميل نراه بينما
قد آدمى حشاه موت ابنه حتى حرمة الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة
« بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزاً كخائب وظافراً كمنهزم — تراه مع
ذلك يهش ويش لادن يوقع إمضاءه على الأمر الصادر بإعدام الملك « شارل
الأول » وما ذلك إلا لاعتقاده أن ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين ،
وليس هو لغلظ فى كبده أو فظاظة فى طبعه ، وكان من تفانيهم فى الله أن

ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء . وهكذا تحولت حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة جسائم وعظائم ، وأصبح أحدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق ، وباتت الحياة وهى عبء من الأعباء ، وسخرة خالية من اللذة ، وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباحج العهد الإليصاباتى ومفارحه ، ومأنسه وممارحه ، مرارة البيوريتانية وجدها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة ، ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوسواس ، وتلك الهواجس . وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل إليهم أن حياة الناس العادية نوع من الإثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية أوليفار كرومويل : « لشد ما غويت وضللت أيام الشباب » وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية ؟ هى أنه كان يياشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ، ولا بأس على الشاب فى ألا يكون كذلك .. ثم انظر إلى جون بانيان صاحب الكتاب الجليل « سيرة الحاج » كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة وما أشبه ذلك ، فكانت مبعث رعب لى ومثار قلق وكرب ، تعترينى أثناء لعبى مع الصبية عظة من الله وزجرة ، ولكنى كنت أهملها وآبى إلا إقامة على ذنوبى ومآئى » . أفتدرى ما هى تلك الذنوب التى أبى إلا الإقامة عليها ؟ هى نوع من لعب الأطفال وصنف من الرقص ، فأما عيبه الحقيقى وهو الإكثار من الحلف ، فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رأت منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شديد بسماع الأجراس تفرع ، وكان يحسب ذلك مآثما فكان لا يزال يذهب إلى موضع تلك الأجراس من الكنيسة فيقف تحتها وهى تفرع ، حتى يخيل إليه أن الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حينما عن الرقص والألعاب ثم عاد إليها ، وفى ذلك يقول : « لقد صرفتنى عظة رجل من القسوس عن الألعاب ،

ثم ما لبثت أن استهوتني بلذاتها ، فإني ذات يوم لألاعب قطبي وقد لظمتها لظمة وهممت أن أظمها الثانية ، وإذا بصوت من السماء قد نفذ إلى صميم قلبي وكأنا يقول : أيهما تفضل ، وتختار : ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم الإقامة عليها وعذاب النار ؟ فأصابتني لذلك دهشة ، وأطلقت القطة ورفعت طرفي إلى السماء ، وكأنا رأيت بعين ذهني السيد المسيح ينظر إليّ كالغاضب عليّ ، وكأنه يتهددني بعقوبة صارمة إن أنا لم أقلع عن تلك الذنوب والآثام .

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجاً من النقص والفضل ، وخليطاً من السخف والنبل ، ولنا أن نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولكنه لا يسعنا مع ذلك إلا الاعتراف بأنه لا يزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد غرس غرسته الطبيعية ، وما إن تزال تنفقده فهو ينمو ثم ينمو . وطالما قلت إن الحياة معترك فما فاز فيها وظفر فهو حق ، وما خاب وانهزم فهو باطل ، فالقوة مقياس الفضل . خذ مثلاً عظمة أمريكا الحالية ، وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ؟ الله يعلم أن منشأها لم يك إلا فئة ضعيفة بيوريتانية من أهالي هولاندة أضر بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة ، فخرجوا من ديارهم وهاجروا منذ قرنين إلى أمريكا في تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيع ! ولو كان لنا خيال اليونان وشاعرهم لقلنا في ذلك الحادث المذكور القصيد المحير ، ولكن حسبنا أن الطبيعة كتبت في هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صفحة العالم ، ولقد كان بأمريكا قبل تلك الفئة البيوريتانية جماعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولكنهم لم يكونوا إلا كجسم ميت . فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت في الجثة الهامدة فأحيتها ، نعم لقد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فجزموا على انتجاع أمريكا ، وما أدراك ماذا كانت أمريكا إذ ذاك ؟ غابات خضراء وأجام سود مسلوذة عذراء لم تفرزعها قدم ولا فتحت أغلاقها يدان ، مستبهمة المعالم طامسة الأعلام ، وأمم همج وحشية . ولكن هذا كله أخف وطأة من الحكومات الظالمة والملوك الغاشمة ، وقد علموا أنه مهما يكن من صعوبة جانب الطبيعة هنالك ، فإن في الرياضة ما يذل أنفها ، ريلين عطفها ،

ويستغزرها ، ويستلذ خيرها . وأنهم سيجدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون في حيث تنام عنهم الحادثات وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقوى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم . ولما صحت منهم النيات على ذلك وصدقت العزائم ، أخذوا عددهم وشحنوا أمتعتهم واستأجروا مركباً .. السفينة المسماة زهرة الربيع - واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة أقاموا بها شعائر الوداع والتشجيع على صورة دينية ، ولا غرو فقد كان عملهم هذا دينياً - وإن تشأ فقل ضرباً من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم إلى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك إخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعاً إلى رازق النسر في السماء والحوت في بطن الماء ، أن ينظر إليهم بعين عنايته ، ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلمهم بجناح رعايته ، ويكون لهم في بلاد الغربة وديار الوحشة حرزاً منيعاً ، وروضاً مريعاً ، وكنة دفيناً ، ووثاراً وطيباً . نعم لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على أيديهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وإن كان قدرهم إذ ذاك لم يك إلا صغيراً فأول النار شرر ، وأول الغيث قطر ، وكل شيء حق ، فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوماً ما ضخماً جسيماً .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى أقمر
والبيوريتانية وإن سخر منها الناس سلفاً فلا يستطيعون أن يسخروا منها
الآن ، وكيف وقد أخذت عددها ولبست سلاحها ، وحملت الحدق واللباقة في
أصابعها العشر ، والبطش والقوة في قوائمها الأربع ، وأصبح في وسعها نزع
البحار ، ونسف الجبال ، وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت كالأعلام ،
فهى الآن من أشد قوى العالم .

ولست أرى في تاريخ اسكوتلاندة عصراً جديراً بالذكر إلا ذلك الذي
حدث فيه بيوريتانية « نو كس » وما ظنك ببلاد قفر لا تغيها المشاحنات من
أهلها والمشاغبات والفتن والمذابح - ناس في أدنى حضيض الغلظة والسقوط

أحسن بقليل من أهالي أيرلنده الحاليين - طوائف من جياح الأمراء والسادة أبى عليهم جهلهم وحققتهم أن يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التي سلبوها جماعة فقراهم وعمالهم ، ولكنهم كالجماهير الكولومبية الحالية لا يستطيعون أن يحدثوا تغييراً حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون إلى تبديل وزارة سبيلا إلا شفق أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هذه ؟ نعم ولكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأول الوثنيين من سكان الشمال ، أولئك الذين لا نجد في مآثرهم الوحشية ومساعدتهم الدموية شيئاً يذكر . أجل لقد استمرت اسكوتلانده جسماً بلا روح حتى نفخ الله فيها من نهضة « نوكس » روحاً ، فأصبح كل فرد بها برا صالحاً تقياً . وإن تشأ فقل بطلا ورسولاً نبياً .

ومما يقال في مدح هذا الرجل أنه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وإنما أتته من تلقاء نفسها ، وذلك بعد أن أوفى عقد الأربعين . وكان من أمره أنه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، قضى أيام صباه في المدارس ، ثم تخرج منها قسيساً واعتنق المذهب الجديد - مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل في شئون الغير بالإقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم ، وكان يكتسب بإلقاء الدروس في الأسرار الكريمة ، يشرح مبادئ مذهبه إذا سئل ، ثابتاً على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب أنه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصبورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشتد الحصار على جماعة الخوارج المصلحين وكان « نوكس » بينهم ، وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جأشهم ، ويفتل مرر عزائمهم ، ويستنهض عائر هممهم ، قال فيما قال : إنه لا بأس أن يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وإنه جدير بكل من وهبه الله قلباً حافظاً ولساناً ناطقاً أن يكذب في نشر الحق لسانه ، ويبيح في الإرشاد إلى الصواب ، وإن جون نوكس هو ذلكم الرجل . ثم التفت إلى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ؟ إذن فما قعوده عن الإرشاد والنصيحة ؟ » فوافقهم الجمع على مقالته وقالوا : إنه عمل غير صالح ، فاضطر نوكس إلى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتاً حائراً ، ثم أجهش بالبكاء وخرج من المجلس يعدو ودموعه على وجنتيه أشد عدواً .

ومن ذلك الوقت فصاعدا ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس إشعالا ، حتى عادت الأمة الاسكوتلاندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنسية ، وبدأ الناس يميون . واعتقادى أن كل ما جاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل إن من آثارها أيضا ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الاسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد « داود » هيوم ، والتر سكوت ، وروبرت بارنز . وإنى لأجد نوكس ومذهبه يفتنان قوتها وسرها فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض ، وأرى أنها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية ، نعم لقد فاضت تلك الثورة الدينية الاسكوتلاندية بالخير العميم على جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك أنها شبت حجرة فى كنيسة إدنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فإذا هى قد صارت حريقا أسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا ، وبعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله إلى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل فى ذلك للذين جاهلوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كلهم ، ونعمنا بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل أن يصبطلوا نار الجحيم ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل وهم يكابلون لذع إبرها ، وتلك حال هى كما قلت أشبه بمجال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور فتسلها بجثتها ، لكى يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوها القلعة ويملكوها . فسبحان قاسم الحظوظ لهؤلاء النصر والظفر ، ولأولئك الموت الأحمر . وكم من رجل كنوكس وكرومويل كافحوا وجاهلوا ، وقاسوا وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب والبلاء ، بل اللوم والتفنيذ ، والهجوم والتنديد ؛ قبل أن يسوق الله للبلاد الحرية ، ترفل فى الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وإنه لمن أفحش الجور أن تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير وحسن فعل كما يجزى سنمار
وعيب وعار ألا تزال الأجيال تستشير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه
للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين ، ولا جرم له إلا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ،
والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، وإلا أنه كان يحمل تحت ضلوعه أشجع فؤاد

فى الأقطار البريطانية ، وإنه كان ولا مشاحة أنبل أبناء جلدته وأنجدهم . ولو كان متعاس الهم متقاعد العزم للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء ، وراح هو بعرض برىء الساحة أملس الجانب ، ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم الجلييلة على العالم أجمع . فواعجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب المروءة وإثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندة العفو لأنه كان أنفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا بذنبه . فهم فى مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفى غير حاجة إلى مثل ما يقدمه من الأعداء ! وهل فى العدل أن يحل ذلك برجل باع اللذة فى سوق الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشطف والقشف ، ونزل المعتكز بلا درع ولا جنة ، وأهدف للسهم صدره ، واحتمل فى الله النفى والأسر يسام العذاب ألوانا ، ويعرض للرعود والقواصف ، والرياح العواصف ، إلى غير ذلك من ضروب المحن وصنوف البلاء . ولكن ليقبل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون ، وإن كان يعيننا نحن أن ندفع الظلم عن رجل لا نزال نرتع فى غرس يديه ، وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وأرى أن أول شروطنا فى البطولة - أعنى الإخلاص - ينطبق تماما على نوكس ، وليس أحد ينكر أنه مهما تكن عيوبه وعوراته ، فلقد كان من أشد الناس إخلاصا ، وكيف وإنما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحا باطلا فيدعه . ولما نفى أسيرا مع أصحابه إلى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم إثر حصار طويل ، جاعهم أحد السجنائين يوما بصورة مريم وسألهم أن يركعوا لها . فقال نوكس « أتزعم هذه أم المسيح ؟ كلا ما هذه إلا قطعة خشب عليها ألوان وصبغ ! وأولى بها أن تطفو على مياه هذا النهر : ثم تناولها فألقى بها فى اليم . ولم يكن مثل هذا المرح بالشىء الرخيص إذ ذاك . ولكن نوكس لا يبالى فى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلى صحبه فى النكراء ، ويعزيهم فى المحنة السوداء ، ويقول لهم : سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء . والحق أبلج ، والباطل جليج ، وآخو الباطل على الأيام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور ، والحق سنة الديان ، والباطل

مسلك الشيطان ، ولا بد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، فمثل هذا البطل ممن لا حياة له إلا فى عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق فى أطراف الصخرة الركون . وما أحسب إلا أن الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار أفئدة الأنبياء ، فهو نبى القلب وإن لم يكن نبى اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه إنسان » . وهو أشبه المحذنين بالأنبياء الأولين من رسل بنى إسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته ، والتفانى فى الله وتضحية كل شىء فى تلك السبيل ، وشدة الإنحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطئة المثلى ، فىا له من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث ، وما ينبغى لنا إلا أن نعدده كذلك ولا نأسف أنه كان كذلك .

وقد أنكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابها لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ولكن من قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف ما يزعمون ، ولم يرَ لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظة ما ينسب إليها . بل إنى لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال إذ ذاك ا ولم يمثل نو كس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية ، وإنما لأمر غير ذلك كان مثوله هنالك . ومن قرأ محاوراته معها فلم يرَ فيها إلا قحة سوقى لأميرة أخطأ وجه الحقيقة ، وأشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل إذ ذاك أن يجمع جامع بين التأدب فى حضرة الأميرة ، وبين مصلحة الأمة الاسكوتلاندية وشرفها . ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدي الأجانب من أمراء فرنسا ، ويربأ بها عن أن تكون مدبا للمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعزف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطئ الأقدام ومواطن الكذب والضلال ، فغير ملىء أن يتذرع بحلاوة الملق وعذوبة الإطراء إلى الخطوة لدى الأميرة والحال عندها . وما أصدق قول « مورتون » حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحي بدموع الرجال » ، وماذا كان نو كس يفعل وقد رأى الأوطان قد خانها الأعوان ، ونام عنها الأنصار ، وتواكل من أشرفها وتحاذل من عيونها وأعلامها من كان يرجى للكريهة ، ويدخر للجلى ؟ أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ، ويخنس فيمن تقاعس ، ويتركها نهبا لأيدي الحوادث وغرضا لسهام

الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال ، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد . وقالت له الأميرة ماري حين جاء ينصحها : « من هذا الذى قد بلغ من جرأته أنه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : « سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها » جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسامحه ، ولا أنكر أن التسامح محمود بشرط ألا يتجاوز الصغائر إلى الكبائر والقشور إلى الجواهر ، وإنما التسامح الصادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، وألا يكون المرء لئيم القدرة . فأما التسامح مطلقا بلا حد فهذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما أرسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا . نحن لا نتسامح فى جرائم الكذب والسرقة والظلم إذا أصابتنا ، وإنما نخاطبها بقولنا : « أنت أكلوبة وأنت سرقة وأنت ظلامه ، لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك » ! وإنما نحن فى هذا العالم لننحمد الأكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا النكير على طريقة استئصال الباطل وإن شابهها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من إزالة الشر ومحو الباطل ، ومن هذه الوجهة أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة - بالواسطة التى لم يمكن غيرها - كان نوكس عديم التسامح » .

وما كان رجل اضطهد ونفى إلى بلاد الغربية أسيرا سجيننا ليكون فى معظم أوقاته إلا امر الطباع وعر الناحية ! ولست بقائل قط إن نوكس كان فى طبعه عنوبة وفى جانبه لين ودمائة ، ولا أنه كان سيئ الخلق شرس الشيمة ولم يخجل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة . هذا ولقد كان فى جرأته على الملكة باللوم ، وفى رجاحة وزنه عند أشرف اسكوتلاندا - أولئك الذين كان لهم من الكبرياء والتهيه الميزان الراجح - واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زما طويلا - لقد كان فى كل ذلك دليل على أن الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وإنما كان رجلا حمالا للعبء نهاضا بالفادح من الأمر ، مضطلعا بالباهظ من الخطب . ولا يكون ذلك إلا لمن أوتى بسطة فى الحلم ، وفضلا فى الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديمه للكنايس كما لو كان ثوريا مخربا ، وإنما أمره عكس ذلك لو أنعمنا النظر ! وما

هدم الزور والفساد ، وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ولا كان ديدنة الثورة بل النظام التام ، وإنما كان من سوء حظها أن أُلجئ إلى الثورة فى سبيل إمضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون إلا عدوا للثورة والفوضى ، ولكن ماذا يصنع إذا لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه ، هذا وإنه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر أن نوكس هذا كان فيه مرح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك فى كل شىء ، وصفحة تاريخه مخلفة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدتها ، ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة « جلاسجو » على الأولوية فى الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخابطا بعصويهما ، كان لنوكس فى هذا المنظر مضحك أى مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء والمرارة شىء من الرحمة والثناء والعطف - لا قهقهة وإنما ابتسامة تملأ العينين إشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبنى آدم ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضيع صاحب للشريف . وكان يتناول الكأس فى حان الخمار بمدينة إدنبرج - دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وأنه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد ، الجعد الأخلاق الجهم الطلعة ، المكفهر الجبين المتعصب الصخب ، كلا إنه كان من أثبت الناس أمرا وأرسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الإغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فإن عرضت مفسدات الشرف ، والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح إذا ما الذنب لم يعد حده إلى الوتر تباع قفا الوتر أرقم
وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينه كما اكنن فى الغمد الجراز المهند
لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء
ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تقل من حده الخطوب النوازل ، وجنان
ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأوصال باسط وجهه يريك الهيونا والأمور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يحول فى صفحتيه رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وإن كان بمضريه فلول وتلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه ، سألوه « هل عندك أمل ؟ » فرفع أصبعه يشير نحو السماء ثم فاض ، له المجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس - كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ، ورياسة القسيس على الملوك ، أو بعارة أخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية ، وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقا ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ، وشد ما ساءه اغتصاب جياح الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : « إن هذه ليست ملكا مدنيا وإنما ملك دينى ، وحقها أن توقف على منفعة الكنيسة - على التعليم والمدارس والعبادة . فأجابته الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام تقية » ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وإنه إن يك أخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى إحياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبغثا كان أصل رقيها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف يعنى الناس عليه مذهبه - كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لا نزال نحاول ونرجو . وما جاءت الرسل والقسوس إلا لذلك ، وقد أراها « هلد براند » وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » . أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ؟ ولا يسعنا إلا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وأفى فى طلبها أيامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر ، والحبس والأسر .

المحاضرة الخامسة

البطل فى صورة كاتب

جونسون - روسو - بارنز

الآلهة والأنبياء والشعراء والقسوس ، هى صور بطولية تتعلق بالأزمان الماضية ، وتظهر فى العصور الخالية . وقد أصبح ظهور بعضها فى العالم ضربا من المحال. فأما البطل الكاتب الذى ستتكلم عنه الآن فإنه من نتائج هذه الأعصر الحديثة ، وسيدوم ما دامت تلك الصناعة العجيبة - الكتابة - وهاتيك الحرفة الحديثة - الطباعة - وهذا الصنف من الأبطال يعد إحدى نواذر الدهر .

أقول إنه صنف جديد من البطولة لم يكد يتم له فى الوجود مائة عام ، ولم يك قبلها رجل كبير ليعيش ويرتزق بهذا الأسلوب العجيب ، ينفث وحي ضميره فى صفحات الكتب ويطيها فى أنحاء الأرض بأجنحة الأوراق ، فينال معاشا ومنزلة بما يستحو له به أهل هذا العالم جزاء عمله ذلك ، وما زالت السلع والبضائع تباع ولن تزال ، ولكن سلعة الحكمة والفلسفة وحي ضمائر العظماء لم تعرض قبل ذلك فى الأسواق هذا العرض المبين ، ويا له من منظر عجب - منظر الكاتب فى أسماه البالية ، وحجرته الخاوية ، يسوس من وراء قبره بعد مماته من أمم العالم وأجيال الأرض من ضنوا عليه أثناء حياته بالقوت الضرورى ، بل عجب وربكم أى عجب ! ولم أر فى ضرور البطولة وصنوف العظمة ما هو أدهش من ذلك .

روأسفاه أن البطل ما برح من قديم الأزل يلبس للناس أزياء شتى وأشكالا مستغربة ، وما برحت الدنيا تحار فى كنهه لغرابة منظره فلا تدرى ماذا تصنع به ! ونحن ننكر من القدماء أن يمحلمهم فرط الإعجاب بالبطل على أن يعدوه إلها أو نيبا ، وأولى بالإنكار أن يرسل الله لخلقته بطلا مثل جونسون أو روسو أو بارنز ، فتقتحمهم عيون الناس ولا يروا بهم إلا عجزة ومكاسيل لا فضل لهم إلا بضع كلمات أكثر ما

فيها أنه ملهاة القوم ، ومدفعة لآناء السأم والملل ، ينبذ إليه في ثمنها من الدراهم مقدار مسكة الرمق ، أليس هذا أولى بالإنتكار والنقمة ؟ ومنذ كان الفكر هو سائس المادة ، وجب علينا أن نجعل البطل الكاتب إمامنا وقائدنا ، وألا نقدم عليه مخلوقا مهما عظيم . فهو روح العالم في أى صورة برز وأى زى لبس ، وما يقوله كان حتما على العالم تعلمه واعتقاده والسير على موجهه ، وهىة استقبال الدنيا إياه ومعاملتها له هى عنوان رفعتها أو ضعفها - دليل سموها أو انحطاطها - مقياس قيمتها وفضلها ، ونظرتنا فى سيرته نظرة فى لباب حياة تلك العصور التى هو ثمرتها ، والتى نعيش فيها نحن .

والكاتب صنفان جيد وردىء شأن كل شىء فى هذا الوجود ، فإذا دل بلفظة بطل على الجودة ، فوظيفة الكاتب البطل بيننا وظيفه كأشرف ما يكون وأعلى ، فهو ينفث لنا ما أودع الله جوفه من وحيه - وهذا أكثر ما يستطيع امرؤ أن يفعله ، وهو قبضة من طينة الحق ، وحياته قطعة من فؤاد الطبيعة الأبدى ، وكذلك حياة كل امرئ . ولكن الضعاف الأكثرين لا يعلم عن أنفسهم ذلك ولا يخلصون لتلك الحقيقة . والأقوياء الأقولون أقوياء أبطال مستمرون لأن هذه الحقيقة لا تبرح نصب أعينهم ، والكاتب البطل مرسل إلى العالم ليفهمهم ذلك حسبما يستطيع ، وهى عين الوظيفة التى كان القدماء يسمون صاحبها إلها أو نبيا أو قسيسا ، وهى التى ما أرسل بطل إلى العالم إلا لكي يؤديها .

وقد ألقى الفيلسوف الألماني « فيشتى » منذ أربعين عاما سلسلة خطب فى موضوع « طبيعة الرجل الكاتب » ، فقال مطابقة لمذهب الفلسفة الروحانية التى كان هو أحد أساتذتها : إن جميع ما نصر من الأشياء ، ولا سيما نحن وسائر الآدميين إنما هى أثواب أو ظواهر حسية يكمن وراءها ويستتر تحتها « معنى الدنيا المقدس » ، وتلك هى الحقيقة المتوارية بحجب المظاهر ، وأغلب الناس فى عمى عن هذا المعنى ، وإنما يعيشون بين الظواهر والقشور والماديات غير خاطر ببالهم أن تحت ذلك شيئا مقدسا ، ولكن الكاتب مبعوث من قبل الله ليرى ذلك لنفسه ثم يريانه . هذا كلام « فيشتى » ولا حاجة بنا إلى معارضته ، وإنما هو أسلوبه فى بيان ما أنا باذل الجهد عبثا فى بيانه ، وتسمية ما لا أستطيع أن أسميه ، وليس له حتى اللحظة اسم - أعنى الحقيقة الإلهية التى كلها رونق وعجب وروعة ، والكامنة فى كيان كل امرئ وكل شىء -

وجود الإله الذى خلق كل امرئ وكل شىء ، وقد علم محمد هذا الدرس بأسلوبه ، ولقاه أودين بأسلوبه ، وهو الدرس الذى ما زال كل ذى قلب حى يلقن الناس بهذه الطريقة أو تلك .

ولذلك يسمى « فيشتى » الكاتب نيبا أو قسيسا لا يزال يجلو لأبصار العالم المعانى المقدسة ، والكاتب كنييسة مستمرة تعلم الناس أن الله موجود ، وأن جميع الظواهر وكل ما نراه فى الكون إنما هى ثوب « لمعنى الدنيا المقلس » - ثوب « للسر الكامن تحت الظواهر » . فما من كاتب صادق إلا وفيه سر إلهى سواء اعترف بذلك الناس أم لم يعترفوا ، فهو سراج يستضاء به وقسيس ينصح ويعظ ، ويرشد الخلق ويهديهم على طريقهم المظلم ، ومسلكهم المبهم ، فى معامى الوقت وقفار الدهر كأنه عمود من النور . ويشدد فيشتى جدا فى التمييز بين الكاتب الصادق الذى نسميه هنا الكاتب البطل ، وبين آلاف الكتاب الكاذبين غير الأبطال ، فمن كان من الكتاب قد اشتمل ذلك « المعنى المقدس » على جميع نفسه ، أو اشتمل على ناحية منها ثم لم يحاول أن يدخل البقية فى طى ذلك المعنى فهو دعى وأفك ومزور ، بل هو لا شىء مهما اكتسى من رونق الأبهة وفخامة الجاه والمنزل . ومثل هذا غير حقيق أن ينعم بين الناس بالسعادة ويفوز بالهناء ! هذا رأى فيشتى فى الكاتب وهو فى أسلوبه عين ما نرمى إليه نحن فى أسلوبنا .

ومن هذه الوجهة أرى أن أكبر الكتاب أثناء القرن السالف هو الألماني الكبير « جيتا » ، فقد قدر الله لذلك الرجل أن يشتمل عليه « المعنى المقلس » ويوهب البصر النافذ إلى أعماق السر المقلس . ولقد تبدو لنا الدنيا من خلال الله ورونق القلس تشهد أنها من صنع الخالق ، وأنها هيكل مؤلفاته عليها جلال الله يحفها نور لين سماوى ، ولست أرى هذه إلا نبوة فى عصور ساد فيها الكفر والإلحاد ، وعملا من أجل أعمال تلك العصور وإن كان من أسكنها وأسكنها ، ولولا علل عوائق لكان مثالنا على الكاتب البطل هو « جيتا » هذا ، وما كنت إلى شىء أشوق منى إلى الخوض فى حديث بطولته ، وموضوع عظمته ، لأنى أراه بطلا صادقا ، وعظيما جليلا ، بطلا وعظيما فيما قال وفعل ، وربما كان أشد بطولة وعظمة فيما لم يقل ولم يفعل ، وهو فى نظرى آية من آيات الله - وبطل عظيم قديم أشبه فى كلامه وصمته

بنى غابر فى ثياب أديب حديث يلبس أحد أزياء التهذيب والمدنية ، وما رأينا منذ مائة وخمسين عاما منظرا كهذا .

ولكن ضلة الجليل الحاضر فى أمر هذا البطل وجهلهم بحقيقته ، وسوء قدرهم لقيمته يجعل التعرض لتقليده وإجلاله ضربا من العبث الباطل ، ومهما أقل فيه فسيبقى لمعظمكم لغزا من الألغاز ، ولن تدرخوا من أمره إلا خلاف الواقع ، وإنما أمره دفينة سيثيرها المستقبل ، وحسب الساعة الحاضرة أن توقف على ثلاثة من أكبر أبطال القرن السالف : جونسون وبارنز وروسو ، ثلاثة كانوا من الفقر وسوء الحال بعكس ما فيه « جيتا » اليوم من الرفه والنعمة ، هؤلاء لم يظفروا ظفر جيتا ولكنهم حاربوا فصرعوا ، ولم يكونوا من جالبى الضياء وإنما من طالبيه ، ولقد كانوا من عيشهم فى أبرح برح ، وآلم قرح ، كأنما يعانون من أيامهم سلاسل وأغلالا ، ويحملون من فوادح دهرهم هضابا وجبالا ، فلا بدع أن تعذر عليهم أن يبرزوا من كوامن أفكارهم كل خفية ، أو يستقصوا الغاية بكشف الغامض من ذلك (المعنى المقدس) والذى أعرضه الآن عليكم من هؤلاء الأبطال هو قبورهم ، فإنها الكتبان الأثرية التى يشوى تحتها ثلاثة من أضخم جبابرة القلم ، مشهد محزن ولكنه لذيد ممتع ، فقفوا بنا على تلك القبور مليا .

كثرت الشكوى الآن مما يسمونه اختلال نظام المجتمع ، وكيف أن كثيرا من العوامل الاجتماعية تسيء أداء وظائفها ، وكيف أن كثيرا من القوى العمرانية الشديدة تكدح فى غير مكدح وتكد فى غير مكد ، وتلك شكوى لا شك فى صحتها . ولكن من نظر فى جهة الكتاب والكتب وجدها أشد الجميع اختلالا وفسادا ، بل أصل كل اختلال وفساد - وجدها كأنها قلب يصدر عنه ويرجع إليه كل اختلاط وتشوش فى العالم ، ولست أرى حالا أنكر من سوء ما يجزى به الكتاب على جليل ما يسدونه إلى الملأ . ولو غمستنا القلم فى هذا المبحث غمستناه فى بحر لا قرار له ، ولكن لا بد لنا أن نمس شاطئ الموضوع إذ كنا غير خائضين عبايه وإنما للفائدة ، وأسوأ ما كان من أمر هؤلاء الثلاثة الكتاب أنهم وجلوا عملهم فى هذه الحياة ومركزهم ضربا من الفوضى . والسائح إذا صادف طريقا مذللا ومنهجا واضحا مضى فى سنته وأمعن فى قصده ، فإذا أصاب عقبة لا تقتحم وسدا لا يفتح فجعل يطعن فيه يغبى نفاذا ،

(الأبطال)

فأحر به أن يظل من عمله هذا في مصاب جلل ، وأوشك أن تمر به فريسة بين مخالب الهلاك !

أدرك آباؤنا ما هنالك من الفائدة العظمى في خطاب الرجل للرجال وعظة المرء لإخوانه ، فأسسوا الكنائس والمساجد لذلك الغرض . فما من بقعة في العالم المتمدين إلا بها منبر يستطيع منه الرجل أن يعظ باللسان إخوانه في الله . كانوا يرون ذلك من أهم الأمور وأنه لا خير في الحياة من دونه . ولله ما كان أنقاه عملا وأجمله مشهدا ! فأما الآن وقد ظهرت صناعة الكتابة والطباعة فقد طرأ تغيير كلي على ذلك الأمر . أو ليس الكاتب الذى يضع كتابا خطيبيا ليست خطبته قاصرة على هذه البلدة أو تلك ، رهينة بذلك اليوم أو ذاك ، ولكنها خطبة لكل إنسان في زمان ومكان ؟ وحقا إنه من يخطئ في عمله ، فأوجب الواجبات على كاتب الكتاب أن يتوخى الصواب والسداد . والخطيب العظيم والطامة الكبرى أن الناس لا يحفلون ألينة أصاب كتاب الكتب أم أخطأوا - وُجد كتاب الكتب أم فقلدوا . نعم قد يكون للكاتب شيء من الأهمية عند طابع الكتب الذى يرجو أن يربح مبلغا من وراء مؤلفه ، فأما عند خلافه فلا كلا ولا يعبا الناس من أين جاء ذلك الكاتب وأين يذهب ، وكيف وصل وكيف يمكن أن تستهل له طرق التقدم والاستمرار ، وإنما يراه المجتمع كأنما هو إحدى الشواذ فيتركونه هيم كالذى لا يدري أين هو .

أنا فى أمة تداركها اللّـه غريب كصالح فى ثمود

وصناعة الكتابة لا شك أكثر الفنون إعجازا ، أو أعجب ما أبدع الإنسان ، « وحروف » أودين كانت أول عمل أتاه أول أبطال العالم ، وليست الكتب فى هذه الأوقات إلا من قبيل « حروف » أودين ، والكتب - حرسكم الله - مستودع حكمة الغابرين ، وفيها تتجلى لنا أرواح العصور الماضية ، والحقب الخالية ، بعد أن فئت أجساما ، وأصبحت أوهاما وأحلاما . ولا ننكر أن الجيش اللهم ، والأسطول الضخم الجسام ، والمرافئ والثغور ، والمدائن والقصور ، أشياء رائعة جليلة ، ولكن ماذا مالها وأين مصيرها ؟ وإذا سألت اليوم عن أغامنون وبيركليس ويونانهم ، رأيتها عهودا تبكى وتذكر بعد أن كانت مشاهد تروع وتسر . ولم تنل عينك منها إلا دمنا عافيات ، وطلولا دارسات ، ورسوما دائرات ، ومعاهد خربات ، كأنها صحف

باليات تنشرها أيدي السحب السواكب ، وتطويها أكف الرياح الغرائب ، إذا نفشتها أقلام الهاطلات ، مسحتها أنامل السافيات .

لأيدي البلى فيها سطور مينة عبارتها أن كل بيت سيهجر ولكن ماذا كان من أمر مؤلفات اليونان ؟ هى اليوم عينها بالأمس لم يغيرها الزمان ؛ ولم ينكرها الحدثان ، ولا أبلتها العصور ، ولا أخلقتها الدهور ، هذا وقد خلد الله اليونان بين أوراقها وصحفها ، وأحيأها فى سطورها وحروفها ، فكأنها لم تمت وإنما طوتها من تلك الكتب صناديق وخزائن ، وأصبحت فى تلك الأسفار ودائع ودفائن . والكتاب - رعاكم الله - فؤاد العالم ، يعى كل ما طرأ عليه من حوادث وآثار ، وخصاير وأفكار ، ووجدانات ومشاعر ، وفعال ومآثر ، ومشاهد ومناظر ، فنعم تراث للأواخر ، وتحفة الغابر للحاضر .

أو ما زالت الكتب تأتي بالمعجزات ، كالتى زعموا أن « حروف أودين » كانت تأتيها ؟ بلى حسبها أن فيها للناس دوافع ومحركات ، ويواعث ومحرضات ، ولن تعدم أحقر قصة وأسخفها أثرها الحميد فى قارئاتها ذوات الخرق والحلق من بنات الريف ، تجدها بعد الزواج فى ترتيب بيتها وتنظيمه ، ثم انظروا ما الذى شاد كنيسة سانت بول ، هو كتاب التوراة الذى هو كلمة الرجل موسى الخارجى الطريد راعى الغنم فى صحارى الطور . نعم لقد أقامت الكتابة فى العالم دولة المعجزات ، وضمت الماضى والحاضر بأوثق العقد وأؤكد الصلات ، ولاصقت بين الشرق والغرب ، وصاقت بين القطب والقطب ، وجمعت بين طنجة وبكين فى القرن ، وألفت بين نوح ونابليون فى زمن ، وغيرت للناس وجوه الأمور وصور الأعمال ، وجددت شأننا بعد شأن وحالا بعد حال .

فانظروا مثلاً إلى التعليم وما أحدثت فيه الكتب من الأثر الجميل ، وحسن التغيير والتبديل ، لقد كانت الجامعات قبل الكتب هى الطريقة الوحيدة لاقتناء العلوم واكتساب المعارف . نشأت الجامعة حين لا كتب تذيع وتنتشر ، وحين كان الرجل يريد الكتاب فيبذر الضياع والعقد . وكان ذو العلم إذا أراد أن يعطى من علمه لم يجد بدا من جمع الطلاب حوله فيلقنهم العلم فما لقم . فإذا كنت فى ذلك الوقت فأحييت أن تعرف من العلم ما يعرفه « أبلارد » لم يكن أمامك إلا أن تذهب إلى

«أبلارد» ، حتى لقد بلغ قصاد أبلارد وحجاجه نحواً من ثلاثين ألفاً يمتثلون حوله ليستمعوا فلسفته ، وإذا وجد بهذا المكان هذا العديد المحمهر من طلاب العلم ، رآها العلماء الآخرون فرصة يحسن اغتنامها . فمن وجد في نفسه الكفاءة لتدريس علم رأى ذلك المكان أحق الأمكنة بأن يذهب إليه فيعرض في سوقه سلعة علمه . وهكذا كلما زاد فيه عدد المدرسين زاد عليه الإقبال من الطلاب والمعلمين معا ، وبعد ذلك أصبح المكان لا يحتاج إلا إلى التفات السلطان إليه ليجمع تلك المدارس المتعددة في مدرسة واحدة ، ثم يمنحها المباني والميز والمنح ويسميها جامعة ، وهذا هو في نظري منشأ الجامعات .

ولكن انتشار الكتب وسهولة اجتلابها قلب الأمر قدماً لرأس ، وذروة لأس ، ومتى أوجدت الطباعة نسخت أمر الجامعات وعلوتها علواً مبيهاً ! إذ لا يصبح المعلم فى حاجة إلى أن يجمع الطلاب حوله ليسمعوا منه . وما هو إلا أن تطبع الكتاب حتى يتناوله من بأقصى الأرض غنيمة بلا عناء ، ويرتشفه شربة بلا رشاء — هنيئاً مريئاً — وهو متكئ على أريكته ، مرتفق فوق وسادته ، ليقلب فيه البصر ، وينعم فى معانيه النظر ! ولا شك أن فى الخطبة لمزية خاصة ، حتى لقد يحسن أحيانا بكتّاب الكتب أن يخطبوا طلابهم أيضاً ، وحسبكم ما نحن فيه الآن . وأرى أنه ما دام للمرء لسان فسيبقى للخطابة فضل لا ينكر ، وقيمة لا تحقر ، ومنطق للكلام ، بخلاف منطقة الأقلام . ولكن الحد الفاصل بين المنطقتين لم يعين حتى اللحظة ، ولم توجد بعد تلك الجامعة التى يعرض معها نفوذ قوة الكتب وتأثير سلطانها ، ولا أعرف بعد كيف تكون تلك الجامعة وما معالمها وحدودها . فإذا كنا مفكرين فى ذلك فمثل هذه الجامعة لن تكون إلا كأقدم جامعة ، أعنى أن يكون من شأنها تعليم القراءة فى مختلف اللغات والعلوم — أى تعليم مبادئ كل صنف من أصناف الكتب . ولكن مأخذ العلوم ومقتبسها هو الكتب أعينها ! ومبلغنا فى العلم متوقف بعد على ما نقرأ بأنفسنا مهما صنع لنا المعلمون ، وأجاد المدرسون ، فنخرج من ذلك على أن خير جامعة فى هذه الأوقات هى مجموعة كتب .

وأما من جهة الكنيسة فالتغير الحادث عليها من نشر الكتب تغيير تام ، والكنيسة هى جماعة القسوس والأنبياء ذوى الهداية والإرشاد ، من يهدون بعضاتهم عباد الله

الصراط المستقيم . وقد كان اللسان يوم لا كتابة ولا طباعة هو الأداة الوحيدة لبث النور والهدى ، فأما وقد ذاعت الكتب فقد أصبح كل كاتب يلين من قلوب الناس ، يأخذ بزمامها نحو الحق ، فذلك بطريق أمته وإمامها ، وطالما قلت إن كتاب الجرائد والمجلات والرسائل والشعر والكتب ، هم فى الحقيقة الكنيسة العاملة الفعالة ، هم الأمم الحاضرة . وليست الكتب خطبا لنا فقط بل هى أيضا ضروب العبادة ، وبعضها تكون قراءته أحسن صلاة لله وتسييح . أو ليس المعنى الشريف يرفه إليك البليغ فى رونق اللفظ المصقول ، يخال من صفاء السبك وإشراق الديباجة فى أكرم حلة وأبهج خلعة ، فيمتزج بأجزاء النفس ويجرى مع الروح حتى :

يظل سامعه لدينا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس^١

يفعل بالنفس ما تفعله العبادة . ولعل الكثيرين لا يعرفون فى هذه الأوقات الفاسدة من أساليب العبادة إلا هذا الأسلوب . والشاعر الذى يريك من جمال الزهرة ما كان قبل غائبا عنك ، أليس كأنه أطلعك على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته ، وشعبة من ينبوع الجمال الإلهى الشامل ، وعلى سطر خطه القلم العلوى فى صحيفة الكون فبدا مبينا ناصعا ، جليا ساطعا ، وكأنما غنى لنا نشيدا قدسيا ؟ وإذا كان هذا شأن من يصف زهرة الروض ، فكيف الذى يتغنى لنا بمكارم أولى العزم ومآثرهم ، ومناقب ذوى الفضل ومفاخرهم ؟ مثل هذا كأنما يحس أكبادنا بجذوة من مجامر المحراب ، ولعلها أشرف طرق العبادة .

وما الأدب إلا كشف وجلاء لأسرار بدائع الله ، أو ما يسمونه « السر الجلى » وقد عرف الأدب « فيشتى » بأنه البيان المستمر لما يكمن من أسرار الله فى الأشياء الأرضية العادية ، فإن أسرار الله ما برحت كائنة فى كل شىء ، وما برحت تصادف من هذا الكاتب وذلك من تبرزها فى هذه الصورة أو تلك ، فى مقادير مختلفة من الوضوح ، ودرجات متفاوتة من البيان ، كل حسب ما وهبه الله من الفضل . هذ هو الذى ما زال ذو المواهب اللدنية من الشعراء والكتاب والخطباء والمتكلمين يصنعونه عمدا أو عفوا ، حتى لقد تجد أن شعر بيرون لا يخلو من تلك الأسرار برغم م قد امتلأ به من زوايع الخلق وصواعق القذف والانتقام ، ومعاسف الغل والحقد والضغينة على بنى البشر ، وهى (الأسرار) أيضا كائنة فى متواضع شعر بارنز ، ذلك

الفلاح الذى كان يجتلس القوافى من خلال حركات الفأس والمحراث - صاحب القصائد التى كأنها أغاريد القنبرة صاعدة من أديم السراب ، إلى أعلى ذوائب السحاب ، والحقيقة أن كل غناء صادق هو عبادة ، كما أن كل شغل صادق هو أيضا عبادة . وما الغناء الصادق لو نظرت إلا صفة للشغل الجيد الحر وتمثيل موسيقى مطرب . ومن أنعم النظر رأى هنالك قطعة جمّة من الأناشيد الكنيسية ، والصلوات الدينية ، طافية على مياه ذلك البحر الخضم الذى يسمونه بحر الأدب . فالكتب أيضا كنيستنا .

نتقل الآن إلى تأثير الأدب فى الحكومة ، لقد كان البرلمان قوة عظمى تبرم أمور الرعية وتنقض ، وتعقد شعون الأمة وتحل ، وتصرف أعنة البلاد وتدبر ، وتقطع أحكامها وتقرر ، بعد طول الروية والنظر ، وإدمان التأمل والفكر ، وإطالة المناقشة والمحاورة ، وإدمان المجادلة والمناظرة ، ولكن انظروا الآن أما ترون أن عمل البرلمان هذا يعمل الآن خارج البرلمان فى طول البلاد وعرضها ، بواسطة المطبوعات ، من جرائد ومجلات ، ورسائل ومؤلفات ، وإن كان البرلمان لما يزل باقيا . ولقد قال بيرك : إن البرلمان ثلاثة أركان ، ولكن بمجلس بخيرى الجرائد ركنا رابعا أهم من تلك الأركان الثلاثة . ولم تك كلمته هذه بالمجاز والاستعارة ولكنها عين الحقيقة . وقد أصبحت خطباتها اليوم أجسم منها يوم قالها بيرك ، فالأدب هو برلماننا أيضا ، والديمقراطية - أيدكم الله - رهن الطباعة التى هى من نتائج الكتابة ، وما هو إلا أن تخترع الكتابة حتى تتبع الديمقراطية . فالكتابة تنتج الطباعة - الطباعة العامة اليومية كما نرى اليوم ، فيصبح كل ذى لسان بوقا يسمع الشعب ، وقوة وفرعا من أفرع الحكومة راجح الميزان عند وضع الشرائع والقوانين ، وجميع تصارييف السلطة ، ولا ينظر إليه من أى طبقة هو وماذا يملك وماذا يلبس ، وإنما الأمر الجوهري هو أصحاب لسان ، وأخو بيان فيصغى إليه ، ويقبل عليه ؟ هذا لا غيره الأمر الأساسى ، فالإقامة محكومة بكل ذى لسان من أبنائها ، وهناك الديمقراطية ولا مشاحة . أضف إلى ذلك أنه ما من قوة موجودة فى الكون إلا وسيريكها الدهر يوما ما فعالة معترفا بسلطاتها ، فهى لا تزال تعمل فى خفاء ، وتكد تحت غطاء ، تدافع العوائق والعوائق تدافعها ، وتصارع الموانع والموانع تصارعها ، حتى يجلوها صبح اليقين من غياهب الشبهات ، وتطلقها يد

النصر من سلاسل العقبات ، فتذهب شعاب الحق كل مذهب ، وتضرب فى مناصر الإصلاح كل مضرب . ولا تستريح الديمقراطية حتى تبرز للعيان ، ويصطفى شمسها كل إنسان ..

أو ما يزال فى كل شىء دليل على أن خير ما فى طاقة امرئ أن يصنع ، وأعجب الأشياء طرا ، وأثقلها فى النفوس وزنا ، وأخفها على الأسماع حسنا ، وألطفها فى النفوس مكانا ، وأقلها فى العقول رجحانا ، هو كتاب الله تلك الرقع الواهية المرقشة المتون بلمع المداد الأسود ! أى جليل من الأمر لم تأت ؟ وأى شىء لم تصنع ولا تصنع ولن تصنع ؟ ولا غرو فهل كانت تلك الرقع مهما حقر ظاهرها إلا أشرف نتائج الذهن البشرى ؟ هى فكر الإنسان - الفضيلة الحرة التى بها يصنع كل شىء . وجميع ما يفعل الإنسان ويحدث إنما هو ثوب فكره ، وجسم روحه ، ورأى من آرائه . فمدينة لندن هذه بجميع ما بها من منازل ودور ، وحلل وقصور ، وعدد وآلات ، وكنايس وبيعات ، وحركة وصخب ، وجلبة ولجب - ما كل هذه إلا فخرة أو مليون فكرة ، ألف شملها نظام فصارت واحدة . ما هى إلا روح فكرة جسيمة قد تجسدت فى الطوب والحديد والخشب ، والتراب والدخان والقصور ، والبرلمانات والمركبات والمصانع ، وسائر ما تنظر إليه من الأشياء . وما من طوبة صنعت إلا وقد أعمل بعض الرجال فكرته كيف يصنعها ؟ وما نسميه قطعا من الورق عليها لمع من الخبر إنما هو أطيّب مظهر للفكر البشرى ، فلا عجب أن يكون أنشطها وأكرمها .

وقد طالما أقر الناس بفضل الكتاب وخطارة شأنهم فى العصور الحديثة ، واستعلائهم على الكنيسة والبرلمان والجامعات وغيرها . ولكنه إقرار لم يشفعه عون ولا مساعدة ، وعسى أن يكون قد آن للعواطف أن تخلى مكانها للإمدادات المادية ، وإذ كنا نقرر ونعترف بأن للكتاب على المجتمع النعم الغراء ، والمنن البيضاء ، وإنهم يجدون به فى سبيل التقدم ويسعون به فى مراقي المدنية ، فما بالنا إذن نتركهم فى أسوأ حال من نكد الحياة وجحد العيش ، من أمرهم فى حيرة عشواء ، وضلالة عمياء ؟ ويقينى أن كل شىء فيه فضيلة قوة خفية ، فسيحسر يوما ما لثامه ، ويميط قناعه ، ويسفر لنا ناصع الصورة واضح الغرة ، بين الإشارة جهير الصوت ، فأما أن يلبس أژاس زى الأدب والكتابة ويقبضون أجرها ، ويتضور من الجوع الكاتب الحقيقى صاحب

الخير والمنفعة ، فما ذلك بعدل وإتما جور وعسف . ولكن رد هذه المظلمة لن يكون وأسفاه إلا بعد الجهد الجهيد ، والزمن المديد ! وكم دون ذلك من مشكلات ومعضلات الله وحده المعين على حلها . فإذا سألتونى ما هو أحسن نظام يجعل عليه حالة الكتاب فى العصور الحديثة ؟ وما هى خير طريقة لتنظيم شئونهم واستمرارها تكون على تمام مطابقة لمركزهم ولمركز المجتمع ؟ استقلتُ من الإجابة عن هذا السؤال لقصور مبلغ عقلى عنه ، وإنها لمعضلة لو تابعت عليها عدة عقول راجحة لما استطاعت لها حلا تقريبا ، فكيف بعقل واحد ؟ نعم ولا أحسب أن أحدا يقدر أن يقول ما هو أحسن نظام لأمر الكتاب ، فأما إذا سألت سائل ما هو شر نظام وأخيشه ؟ لقلت : هذا الذى هو كائن اليوم - هذا الخلط السائد والقوضى المستحكمة ، وما أبعد ما بيننا وبين نظام صالح طيب .

وثمة شىء لا يفوتنى ذكره ، وهو أن هناك غير أمر العطايا المالية أمرا أهم وأعظم ، ألا وهو إجلال الكتاب وتقديسهم . وهو أمر كان معدوما فى القرن الثامن عشر - قرن الجحود والكفر ، فأما هبة العطايا وترتيب الرسوم فهى على ضرورتها فى بعض الأحيان ، قلما تقريبا وحدها من النظام المطلوب لحالة الكتاب . وإنى لأحد الذين أسأهم كثرة ما يغلط به من سلطان المال وفضله على كل شىء . بل إنى أحد القائلين بأنه لا ضير على الحر أن يكون فقيرا ، وأنه يجب أن يكون من الفقير محك لأذهان الكتاب ومعيار لقيمهم وأقدارهم . وقد أوجدت الكنيسة النصرانية فرق الشحاذين من رجال أبرار قدرت لهم الشمخ والتسول ، ورأت الكنيسة أن ذلك من أسباب نشر روح الدين وتأيينه . وهل أسست النصرانية نفسها إلا على الفقر والحزن والاضطهاد والصلب وسائر أصناف الغم والمهانة ؟ ولنا أن نقول : إن من لم يعرف هذه الأشياء فيتعلم منها درسها الذى لا تقدر قيمته ، فقد فاتته من فرص التعليم أئمنها ، ومن أسباب التقويم والتثقيف أئمتها ، ومن فوائد التربية والتهديب أكرمها وأحسنها . ولم تكن الشحاذة والحقاء ولبس المسوح وشد الحبال فى الأوساط ، بالشىء الجميل أو الجليل فى أعين الناس حتى جملة وشره مزاولة الكرام له ، وإتيان الجللة الأشراف إياه . وليس موضوع الشحاذة من أغراض هذا الكتاب ، ولكن من ذا الذى لا يقول بأن كاتباً كجونسون لم ينفعه الفقر وتفيده الفاقة ؟ ولقد كان مثله جديرا أن يعلم أن المال

أو النجاح - كيفما كان - لم يكن الغرض الذى يسعى ليدركه . وكان مليا أن يعرف أن فؤاده لم يخل مما قد جبلت عليه سائر القلوب من الكبرياء وحب الذات بجميع شعبه وفروعه ، وأنه من أوجب الواجب اقتلاع هذه الأغراض اللثيمة من تربة النفس . ثم اذكروا أن ييرون مع غناه وشرف نسبه ، كان أقل فائدة وأصغر مآثرة من بارنز مع فقره وضعة نسبه . وما يدرينا أنه إذا وجد فى المستقبل البعيد ذلك النظام المنشود كان الفقر لا يزال ركنا من أهم أركانه ، وكان الكتاب - أبطالنا الروحانيون - لا يزالون طائفة من الشحاذين متاحا لهم العوز والتكفف حتى يجنوا ما فيهما من كرائم الثمرات ، ويتنفعوا بهما انتفاع غيرهم باليسار والغنى ؟ ولا أنكر أن الطيب الكثير يبلغ بالمال ، ولكن ما يبلغ بالفقر أطيب وأكثر ، وإنما علينا أن نعرف حد المال فنقف عنده ، ونعلم أن ما زاد على ذلك فضول حقه الرد والرفض .

هذا ولو فرضنا وجود الإمدادات المادية والرسوم المالية ، فأتى لنا بمعرفة الكاتب الكبير الذى يستحقها ؟ إنه لا بد قبل ذلك من أن يجوز الامتحان اللائق . وأرى أن الحياة الأدبية - تلك التى كلها فوضى يتلاطم موجها ويتصادم لجها ، هى نوع من الامتحان ، وما زال هناك عنصر من الحق فى قولهم إن الجهاد فى سبيل الصعود من وهاد الطبقات السفلى إلى ذرى الطبقات العليا هو من الأمور التى لا بد من بقائها ، لما يترتب عليها من استمرار رقى العالم ، إذ أنه ما زال يولد فى الطبقات السفلى من ينبغى أن يكون فى أرفع المنازل وأسمى الطبقات . ولكن كيف ينظم ذلك الجهاد ؟ هذه مسألة المسائل ، فأما أن يترك هذا الجهاد كما هو الآن رهنا بمحاسن الصدف ، فكلما أفلح فيه كاتب من عصابة خاب الباقون ، أو نجح واحد من ألف هلك فى الطريق بعد التسعمائة تسعة وتسعون ، ويترك مثل بارنز يجود بروحه ولا يجود عليه إنسان بدرهم ، ومثل جونسون يزجى الوقت بين الثؤباء والمطواء فى حجرته ينطبق عليه قول القائل :

نلوم على تبلدها قلبا تلاقى من معيشتها جهادا
إذا ما النار لم تطعم وقودا فأوشك أن تمر بها رمادا
حتى إذا شرع يكتب ، راح وهو من دفعة العمل وعجلته مع البخس والبوكس
كأنه فى مضمار ، أو كأن يديه يدا عائم يكافح التيار . ويترك مثل روسو على حجر

الإعسار والاحتقار يتململ ويقذف بشرر الكلم اللذاع ، فيؤجج الثورات الفرنسية — هذا وأيم الله شر النظام وأسوؤه ، فأما النظام الأحسن فهيهات منه نحن وأنى لنا به الآن !

يبد أنه لا شك هناك فى أن ذلك النظام آت يحمله المستقبل البعيد فى جوفه جنينا فى رحم الزمان الآجل ، وهذا ما أجرؤ على أن أتنبأ به ، لأنه لا يكاد الناس يرون فضل الشىء حتى يأخذوا فى تسهيله وترجيته ، وتنظيمه وترقيته ، ثم لا يستريحون أو يروه قد بلغ منتهى ما يستطيعون أن يبلغوا به . وقد قلت : إنه ليس فى سلطات الكنيسة والحكومات بأنواعها سلطة تستحق أن تقارن بدولة الأقالم ، وقد قال الوزير « بيت » وقد سئل أن يكتب بشىء من المال للشاعر الأكبر بارنز : « الأدب سيد نفسه يدبر زمامها ويسوسها وليس فى حاجة إلى الناس » قال المستر « سوذى » : نعم هو سيد نفسه يسوسها ويدبر زمامها ، وهو أيضا سيدك ، يسوسك ويأخذ بخطام أنفك إذا أنت لم تلتفت إليه وتعرف له قدره ! » .

وما معظم الضرر بواقع على الكتاب ، فإنهم أفراد وجزء ضئيل جدا من الجسم الكلى ، وفى جهلهم أن يجاهدوا ويكابدوا حتى يظفروا ، أو يموتوا فيعدنوا ، ولكنه يهم المجتمع أن يضع شبهه ومصاحبه فى الذرى والغوارب ، وحيث ترى فتهدى ، أم يجعلوها تحت أقدامهم ويبددوا جوهرها الساطع شررا يستطير فى حيث لا مقتبس ولا متور ، ويعرضوا أنفسهم بذلك لما قد عساه يحدث من الحريق ؟ وقد حدث . والنور — هداكم الله — هو رأس المنافع وأصل الحياة وأول حاجات المجتمع وآخرها ، وأن دنيا يتقدمها النور لجديرة أن تظفر فى حربها مع الدهر وتكون للإنسان أحسن دنيا ، وعندى أن مرض الفوضى الكتابية هو أصل سائر الأمراض فداؤه تشفى المجتمع من كل داء به وعلة . وقد بدأ فى آفاق الأدب بفرنسا وبروسيا تباشير نظام تقابلها بالاستبشار والهتاف ، لأنها بشير بأن ما قد حدث فى هذين البلدين خليق أن يحدث فى غيرهما .

إن أهم ما سمعت عن الصين أمر فيه علينا لبس وإبهام ، ولكنه يحرك فىنا أعظم الشوق على لبسه وإشكاله ، وهو محاولتهم أن يختاروا ملوكهم من بين كتابهم وأدبائهم . وأرى أنه من الخطل والخطب أن يتكلف أحدنا فهم هذا الأمر فضلا عن

شرحه وبيانه ، وما أحسب إلا أن مثل هذه الأمور لن يكون إلا عديم النجاح ، غير أن فى مجرد محاولتها فضلا كبيرا | ويظهر أن فى جميع أنحاء الصين عناية شديدة بالبحث عن أولى الألباب فى كل خيل من النابتة . ولكل درجة من الطلبة مدرسة ، فمن أظهر براعة فى دنيا المدارس رفع إلى أعلى منها درجة ، وهكذا حتى يفضى إلى أشرفها منزلة . ومن ثم ينقل إلى مراكز الحكومة ومناصبها ، وربما قلد عملا أو ولاية ، وتلك هى الطائفة التى منها يختار الولاة والحكام مع الأمل والرجاء . ففهمهم - وليس فى غيرهم - ظهرت آيات الفضل وأمارات اللب والذكاء . نعم فليجرب هؤلاء وإن كانوا لما يزاولوا الحكم والإدارة وقد يعجزون عنها ويعيون بها . ولكن لهم على كل حال فهم وعقل - ذاك الذى لا يستطيع الحكم والإدارة إلا به . وليس العقل بألة كما جرت الحالة بتشبيهه ، ولكنه يد يمكنها أن تستعمل كل آلة . فليجرب هؤلاء الفتية ذوى الألباب فإنهم أحق الناس بالتجربة ، ولا أحسب أن هناك شيئا أسر لطلاب الإصلاح ذوى الإخلاص والغيرة من إسناد الرئاسة إلى ذوى العقل ، لأنهم فى الحقيقة ذوى العدل والبر والمروءة والرحمة . قلدهم أموركم تظفروا بكل شيء ، دعوا توليتهم تخسروا كل شيء |

ولعلكم ترون مثل هذه المسائل غريبا مما لا يجرى فى محاورات الناس ولا يلور فى مذكراتهم ، وليس العيب فى المسائل وإنما فى الخيل والعصر . إنما الواجب أن تطرح هذه المسائل على بساط البحث والمناقشة حتى تنضج ، فتخرج إلى حيز الفعل . ويسلينا بعد أنا أينما ألقينا البصر وجدنا دليلا بيننا وبرهانا ناطقا على أن دولة القديم قد زالت . وإن طول عمر العادة ليس فى هذا الزمن حجة على وجوب بقائها ، وأن الأشياء التى كانت قبل اليوم قد بليت وفقدت مزاياها ومعانيها ، وأن الألوفا المؤلفات من الأوربيين قد أصبحوا لا يطبقون الاستمرار على أسلوب المعيشة القديم . وإذا عادت الملايين من خلق الله وهم لا يستطيعون إحراز المطعم ، ويظل ثلث الناس لا يطبقون الحصول على أردأ أنواع البطاطس مدة ثلاثة أرباع العام ، فقد آن ولا شك للأمور أن تتغير وللأحوال أن تتبدل | هذا وحسبنا ذلك فى الكلام عن النظام المؤمل لتحسين حالة الكتاب .

وإن عدم ذلك النظام وإن كان من آفات كتابنا الثلاثة ، فلم يك بعد أشد من الآفات ! بل كان ثمة آفة هي أصل عدم النظام وأصل كل آفة أخرى ! وهى إلحاد القرن الثامن عشر وكفره . فأما خطب عدم النظام فقد كان على مضضه يمكن احتمالها ! وقد كان الكاتب البطل يطبق الصبر على وعوثة الطريق ووعورته ، وعلى وحدة السفر ووحشته ، ويثقب بعقله النافذ فى السدود المعترضة والعقبات القائمة ، لولا أن ذلك العقل قد قلل من حدة تأثير ما كان حوله من الكفر والإلحاد . نعم ، لقد كانت آفته العظمى وطامته الكبرى ما ساد فى تلك الأزمان من شلل الأرواح وموت النفوس ، ولم يعدم ذلك الوسط السئ والجو الفاسد أثره الخبيث فى قلوب أبطالنا الثلاثة ، وحسبى أن أقول عن القرن الثامن عشر إنه كان عصر إلحاد ، وقد نعته بكل حسيسة ، ووصفته بكل دنيئة وخبيثة ! والكفر - وقاكم الله - جملة المحن والبلايا ، وجعبة الداهيات والرزايا . وليس الإلحاد هو موت الأذهان فقط ، بل موت الأخلاق كذلك ، وفيه كافة أنواع الكذب وعدم الإخلاص وحمود الأرواح كما قلت . ومثل ذلك العصر أبعد العصور من فهم البطولة ومعرفة الأبطال ، وجو سام لهم ، والبطولة روح لا تتعش إلا بنسيم الإيمان والتقوى . وكيف وقد كان معنى البطولة قد محى من كل خاطر وبال ، وأمسى يراه كل إنسان حديث خرافة وضربا من المحال ! وأصبح قد سار به القارطان ، وبات فى خبر كان ، وطارت به العنقاء وتبدد فى رياح الكفر تبدد الهباء ، وذاب فى موج الجحود ذوب الجفاء ، أو ذوب السراب المرقوق فى أكناف القفرة المساء . وقام بدل معنى البطولة معانى الشك والاستخفاف والرسوم الميتة والاصطلاحات الجامدة ، وأصبح الناس فى عالم - لا رعاه الله من عالم - خلوا من الروعة والعجب والعظمة ، عالم خلا جوه من التقديس فباض فيه الشيطان وأفرخ .

وما كان أحبث الأفكار إذ ذاك وأحسها وأسفلها إذا قورنت بأفكار قدماء الوثنيين المتوحشين ، لا بأفكار الأتقياء دانتى وشكسبير وملتون . وكيف وقد كان الوثنيون يشبهون الحياة الإنسانية والطبيعية بشجرة جذورها فى عالم الموت وفروعها فى الجان ، وهى فينانة غيداء ، وحفة غناء ، كثيفة الورق ملتفة الأغصان ، غير محصية الفنون والألوان ، ممددة الظلال منفسحة الأفياء ، قد ضربت فى جميع الأرجاء

والأنحاء ، وغصت بها كافة الآفاق والأجواء . ففسى كفار المدنية الحديثة - أهل القرن الثامن عشر - هذا التشبيه وشبهوا الحياة والكون بمكينة تصل صليل الحديد ، وترن رنين النحاس . يا لله أى فرق بين الشجرة والمكينة ؟ قارنوا - أصلحك الله - بين هاتين . أما أنا فلست بقاتل قط إن العالم مكينة ! لست بقاتل إنها تدور بلولب وعجل وبما يقوله الاقتصاديون من العوامل والمصالح والموانع ، والموازين والمقاييس . ولكنى صائح بمثل فمى أن هنالك أسراراً خلاف رنين آلات المصانع ، وضجيج صراخ البرلمانات ، وأن العالم على كل حال ليس بمكينة . أقلنا ترون بعد فضل آراء الوثنيين المتوحشين على آراء أولئك الجهلة المتمدينين أصحاب المذهب « المكينى »^(١) ؟ ولا عجب فقد كان الوثنيون القدماء أمة مخلصه مؤمنة ، ولكن هؤلاء الكفرة الأشقياء لا إخلاص لهم ولا صدق ولا مرعوة ولا شعور ، وكان الحق عندهم هو ما أجمع الناس على استحسانه لا ينظرون إلى لب الشيء وحقيقته ، بل إلى أقوال الناس فيه ، فمقدارك من الفضل بعدد ما تحرز من أصوات المادحين . وكأنما غاب عنهم أن الإخلاص قد يكون فى هذه الدنيا وأنه لم يصبر بعد من المستحيلات . بل جهلوا معنى الإخلاص بالمرّة . وكم من ساقط كاذب كان يسائل الناس من صميم قلبه سؤال مندهش غير متصنع ، « ألا ترونى رجلاً مخلصاً ؟ » أما لو حسبت نفسك أيها اللئيم الدقيق رجلاً مخلصاً ، لشد ما أخطأت معنى الإخلاص . وجملة القول إنه كان عصر موت لا حياة ، اللهم إلا حياة كحياة المكينات حركة بلا روح ، وكان الرجل العامى حينذاك لا ينجيه من الغرق فى عباب ذلك الكفر إلا ركوبه خشبة صلبة من حطام المذهب القديم والدين القويم - ملة القرن السالف الذى عفا الدهر رسمه وأقام على طلله ذلك البناء الخبيث الذى كل طوبة فيه قلب كافر ونفس ملحد ، وهو بعد لا يسلم من دوافع تيار الكفر وغوالب لجه وغوامر موجه . وهو هالك لا محالة إلا أن يكون صارم العزم ماضى الجنان شديد الأيد . فإذا كان ذلك لم تك حياته بعد إلا حياة يحفها الموت ، ولم يستحق من الأسماء إلا لقب « نصف بطل » .

(١) نسبة إلى مكينة يقولها كارليل تهكماً بالقوم لأنهم كانوا يزعمون أن الكون مكينة .

وكل ما وصفت الآن هو ما نسميه الشك وهو عنوان هذه الآفات وأصلها . ولو أرسلنا عنان القلم فى ذلك المضممار لاغتيال شأوه ما ليس يخصصى من الساعات ، ولكن فى قليل الكلم غنية عن كثيره ، وقد يُجتزأ عن طول المقال بقصيره . وإن كان ذلك المسمى « الشك » هو الداء العقام ، وسم الحياة الذى إليه وُجّهت جيوش الهجاء ، وتلك كنانن القذف منذ بدء الخليقة . وحرب الشك واليقين هى الحرب التى لا تنتهى : ولقد تظلم أهل ذلك القرن الشك أن نحاسبهم حساب المجرم ، وإنما هى سنة الدهر وتصرفات الحلال واضمحلال المذاهب القديمة ، وبلى الآراء العتيقة ، والإعداد والتجهيز للمذاهب سيجىء بها المستقبل البعيد خيرا من القديم وأسمى ، فكيف نأخذ القوم بذلك وإنما هو قضاء محتوم ، وقدر محموم . وفى الرئاء لهم ورحمتهم مندوحة عن عدلهم وتأنيبهم لو نفقه . ولنعرف بعد أن إعدام الصور القديمة والأوضاع العتيقة ليس إعداما للحقائق الخالدة ، وإن الشك أو الإلحاد على شره ونكره ليس بجائمة وإنما هو فاتحة .

ولقد أنكرت فى بعض كلماتى مذهب بتنام — مذهب الماديين ، وما إنكارى له بطعن على مؤسسه وأتباعه ، كان مذهب الماديين هو الجحود المحض بوجود الله ، واليقين الصراح بأن الكون خال من كل معنى إلهى ، وليس هو إلا مادة جامدة تتحرك بدوافع غريزية فيه — أقول : إذا كان مذهب الماديين هو الكفر المحض فهو عندى خير من مذهب الشك ، بما أنه استقرار وثبات فى ذلك الموضع الذى يحوم حوله أهل شك فى حيرة وتردد ، ورأى أن الإقامة على شر الطرفين أشرف من الحيرة بين بين ، ولأن يرزق المريض الشفاء أو الموت ، خير له من أن يظل وهو لا حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى . نعم ورأى أن هذه المادية المكيئية^(١) هى اقتراب من المذهب الإيمانى الجديد ، بما أنها كانت اطراحا للتصنع والسفسطة ، وكانت كقول الإنسان لنفسه : « لا شك فى أن هذا الكون إنما هو مكيئية ميةة من الحديد ، وما إلهها إلا الجاذبية وإلا الجوع والشره وحب الذات . فدعنا ننظر كيف يمكننا استخراج أكرم نتائجها

(١) المادية أعنى مذهب الماديين ، على حد قولهم النصرانية أى مذهب النصارى ، والمكيئية نسبة إلى مكيئية وقد مر تفسيرها .

بحسن إدارة العجلات ودقة تحريك اللوالب ! « أفلا ترون بعد ذلك فى جرأة المادية على التمسك بما تعتقد ، معنى توفر القوة والرجولة والشجاعة، حتى ليمكنك أن تسميها نوعا من البطولة ، وإن كانت بعد بطولة قلعت عينها ! هى كما قلت الغاية القصوى لذلك الشك الذى أخذ بخناق القرن الثامن عشر - بلغها أصحابها بفضل الصراحة والصرامة والجرأة والشجاعة ، ويظهر لى أن جميع الكافرين والمؤمنين باللسان لا بالقلب ، سيصيرون يوما ما إلى المادية لو ساعدتهم جرأة وصدق نية . والمادية كانت بطولة عمياء ، وأنها أشبه النوع الإنسانى فى الماديات بجالوت فى طاحون بيت المقدس . يدور مفقوء العينين ، ثم لا يلبث أن ينشب يديه فى أعمدة الطاحون فينهار فوقه البناء خرابا ، ولكنه خراب يشفعه الخلاص .

ولكنى مع ذلك أقول - وأرجو أن أصادف قلوبا واعية - إن كل من لم يجد فى ذلك الكون إلا آلة جامدة فقد أضل سر الكون شر إضلال ، ولست أرى سقطة أشنع من أن يتجرد رأى الإنسان فى هذه الخليقة من كل معنى إلهى ، فإن ذلك كذب وباطل - كذب فى سويداء لبه وصميم كبده ، ومن كانت هذه عقيدته فأحرى به أن يخطئ الصواب فى كل شىء ، وأن لا يقع على سداد قط . فكل نتيجة يستنتجها أفسدتها عليه تلك الغلظة الجوهريّة ، فهى جديرة أن تعد فى نظرنا شر أضلولة غير مستثنى أضلولة السحر نفسها ، وكيف وقد كان السحر يحمل أهله على عبادة شيطان حى ، والمادية تحمل أهلها على عبادة شيطان حديدى ميت ؟ عجبا لها إذا جردت الكون من آلهة ، أفلا أقل من أن تترك فيه شيطانا ؟ تبا لها لقد عرت ذلك الوجود الرائع من كل آيات الشرف والجلال والروعة والقدس ، وتركته جثة بلا روح وهيكل بلا حياة . فأنى للإنسان بعد ذلك بمساعى الأبطال ، ومآثر ذوى الهمم والمروءات من الرجال ، وإنما الذى يستفيد من ذلك المذهب الكاذب هو أن ليس فى الحياة إلا حب الشهوات والملاذ ومخافة الهم والألم ، وإن الحقيقة القصوى فى حياة المرء هى الحرص المقوت على المدح والمال وسائر الماديات ، أو بالاختصار هى الكفر ، والكفر عقوبة نفسه .

أما الإيمان فهو عندى صنع العقل الراجح ونتيجة الذهن الصحيح ، وهو عملية خفية مبهمة لا توصف ، شأن كل عملية حية جوهريّة . ولم تعطّ العقل لتعارض به

ونسفسط ، ونجادل ونغلط ، ولكن لنرى به حقائق الأشياء فنفهم ونوقن ، ثم نجعل اليقين أساسا نبني عليه الفعال ، ومبدأ نستهل منه فواتح الأعمال . وليس الشك نفسه بجرمة ، وكيف وما كان قط للإنسان فى مسائل المذاهب والعقائد أن يقع على أول ما يصادف فيحتضنه ويعتقده ، ولا من العقل أن يركب الرجل رأسه فى الرأى وينخرط فى الأمر من غير تدبير ولا روية ، وإنما العاقل من بات يقسم رأيه ويشاور نفسه^(١) ولا يمضى الرأى حتى ينضج ويختمر .

لا كإمضاء جاهل عجرفى يركب الأمر قبل شد الخزام

فإذا فعل ذلك جاء رأيه مشحوذ الغرار محصد الجبل حصيف العقيدة ، جديرا أن يجلى ليل الخطوب والأتراح ، ويخلص بين الماء والراح ، ويكشف معالم الحق الصراح . والشك والبحث والتنقيب غريزية فى نفس كل عاقل ، وهى جولة العقل فى الأمر الذى يحاول أن يعرف ليعتقده ، وتنبت شجرة اليقين كما ينبت غصن الشجرة من مستتر الجذور ، ولكنه لما كان الواجب على المرء فى عادى الأمور أن يسر شكوكه حتى يؤول بها طول النظر والتقليب إما قبولا أو رفضا ، فما بالكم بأسمى الأمور وأعلاها التى يعجز عن صفة كنهها اللسان ؟ فأما أن يبرز المرء شكوكه ويحسب أن المجادلة والمناظرة هى أقصى مبلغ قوة العقل وأكرم مآثره ، فهذا مثل أن تقتلع الشجرة فتعكسها وتعرض على الأبصار منظر جذورها القبيح بدل ما كانوا يترقبونه من ناضر الورق ويانع الثمر وفينان الأفرع الخضراء ، فترىهم منظر الموت والشقاء موضع الحياة والنماء !

والشك - كما قلت - ليس فى العقل فقط بل هو فى النفس والأخلاق أيضا ، وهو مرض الروح كافة . وإنما يجى المرء باعتقاده شيئا من الأشياء لا بالمناظرة والمجادلة فى جملة أشياء . ولن ترى حالا أسوأ من أن يظل الإنسان وهو لا يؤمن إلا بالشئ الذى يزر عليه جيبه ، ويلتهمه بإحدى حواسه ويهضمه ! وهذه مسقطه ليس دونها وأبيكم مهبط ولا منحدر ، وإنما نسمى الأعصر التى يهوى بها الإنسان لهذا الدرك أمراض العصور وأخسها وأحقها بالحزن والبكاء ، وفى مثلها

(١) يقال : يشاور نفسه إذا جعل ينظر بأى رأيه يأمر ، وذلك إذا اتجه له رأيان لا يدرى على أيهما يعتمد .

نشل يمين الدهر وتقرح كبد الدنيا ويجمد نبض الحياة ! وفى مثلها تغيض عيون الخير ، وتطمس معالم البر ، وينقطع العمل الصادق الحر ويقوم بدله الخدق بالتقليد والمحاكاة ، وهو عنوان رق الأنفس وأسر الأذهان ، وعمه البصائر والقلوب . وهناك تنتهب أموال الدنيا وتهمل واجباتها وتستلب خيراتها ، لا تؤدى حقوقها ولا تصلح شئونها . وكيف وقد ذهب الأبطال ، وجاء كل كاذب دجال ؟ والحقيقة أنه لم يأت منذ العهد الأخير من دولة الرومان قرن هو أحفل بأهل الزور والدجل من ذلك القرن الثامن عشر . اذكروا - رعاكم الله - رجال ذلك القرن وانظروا ماذا كانوا يتصنعون من حمد الفضائل ، وذم الرذائل . وهل رأيتم عندهم إلا قولاً بلا فعل ، ومنطقاً بلا عمل ، شقشقة هادرة ، وهما فاترة ، وألسنة خالبة ، وقلوباً كاذبة ، وأعيناً تندى ، وأفتدة كالصخر أو أقسى ، ونفوساً وسنى ، وجعجعة ولا طحنا ؟ وكأنى بهم قد حسبوا أن الغش والنفاق والكذب المشهور بالجرأة والشجاعة يتصنع المرض ، ويدخل مجلس البرلمان ملفوف الأعضاء فى الخرق كأنه مكسر العظم بمجره ، ويشيع عن نفسه أنه فى أشد بُرجاء الداء ، وأنه لولا حقوق الشرف والمروءة وحرمة الأوطان ، لما خرج يتحامل قطيع الخطو مبهور الأنفاس . حتى إذا انقطعت به أشواط البيان فى ميادين المناظرة ، وطارت به أجنحة البلاغة فى آفاق المناقشة والمحاوره ، نسى ما قد تكلفه من التمارض فاستل ذراعه من لفاقته استلال الصارم الجزار من غمده ، وجعل يهزه يطوحه فعل الخطيب المصقع والمنطيق المفوة ! وكذلك ما انفك شاتام هذا منذ قرع أبواب السياسة إلى أن قرع عليه الحمام أبواب الحياة ، وهو يمزج بين الصدق والكذب والحق والباطل . نصفه للشرف ونصفه للخسة ، وشطره لله وشطره للشيطان ، ولعل حجته فى ذلك أن الدنيا لا تنال بإرضاء الناس ، والناس معظمهم بله مخاديع . فمن أراد الدنيا فليجعل الغش والخديعة ذريعته ، فكيف والحال هذه تؤدى حقوق العالم ؟ وماذا ينشأ عن ذلك المذهب العقيم من البؤس والشقاء ، والمحن والأرزاء ؟

وكأنى بك قد وقعت على أصل أدواء العالم حينما تسميه عالما كافرا — عالما
عديم الإخلاص — عالم كذب وباطل — عالما شيطانيا ! وهذا هو ما أراه منبع كل
آفة اجتماعية — منبع الثورات الفرنسية .

وأرى أنه لا بد من تغير هذه الحال ، ولست أتوقع للعالم خيرا ونفعا حتى
يحدث ذلك التغير ، وإن أملى الوحيد فى حسن المآل ، وعزائى عما أراه من شقاء
العيش وبؤس الحال ، هو أنى أرى ذلك التغير قد بدأ وأنه مستمر . وإنى قد أجد
من آن إلى آخر الرجل المؤمن الذى يعرف أن هذا العالم حق ، وما هو بأكذوبة
ولعبة ، وأنه هو نفسه حتى وليس بميت ولا مفلوج ، وأن العالم حتى يخفق فيه
روح الله ويجول فى أرجائه رونق الجمال والجلال ، وأنه كحالته فى أوائل الزمن
وبكرة الدهر ! وعندى أنه متى عرف أحد الناس ذلك عرفه الكثيرون ، بل عرفه
الجميع على مدى الأيام ، وكيف أنه جلى واضح لو كشف الغيبى عن قلبه الغطاء ،
وطرح عن إنسان عينه الأقداء ، وكأنه بذلكم الرجل المؤمن وهو ينظر من دولة
الكفر فى أعقاب نجم آفل ، وبقية ظل زائل ، ويستقبل من دولة الإيمان تابشير
صبح أغر ، ونفحات روض عاطر ، ولا يرى الرسوم القديمة على متانتها إلا
خيالات تهتم بالزوال ، وأشباحا تشد للرجل الرحال . وكأنى بذلك المؤمن
يخطب دولة الكفر المدبرة بقوله : « ما أنت بحق وإنما خيال زور ، فاذهبى وعليك
الغفاء ! » نعم ستذهب دولة الإلحاد بجواشيتها من ماديات وكفريات ، ورسوم
كاذبات ، وما ذلك القرن الثامن عشر بعد إلا فلتة من فلتات الدهر لا تجيء حتى
تنصرف ، وإنى لأتفاعل للعالم بإقبال السعد والنجاج ، والخير والفلاح ، ودولة
الإيمان يقوم عمودها ، ويخضر عودها ، ويضرب رواقها ، وترف أوراقها ، وعند
ذلك يروح العالم بقدر رايح ، وسهم راجح .

بل ما لنا وفوز العالم وربحه ؟ لشد ما لهج الناس بذكر العالم وبجأحه وخيئته ،
وإنما يجب على كل رجل أن يعرف أن له حياة تعنيه شئونها ، وتموده أعباؤها ،
مهما يكن من أمر الدنيا ، وسواء أفلح العالم أو أخفق ، وأن عمره إنما هو لمحمة
بين أبدين ، وما للإنسان بعد الموت إلى هذه الحياة من كرة ، فجدير بنا ألا نعيش
عيشة النوكى الأصفار من كل فضل ومكرمة ، ولكن عيشة النبلاء العامرى
النفوس بالحق والهدى . وما لنا والاهتمام بالدنيا وما فى نجاحها ربح لنا ولا فى

خبيثها خسارة ، وإنما هم العاقل أن يعنى بأمر نفسه ، وفى ذلك مندوحة له عن غيره ومشغلة . وأحق الناس بالالتفات إلى هذه النصيحة قوم أولعوا بالتطواف فى أنحاء الأرض قصد ترقية الأمم والشعوب ، وللأمم والشعوب إله أرحم بهم من كل مخلوق ، وأملاً بتعليمهم وترقيتهم . وفكرة الجولان هذا من نتائج تصنع القرن السالف وكذبه ، فليتجه بها أهل هذا القرن ، وليكن لهم فى إصلاح شئون أنفسهم شغل عن القيام بمصالح الغير .

وفى تلك الأحوال وهاتيك الأزمان ، كان يعيش كتابنا الثلاثة جونسون وبارنز وروسو - فى أزمان أصفرت الحياة فى أثنائها من كل أثر للحق والصدق . فأما الحقائق القديمة فكانت قد هدر ركنها ، وخرس لسانها ، وأما الجدية فكانت أجنة فى بطن المستقبل لا جرس لها ولا نيس ، ولم يك لاح فى ظلمة الكفر المطلخمة فجر اليقين وصديق الإيمان ، ولم يك فى نبع قفار ذلك الكذب والباطل ينبوع حق . كلا ولا الثورة الفرنسية نفسها التى هى على علاتها نوع من الحق ، وإن كان بعد حقاً ملتفعا برداء من نار جهنم ! وما أبعد ما بين سيرة لوثر ذات الغاية المحدودة ، وبين سيرة جونسون المحفوفة بالمزاعم والفروض التى عادت لا تقبل ولا تفهم ! لقد وجد محمد أباطيل زمنه مصنوعة من الخشب قابلة للحرق فأحرقها وأخلى من عقباتها سبيله ، ولكن أباطيل زمن جونسون لم كانت مما يحرق بالنار فبقيت فى طريقه . وما برح كل قوى من الرجال يجد الحياة ملأى من الأعمال - أعنى من الصعائب والآلام - بما يستفرغ من جهده ، فأما أن يظفر المرء مبین الظفر فى عصر كعصر جونسون فذلك أصعب الصعائب - فلم يك مصاب جونسون قاصراً على العوائق وفساد النظام والفقير الذى حبس رزقه عند قرشين فى اليوم ، بل لقد كان جونسون قد سلب نور روحه ، فلا معالم تهديه فى الأرض ، وأبرح من ذلك أن أصفرت سماؤه من كل نجم ! فلا غرو أنه لم ينل النصر المبين من هؤلاء الثلاثة أحد ، وحسبهم أن جاهلوا فأبلوا ، ولذلك أقول عرجوا بنا على معاهد أولئك الأبطال ، لا كأبطال فازوا وظفروا بل كأبطال جاهلوا فصرعوا وقد مهدوا لنا السبيل - ثلاثة جبايرة قاتلوا فى حرب الكفر والإيمان فنسفوا من جبال الباطل ما بات أثراً جسيماً على قبورهم ، فقفوا بنا على تلك الأحداث فإن فيها عبرة وتذكرة .

لقد سبق لى الكتابة عن هؤلاء الأبطال قصدا أو عرضا ، ولا أراكم إلا عالمين من سيرهم ما لا حاجة بنا إلى ذكره ، وإنما نتكلم عنهم الآن كأنبيا ذلك العصر العجيب . وإن فى الكلام عن حالتهم وحالة عصرهم من تلك الوجهة - أى من وجهة أنهم أنبياءه - مجال لجملة آراء . وإنى أراهم الثلاثة رجالا ذوى صدق يحاولون فى إخلاص أن يبلغوا غاية الصدق ، ويثبتون أقدامهم فى أرسى قواعد الحق ، فكانت طبائعهم من أكبر البواعث على مليهم إلى سنة ، إذ كان لهم الحق من عظمة النفس ما لم يستطيعوا معه أن يقيموا على الباطل ، وقد جعلت سحب الأضاليل والأكاذيب تنهال تحت أقدامهم فلم يكن لهم إلا على أديم الأرض معتمد ، وإلا فلماستقر لهم ولا مطمأن . وقصارى القول إنهم كانوا أبناء طبيعة فى عصر كلفة وتصنع - كانوا رجالا مخلصين فى حين لا إخلاص ولا صدق ، وفدوا بنفوسهم الشريفة على هذا العالم وقد طال عهده بالشرف والمروءة .

فأما جونسون فما زلت أراه رجلا من اعظام رجالنا - قوى النفس متين الخلق ، شريف الطبع مفعم الفؤاد من كوامن الكرم ، بما عجز عن استثارته جمود العصر الذى عاش فيه . ولو صادف من إيمان جيله جوا أكثر نورا وحرارة لانفجر فؤاده بأعذب ينابيع الفضل والكرم ، ولجاز أن يصبح ملكا جليلا أو إماما كبيرا أو شاعرا فحلا . وعندى بعد وأنه ليس من العقل أن يشكو المرء عصره وقومه ودهره ، ولا فائدة فى ذلك ولا ثمرة . وهب عصره عصر خبث فما باله لا يطيبه ، وجيله ردىء فما له لا يحسنه ؟ وكان جونسون فى شبابه معسرا رث الحال عاثر الأمل منفردا . ولا تحسبوا أن سعة الرزق وفسحة النعمة كانت تجلّى عن عيشه سحب الهم لو أنها اتفقت له ، وذلك أنه كان مصابا بالسوداء والألم الجثمانى والروحانى الناشئ من محاربة نفسه لجيوش الضلال والكفر ، فكان كما حدث اليونان فى خرافاتهم عن هرقل إله القوة - إذ قالوا إنه كان يلبس قميصا من نار فهو منه فى عذاب أليم وبلاء مقيم ، ثم لا سبيل إلى نزعته ، وكيف وإنما هو بشرته وجلدته ا وعلى هذه الحال كان لا بد أن يعيش يائسا من الخلاص والنجاة .

يا ابن بوران لا مفر من الله - ولا من قضائه المحتوم

وكأنى به يمشى بين القوم قد قصر خطوه المرض ، وتركته الوحشة غريبا فى الأقرين ، يحمل بين جنبيه فؤادا ضخما شرها إلى المكارم منهوما بالعلی ، وروحا غاصا بمخيلط مشوش من مبهم الأفكار والخواطر يلتهم كل ما يصادف من فائدة دينية . وربما قنع من الفوائد الدينية بما قد يعثر عليه من أقوال الكتاب والشعراء .

وحقا لقد كان سيد أهل زمانه ونابعة قومه الذى كان يجزبه على تلك العظمة والنبوة درهمين فى كل يوم . ولكن ماذا يؤثر ذلك فى نفس جبارة لا تهزم ، وعزم ماض لا يكل ، وفؤاد صارم لا يفل ، ثم لا تنسوا تلك الحكاية المأثورة عنه – حكاية الحذاء – وذلك أن جونسون كان قد بلى حذاءه وبصر به بعض الكرماء فى نعليه الباليين فرحمه ، ثم عمد إلى حذاء جديد فاشتراه له ووضع على باب داره فى خفية . حتى إذا جاء جونسون ورفع النعلين يحدد إليهما النظر من عينين كيليتين ، أخذته النخوة وشمخ بأنفه الكبر فرماه من النافذة ، ومعاذ الله أن يتدلى البطل العظيم إلى مهابط الشحاذة ويسف إلى محاط السؤال ، وقد يحتمل القر والتلج ولذع الجليد للإخصين ، فأما الشحاذة فلا . فانظروا هداكم الله أى قوة كانت فى ذلك الرجل المعوز البائس ، وأى إباء وعزة ، وأى توكل على الله واعتماد على النفس ! إنى أرى فى جوف هذا الرجل عالما من القوة والخشونة ، والبؤس والفاقة ، ولكنه بؤس أبى عفيف ، وفاقة عزوف أنوف ، وهذه الحادثة عنوان على حياة الرجل جميعها . نعم لقد كان رجلا حرا جديدا للديباجة وليس بأخى باطل خلق الأديم ، ولا ذليلا ولا شحاذا ، وأولى بكل ذى مروءة أن يقوم على ما وهبه الله ولو كان الوحل والترب ، لا على عطايا الغير ولو كانت الفضة والذهب !

ومع ما نرى لجونسون من وعورة الإباء ، ومرارة الكبرياء ، وشدة الأنفة ، أكان قط رجل أرق حشا منه ، وأسلس انقيادا نحو الأمر الشريف والمعنى المقدس ؟ وقدما كانت النفوس الكبيرة منجذبات تلقاء ما هو أشرف منها وأسنى فؤادا ، نحو كل شىء . أنبل منها وأسمى ، وإنما صغار النفوس ودقاقها هى التى لا تفعل ذلك . وجونسون فى ذلك خير مثال لما ذكرت قبل من أن آية المخلص أنه حسن الطاعة ، وإنك لا ترى الخضوع والخشوع لمعانى البطولة إلا فى عصر كله أبطال . وقد قلت إن جوهر الفضل الكرم ليس فى أنه جديد مبتدع . فلقد

كان جونسون فاضلا وكرهما مع إقامته على قديم الآراء ، ووجد في ذلك القديم حاجته وبغيته فعاش به عيشة شريف حر ، وما وجد بطل وشأنه في ذلك غريب ، لأنه مع إقامته على تلك الرسوم القديمة الميتة لم يكن من أهل الأكاذيب والظواهر ، وإنما أتحا حقائق وأصول ، وذلك أن الرسوم القديمة التي أقام عليها كانت تحمل في أجوافها عنصرا من الحق . وعجيب والله من هذا الرجل إبصاره أسرار الكون المقدسة ، وحقيقة الحياة الكبرى ، في ذلك العصر الورقي^(١) المحلل الجذب المشحون بالكلفة والغش والتصنع ، ولا نعلم كيف وفق ما بين مذهبه ومذهب ذلك العصر ، بل كيف اطردت له عيشة فيه ؟ وحقا إنه لأمر جدير بالتأمل المشفوع بالاحترام والرحمة والإجلال . والله أشهد أن من أعجب الأمكنة عندي وأقدسها تلك الكنيسة - كنيسة سانت كلمنت - التي كان جونسون يعبد الله بها في زمن فولتير ، في زمن الكفر !

وإنما عد جونسون نبيا لأنه كان ينطق عن ضمير الطبيعة ، وإن كان بالأسلوب الاعتيادي المتصنع . أو ليس في كل أسلوب شيء من التصنع ؟ وما كل شيء متصنع بأكذوية ، بل كل شيء متصنع كان في مبدأ أمره حقا . وما نسميه بالرسوم المتصنعة والاعتبارات الباطلة لم تك في أوائل أمرها بمنكرات ، ولكنها كانت صالحة ضرورية . وما الرسوم والاعتبارات إلا طرق وأساليب وعوائد توجد حيث يوجد الإنسان ، وإنما تتكون الرسوم كما تتكون السبل ، وتنهج مفضية إلى غاية شريفة يؤمها الجمل العديد من أختيار الناس . وأصلها أن رجلا على الهمة شديد الإخلاص يجد السبيل إلى فعلة من الفعال - قل مثلا بث شكره لله ، أو تأدية السلام لرجل من الناس . أقول مثل هذا العمل أو ذاك على ما ترون من صغره هو في الحقيقة جسيم ، وإنما صغرت في أنظاركم العادة ، وما كان ليوجد في هذا العالم لو لم يقدر له الله مبدعا ومبتكرا هو أول من نطق به وأوجد . فهو لذلك بطل وشاعر ، بما أنه قد أعرب عن معنى شريف ما زال يضطرب بفؤاده وبأفئدة الآلاف المؤلفة من خلق الله ، فهذه طريقته في التعبير عن ذلك المعنى - هذه آثار خطاه - هذه مبادئ المنهج ، ثم يجيء رجل آخر فيترسم آثار الأول

(١) نسبة إلى الورق أعني أن موضوعات الكتاب كانت كلها مادية ، فهي مثل الورق التي تكتب عليه .

وتلك خطوة أسهل ، يترسم آثار الأول مع إصلاح وتصحيح وتحسين وتنقيح . وكلما زاد ركّاب الطريق اتسعت أقطاره وانفسحت نواحيه ، حتى يعول منهجا واضحا وسيلا مضروبا . يمتطيه كل غاد ورائح . وما دام لذلك الطريق غاية مقصودة ، ونهاية محمودة ، فهو مألوف للناس مرضى لديهم ، حتى إذا ضاعت الغاية هجر الطريق . فالرسوم — رعاكم الله — تكون فى أوائل أمرها مملوءة بالمعانى الجليلة ، ولكم أن تسموها جلودا وأجساما تسكنها حقائق حرة صحيحة ، ولولا ذلك لما وجدت تلك الرسوم . وقد قلنا عن الأصنام نفسها إنها لا تكون باطلة حتى تتورها الشبهة فى نظر عابدها ويضعف إيمانه بها ، وما أحسب أن كثرة ما تعودناه من ذم الرسوم منسبنا قيمة الرسوم الصادقة وفضلها ، وإنها كانت وسوف تكون ألزم ما نحتاجه فى سكنى الدار الدنيا من الفرش والأثاث .

واذكروا أيضا كيف كان ذلك البطل يتحدث أيام صغره بإخلاصه إذ لم يكن يشك فى أنه من أكثر الناس إخلاصا ، ومن أكفهم للقيام بأى جليل من العمل . ولقد كان فتى شديد الجهد والاجتهاد يستنزل الرزق من شاهر ويستدر به صخرة صماء ، ولو طلبه من غير طريق الحق لأغدق عليه ودر ، ولكنه رجل حق لا يقيم إلا عليه ولا مضطرب له من دونه . أما ترون فى ذلك لزوما لمنهاج الحق من غير افتخار ولا إعلان ، لا كمن خط على جبينه بالمداد كلمة « حق » يظل الناس ولا شأن لهم إلا التحدث به وإطراؤه ، وكذلك ما برح الفضل زينة من لا يتيه به ويعجب .

كان جونسون نبي قومه وكان كلامه لهم إنجيلا ، شأن أمثاله من الأبطال وأضرابه . وكان أنفس ما قال لهم يدور حول موضوع الحزم ، وما أعظم ذلك الموضوع وأجله فى هذه الدنيا التى قلت فيها معلومات الإنسان وكثرت واجباته . وكان فحوى ما علمه القوم هو : « قبيح بكم أيها الناس أن تغمسوا أنفسكم فى غمار الشك وأعماق الفكر فى عالم قصرت فيه المدارك وحسرت البصائر ، وثقلت أعباء الفروض وموازين الحقوق . إنكم إن تفعلوا ذلك تلقوا شقوة وبؤسا ، وتكونوا كالذى تحبظه الشيطان ، وأنى يكون للملحد الجحود عقل يعمل به ويعيش ؟ » . هذا هو إنجيل جونسون الذى لقنه الناس وعلمه ، وشفعه بإنجيله الآخر الذى فحواه : « خلصوا عقولكم من شوائب الرياء ودوسوا على الثلج

والجليد فى نعالكم البالية لا فى أحدىة الغير ، ذلكم خير لكم» (كما كان يقول محمد^(١))وعندى أن هذا إنجيل حكيم - أحكم ما تيسر فى هذه الأوقات .

أما كتابات جونسون فهى وإن نفقت سوقها قديما فقد أصبحت بين أهل هذه العصور بضاعة كاسدة ، ولا أنكر أن كثيرا من آراء جونسون قد أصبح اليوم قليل القيمة ، ولكن أسلوب تفكيره وعيشتة سيبقى على القيمة جديد الرونق أبد الدهر ، وإنى لأرى فى كتب جونسون من أبين آيات الفضل وأرجح براهين الحكمة والعقل مالا يدفع ولا يقل ، وما هو جدير أن يرحب به على علاقته مهما كانت ، لأنه كلام حر صريح أريدت به أغراض سامية وأمور جليلة . أما أسلوبه ففيه جفاء وصلابة - خير ما وفق إليه إذ ذاك - أسلوب ضخم البناء يابس المفصل ، كأنما يسير الهوينا فى أرجح رزانة ووقار قد أصبح اليوم غير مألوف ولا مستظرف ، وربما سمعت له طنيننا وجلجلة لا يوازيهما ما ضمن من المعنى ، ولكن هذه كلها مغتفرة فى جانب ما أودع كلام الرجل من الحكم والآيات . وإنما العبرة بالمعاني دون الألفاظ ، والأرواح دون الأبدان ، وكم من أسلوب حلو مونتو خلو من المعنى ، كالقشرة العجيبة النقش لا لب فيها ، والصدفة المصقولة ولا ذرة . وما كانت أرباب تلك الأساليب الكاذبة إلا جناة مجرمين ، خليق بكل ذى دين ومروعة ألا يواقع خطيئتهم ويركب سننهم ، وجدير بكل قارئ أن يتحامى كتبهم ويجتنب أقوالهم : ولو أن جونسون لم يترك لنا إلا معجمه (قاموسه) لكان حسينا دليلا على رجاحة عقله وحدة ذكائه . ومن اطلع على وضوح تعريفاته وحدوده ومثانة مبانيه ، وصحة معانيه وحسن مذهبه كان خليقا أن يعده أحسن المعاجم جميعها . وإنى لأنظر إليه فأراه فى جمال تنسيقه وفخامة صنعته ، كالقصر المشيد متشاكل الأطراف متشابه الجوانب ، يطرد فيه روح النظام ويجول فى حجرتيه رونق الإتيقان والصناعة - ولا تفوتنا كلمة عن صاحب جونسون وتابعه اللورد بوزويل - ذلك الذى جاوز الحد فى إجلاله وتقديسه لجونسون . وقد بالغ الناس فى تنفيذة على ذلك وغلوا فى احتقاره وإصغاره ، ورغمما من أن لهم بعض الحق فى ذلك فإنهم بعد جائرون وظالمون . وعندى أن

(١) يشير إلى الآية القرآنية ﴿ ذلكم خير لكم لو كنتم تعلمون ﴾ .

إجلال بوزويل لجونسون ما زال من أجل الآثار ، وأعجب الأخبار ، وماذا أعجب من منظر اجتماع دينك الرجلين – اللورد الاسكوتلاندى الأبله المغرور يدنو حانى الرأس خاشع البصر إجلالا وهيبة نحو الأستاذ الجسيم فى أطماره الرثة التربة ، وغرفته الحقيرة الخاوية . هذا والله صريح الإجلال لنفس كبيرة وروح شريف ، وهذه عبادة الأبطال فى زمن أقفر فيه العالم من الأبطال والعبادة . بل كيف أقفر منهما وقد بلغ أكمل صورة فى هذين الرجلين ؟

ولعل الوجود ما خلا طرفة عين من الأبطال وعبادة الأبطال ، ولا جناح علينا أن ننكر ما قاله القائد الفرنسوى « دى كوندى » من أن الألفة تذهب الإجلال ، حتى أن البطل الكبير لا يكون بطلا فى عين خدام مرقده ، وأن نرى أن البطولة أشرق من أن تلمس الألفة شمسها . فإذا وجد الخادم الذى لا يرى عظمة سيده ، فالذنب عليه فى ذلك لا على السيد العظيم ، ولعل الخادم حسب أن البطولة هى حلة موشاة وتاج وإكليل ، وأبواق تسجع ؛ وأذبال ترفع . وإذا كانت الحقيقة كذلك فقد كان بالقائد الفرنسوى أن يجعل كلمته هكذا : « لا ملك يكون سلطانا فاخر المظهر فى عين خدام مرقده » ولو عمد إنسان إلى الملك المهيب لوزر الرابع عشر فنزع ثيابه وتركه عريانا ، إذن لرأيت شخصا حقيرا لا موضع فيه لإجلال خادمه . والخادم الذى يحمل فى جوفه روح خدام أى روحا وضيعه ليس خليقا أن يفهم بطولة البطل ! وإنما يفهم البطل من خالط نفسه جوهر البطولة .

أفلا ترون بعد أن إجلال بوزويل لجونسون لم يعد موضعه ، وأنه ما كان ليجد فى بريطانيا نفسا أحق بمجنو الهامة وثنى الركبة من تلك النفس الكبيرة . وهل كان جونسون إلا رجلا عظيما أركب من عيشته ظهر صعبة شمس ، فراض جهده من صعوبتها وذل من شماسها ، وخلق فى مضطرب فوضى الأقلام ومختلط فوضى الأديان والسياسات ، فمهد لنفسه منهجا واضحا وسط تلك العناصر المتصادمة ، واستطاع على رقة حاله ووهن جسده وغبرته وشعته ، أن يستخدم تلك القوى المتضاربة المتلاطمة بما كان فيه نفعه وفائدته ، وذلك بهدى الله وبكوكب إرشاد لاح له فى سماء عالم الأسرار فوكل به عينا كلوعا ، وعقد به

لحظا علوقا ، وجعله قبلة سفينته فى بحر الحياة العجاج ، صافحا عن كل مغرية
ومغوية ، ومال عن حزب إبليس ولم يرفع على قلعة الكذب لواءه ..

* * *

أما روسو فلم يبلغ فى البطولة الدرجة العليا ، وليس بمصيب من إطرائى قسط
جونسون ولا نصيب بارنز ، وما هو عندى بالرجل القوى وإنما رجل مريض
النفس سريع الانفعال كثير الثوبات العصبية ، ولم يكن أوتى فضيلة الصمت —
وأى فضيلة وأيكم ومزية قصر عن غايتها معظم الفرنسيين بل معظم أهل هذا
العصر ، والرجل القوى هو فى مذهبي من كتم مصيبته وأخفى عن الناس دخان
نيران أحشائه ، وقد كان يعوز روسو الجلد والصبر على الشدائد ، وهما أول
شروط البطولة . وإنه لمن الخطأ أن يسمى الناس سرعة الهياج قوة ! والرجل
المريض الأعصاب ليس جديرا أن يسمى قويا وإن عجز ستة رجال عن إمساكه
حين تتور به النوبة الشديدة ، وإنما القوى من استقل بالحمل الفادح ثابت الوطأة
قائم الصلب . وخلق بنا فى هذه الأوقات الكثيرة الصخب العالية الصراخ ألا
نزال نذكر ذلك ، والرجل الذى يعيبه أن يسكت حتى يحين وقت الكلام
والعمل ، هو رجل عائر الرأى جائر عن القصد .

وأرى فى وجه روسو عنوانا على خلقه .. حاجبين مشرفين وعينين غائرتين
تجول فيهما حيرة وقلق ، ويضطرب فيها نزاع ولهف ، ووجها حافلا بآيات
الشقاء الوضع ومعنى السوقية والحطة — عيوب لا يعوض منها فى ذلك الوجه إلا
آية الجد الشديد والحدة الصارمة . وقصارى القول إنه وجه رجل متعصب وبطل
مشوه ، وإنما نذكره هنا لأن فيه — على علاته وهى كثيرة — أول صفحات
البطولة : الإخلاص . ولست نخطئا إن قلت إنه لم يك قط فى الأبطال من هو
أشد إخلاصا منه ، حتى لقد كان له من شدة الإخلاص ما لا يقوم له طبعه الحاد
الضعيف لولا هذا الإخلاص — طبعه الذى بلغ به أخيرا من المناقضات المنكرة ما
يوشك أن يكون جنونا . بل لقد أصابه بالفعل فى آخر أمره صنف من الجنون ،
وذلك أن أفكاره ركبته كما تركب الشياطين الإنس ، وساقته أعنف السوق إلى
كل قحة ومهواة . وكانت منشأ عيوب روسو ومصدر شقائه ، هو ما يعبر عنه
بهذه اللفظة المفردة « الأثرة » حب الذات ، وهو منشأ كل عيب ومصدر كل

شقوة . ولم يُرضِ روسو نفسه على قذع النفس . طلعة إن لم يزعمها الإنسان نزعته به إلى شر غاية ، ولم يشحذ عزمته لقهر جيوش الأهواء والشهوات ، وكان قد ملكه جوع خبيث للشهرة وغير الشهرة . وأخشى أنه كان رجلا كثير الغرور والزهو ، به غلة إلى مدح الناس . وتذكرون قصته مع السيدة « جنليز » وذلك أنها سارت به إلى دار التمثيل بعد أن اشترط عليها أن يخفى نفسه عن أعين شهود التمثيل ويجلس بحيث لا يراه إنسان ، قائلا : « أنا لا أود أن يرانى الناس هناك ولو أن لى الدنيا بما فيها » . ولكنه اتفق رغما من ذلك أن أرخصى الستر ورأى القوم روسو ولكنهم لم يحفلوا به كثيرا . فأظهر أشد الغضب وقضى ليلة أسفا مكتئبا ، ولم يفه إلا بحر الكلام ومضيق القول . ولم يزل من عقيدة السيدة أن غضب روسو لم يكن لرؤية القوم إياه وإنما لقلّة احتفالهم به حينما رأوه . وأسفاه على ذلكم البطل ! لقد خالط دمه سم الأنانية ، وتقسم فؤاده الريبة والوحشة والتبرم بالناس والاكتاب والإطراق والهلم ، حتى أصبح لا يطيق عشرة إنسان . وكان رجل من سادة الريف يتردد إليه ويجالسه فرحا به مسرورا بحديثه ، مبديا له أصدق آيات الوداد والولاء ، فجاءه ذات يوم فوجده فى أسوأ حال من الغم والاكتاب بلا سبب ظاهر . وبينما الرجل فى حيرة من ذلك المنظر العجيب صاح به روسو وعيناه تلتهبان غضبا : « سيدى لا يدر بخلدك أنك تستطيع أن تموه على سبب زيارتك هذه فإنى أعلم به منك . لقد جئت الآن لتفاجئنى وسط مصائبى وآلامى ، وتنظر أى عيش نكد أكابد ؟ وأى حال شديدة أقاسى ؟ وكيف أتحرق وأتوجع ؟ وماذا أذوق وأتجرع ؟ فليكن ذلك يا سيدى ، وهاك مرجلى على النار فانظر بها عنوان الفاقة ، واستمع من أزيها قصة البؤس . انظر سيدى فى تلك القدر ، هل ترى بها إلا رطلا من اللحم وكسراة وثلاث بصلات ؟ وأنت بعد ذلك فى حل أن تقول ذلك لكل من لقيت » فمثل هذا الرجل قد جاوز مصابه كل مصاب ، وعدا فى الشذوذ كل مقدار ، وأصبحت أعماله تلك نوادير حديث الناس وفكاهات سمرهم يلهون بها ويضحكون منها ، وما هى بلهو له ولا ضحك . وكذلك رجفات المصارع المتخبط فى دماه واقته سكرة الموت ، هى مصيبة له وعذاب ، وهى فرحة الجمع المشاهد ولذته .

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربا فالهليلير يرقص مذبوحا من الألم

وبعد كل ذلك فلا يسعنا إلا القول بأن روسو هذا ، قد عمد نحو الحقيقة في عصور الباطل بتلك الكتب التي كتبها - العقد الإجتماعي وإشادته بذكر الطبيعة والحياة الهمجية الطبيعية ، وكان يؤدي بذلك لقومه رسالة نبى حسب طاقته و طاقة الوقت ! ومن العجب أنه كان فى فؤاد روسو هذا وسط هذه العورات والخصائس ، والحمق الذى كاد يكون جنونا ، جذوة من النور الإلهى . وما ذلك إلا أن الله قد أثار بعد تقادم عهد من بين ذلك الكفر والجنود والفسوق ، شعورا قويا فى فؤاد ذلك الرجل يوحى إليه أن هذه الحياة حق - وأنها ليست بفكرية ولا نظرية من النظريات ، وإنما حقيقة عظيمة هائلة . بذلك أوحى إليه الطبيعة وأمرته أن يصدع فصده . فإذا لم يأت قوله محكما بليغا فإنه جهد المجتهد . إن خطاياهم وشواذه وسرقتهم الأقمشة ، وشروده فى الآفاق وبؤسه وشقوته كل هذه آيات الحيرة والدهشة والترنح التى تبهر رجلا حمل من الأمر ما لا طاقة له به ، وترك فى مجهل طامس الأعلام لا يعرف كيف يهتدى فيه .

أما مكانه فى الكتابة فمقدور فوق قدره . وعندى أن كتاباته كعقلة مريضة وليست من النوع الذى أسميه صالحا ، وإنما يمتاز روسو فى كتاباته بتغلب الحيوانية والمادية ، وتلك هى التى تعينه على تصوير صورته المنقلة بالزخرف الجذاب . ولكنها صور .. خلاف كرائم الصور الشعرية مما أبدعه عقل شكسبير أو (جيتا) كلا ! ولا كتصويرات (والتر سكوت) ، وكل من نظر فى بدائع هؤلاء ففهم ، عرف الفرق بينهما وبين مصنوعات روسو ومن رمى على منواله ؛ عرف الفرق بين الجمال الحر والكاذب ، وظل جديرا أن يفرق بين هذا وذاك ما عاش ، فإنه فرق كالذى بين نور الشمس ونور المراسح الصناعى .

لقد تبينا فى جونسون ماذا يستطيع البطل أن يقدم إلى العالم من الخير ، رغما من كل ما يحفه من المكارم والآفات . أما فى روسو فلتبين أى شر وضرر وبلاء قد تصحب ما يهديه البطل من النفع والخير . والحقيقة أنا لو ننظر إلى موقع روسو من التاريخ ، لرأينا مشهدا جلالا ومنظرا هائلا . ولشد ما أساء العالم إلى نفسه بإساءته إلى ذلك البطل . وماذا أفادهم أن شروده وتركوه يأوى من الفاقة إلى أسطح المنازل يحدق به من همومه وأحزانه شر صحابة ، ويطيف به من العوز والكربة أنحس خليط ، شريدا طريدا يلجأ من غار إلى كهف كأنه الريح

الهُوجاء حيرى مولهه (حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد) بلى ماذا أفادهم أنهم
ألحوا عليه بالضر والأذى ، وهاجوه وأوغروه حتى تميز من الغيظ وجن جنونه ،
وحتى جعل يعتقد أن العالم شر والمدنية سوءة وجريمة ، وأن الدنيا أكبر أعدائه ،
وقانونها الظلم وناموسها الجور وأساسها اللؤم ، وكان أولى بالعالم أن لا يعادى
مثل هذا الرجل ويستنزل عقابه ونقمته ، فيصبح معه كما قيل :

حداك إلى الحين حتى استثرتنى عليك وإنى فى عرينى لمخدر
لقد قدر العالم على إلقاء ذلك البطل إلى الأسطحة ، وعلى اتخاذه أضحوكة
يسخرون منه كما يسخر بالبله والمجانين ، وعلى إجاعته وتركه يتضور من
السغب كالوحش المسجون . فهلا قدر العالم على منعه من إضرار الثورة وإشعال
الأرض نارا تلتظى . ولقد وجدت الثورة الفرنسية إنجيلها فى كتابات روسو ،
وقد أحدثت آراؤه الشبيهة بالجنون فى آفات المدينة وتفضيله عيشة المتوحشين
على عيش المتمديين ، جنونا فاض فى أنحاء فرنسا وغمرها ، ولنا بعد أن نسأل
ماذا عسى العالم وملوك العالم أن يبلغوا من ذلك الرجل وماذا يصنعون به ؟ هذا
سؤال نعيى ، ويعيى العالم ، تعيى ملوك الأرض بجوابه ، فأما ما يستطيع روسو
أن يصنع بالعالم وملوكه ، فذلك يا للأسف واضح بين ، يضرب أعناقهم .

* * *

كان من أعجب العجائب أن ظهر فى القرن الثامن عشر - قرن الكفر
والضعف . بين رجاله الذين كلهم تكلف وتصنع كأنهم تمائيل الخشب وعرائس
الورق ، بطل كبير فى زى فلاح حقير يحمل الفأس ويسحب المحراث ، ألا
وهو روبرت بارنز الاسكوتلاندى ، الذى جاء فى ذلك العصر القفر كالينبوع
الشبم الفرات وسط اليباس الملس ، أو كالفثقة الزرقاء فى الغيم المتلبد ، أو
كمنظر السماء وزينتها خلال سقف القصر المزخترف ، إذ كان القوم لا
يعرفون من سماء الله ونجومها إلا صورها المنقوشة بسقف ذلك القصر ،
أو ما يمثلونها به من الأشكال النارية^(١) . فينما هم فى

(١) التى يسمونها بالعامية « الصواريخ » .

وسط تلك الصور والأكاذيب ، انفرج لهم سقف المكان عن منظر السماء والكواكب فدهشوا ، أو تملكهم حيرة ولم يدروا ماذا يفهمون من ذلك المشهد وماذا يقولون فيه . وبعد أن طالبت بهم الحيرة أجمع رأيهم على أن هذه السماء ونجومها الباهرة ما هى إلا من قبيل تلك الصور والأشكال التى اعتادوا رؤيتها ، جهلا منهم وضلة وعماية . وماذا ترجو من أناس ختم الله على قلوبهم فهم لا يبصرون ، وضرب على آذانهم فهم لا يسمعون ؟ فوأسفاه ! لبئسما تلقى به القوم هدية الله إليهم — ذلك البطل الجليل ، وبئس منزلة بينهم وجواره فيهم ! ولا أعلم رجلا لقي من الغين والوكس ، والتعس والنكس ، ما لقي روبرت بارنز ، فيالله أى جوهرة كريمة نبذت بأكناف صحراء ، وأى درة مكنونة ألقيت بكف خرقاء ، وأى بلبل صداح تقاذفته أيدي الأطفال ، وحر كريم تناشبهت أظفار السفلة الأندال !

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وكان أبوه صانعا فقيرا ، وقد حاول جملة أشياء فخاب فيها وما زال من عيشه فى عذاب دائم وبرح مستمر ، وقد حدثنا بارنز فقال : « كانت ترد على أبى طلبات الغرماء يتقاضون ديونهم ، فكانت تنخب أفئدتنا وتستذيب دموعنا — دموع الوالد الكنود المكثود المعنى المعذب ، وزوجه الجلدة الصبور ، وصبيتهما وفيهم بارنز كان لهم الله . لقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وحمتهم مشارعها العذبة وهى حل مباح للوراد ، ومنعتهم مراتعها الخصبية وهى طلق حلال لكل مرتاد . تأملوا — رحمكم الله — فى قوله : « كانت رسائل الغرماء تستذيب دموعنا » أى مشهد حزن ومنظر ألم ! وإنى ما زلت أرى فى والد بارنز بطلا صامتا وشاعرا مفحما ، ما كان ابنه لولاه ليكون ذلكم الشاعر الناطق والبطل الكبير ؛ ومما يدل على فضل ذلك الوالد شهادة معلم ابنه حيث يقول : « لقد جئت مدينة لندن وحضرت بها نوادى السراة والأعيان ، فلا والله ما لذ أذنى كحديث والد بارنز ، ولا نعمت فيها بمجلس كمثلك التى أمتعتنى مدة حول مائدة ذلك الصانع المسكين » وقد كان فى الحقيقة مسكينا منغص الحياة مرتق موارد العيش جامد أخلاف الرزق ، لم يصادف نجحا فى السبعة الفدادين التى رزقه الله ولا فى أى شىء غيرها ، فكان بينه وبين الدهر حرب لا تنتهى ، كان المغلوب فيها أبدا ، وسوق لا تقض كان الخاسر فيها دائما . ولكنه ثبت فى تلك

الحرب طول عمره وما كان منه قط حيصة ولا فرة ، فإله من كريم باسل أيد الركن ثابت الأس ، لا تهيل من جانبيه الحوادث ولا تخون من قطريه الكوارب والكوارث ، حمول يغضى على الأقداء ويردد أنفاس الصعداء ، وتضيفه النوازل والكرب فيقربها الصمت والسكون ، وتهم المصائب أن تلتهمه فيلتهمها ويجعل لها صدره الرحب قبرا لا تنبش دفينته ، ولا ترد وديعته :

مفازة صدر لو تطرق لم يكن يسلكها فردا سليك المقانب

* * *

حليم إذا ضاقت بلاد بأهلها يضل القضاء الرحب فى صدره الرحب ياله من بطل يناضل كتائب الدهر مستورا عن الأعين ، لا تسير محاسن ذكره جريدة يومية ، ولا تطير روائع خبره أسلاك برقية ، ولا تقيد نواجر مجده مصابيد الشعر ، ولا تطلق غرائب همته شوارد الثر ، ولكنه لم يذهب عمله سدى ، ولا شىء فى العالم يذهب سدى ، نعم لم يضع من هذا ولده ! وأن يذهب فهذا روبرت بارنز سليه - وسليل عدة أجيال كلها أمثاله .

لقد خرج بارنز إلى هذه الدنيا مخفوا بالمكساره والشدايد ، بين سوء حال وسوء تعليم وكذ ونصب ، يجتلس النظم من ساعات الكدح اختلاسا ، ويسترق النظر فى كتب الفحول استرقا ، ويكتب بلغة ريفية مجهولة إلا لإقليم صغير من البلد الذى ولد فيه . ولو كتب ما كتب باللغة الإنكليزية الشائعة ، لما شككت فى أنه كان ينال إجماع الناس على أنه من أعظم رجالنا . وإن كان فيما حمل ألوف الناس على معالجة لغته الصعبة واستفتاح أغلقها عما أودعت ، وفض أختامها عما ضمنت ، دليل قاطع على أن هنالك جوهرًا مكنونا وسرا مصونا . وبعد فقد أحرز إقرار الكثيرين بالفضل واعترافهم بالقدرة والسبق ، وما تزال دائرة ذكره فى اتساع ، وصوت صيته فى ارتفاع ، وقد شرع الناس فى جميع أنحاء العالم السكسونى حيثما طارت الريح بلفظة إنكليزية ، يدركون أن من خير ما أنجبت التربة البريطانية رجلا فلاحا اسكوتلانديا اسمه روبرت بارنز . نعم ولا حرج على إن قلت : إنى أرى فى بارنز هذا جوهره كريمة بريطانية ، أبدى الله صفحتها وجلا روائعها وبهجتها ، على حين لا عهد للناس بالجوهر - نعم جوهره هى على لألائها ووقدتها أمسن الأشياء وأصلبها ، كالخجر

الكامن فى أحشاء الأرض - كالحجر ولكنه المطوى على آبار الرأفة والرحمة ، وعلى نيران الذكاء وزلازل الحدة والشهوة ، وعلى حلو النغم ومطرب الغناء .. طبع شريف خشن ، وسداجة قوة وعظمة فيها بوارق الحدة ، وفيها أنداء الرأفة ، فهى كإله الرعد « ثور » إله المزارع والريف .

ولقد حدثنى أخو بارنز وهو المستر جلبرت - رجل فاضل عاقل فقلالى : إن بارنز كان فى صباه شديد الفرح مستعذب الحديث جذل الكلام ، أخاص لعب وضحك ومرح ، شريف الوجدان وفير العقل . وكان يوم هو غلام يثر الحب ويحصد الزرع ، أفرح حديثا وأعذب إشارة ، وأبعث لسرور الجليس بمراحه وجذله وانطلاق فكاهته منه فى سائر أطوار حياته . وهذا كلام جدير بالتصديق ، ومراح بارنز الغريزى وجذله الفطرى - ذلك الخلق الذى لا أشبهه إلا بشعاع الضحى أو بالزهر الضاحك فى رونق الربيع الجديد - ذلك الخلق مزوجا بمراة جده وحرارة حدثه ، وذوب رحمته ورقته كان من أخلص صفات بارنز . وكان ذلك البطل جم عتاد الأمل ، غزير مادة الرجاء ، ولم يكن بالمطرق الحزين خلى الشكوى والأنين ، رغما من شدة مصابه وطول عذابه ، وإنما كان ينفض الأحزان عن كبده ، نفص الغضنفر لؤلؤ الطل عن لبده . وكان كالجواد العتيق يستقبل قعقعة السلاح بقهقهة الصهيل ، ويرقص على صدح الأبواق وقرع الطبول ، ويهز الأعطاف والأوصال كهز الكمأة القنا العسال ، ويضرم الشدأ كما يضرم كتنزيريم الهند الحسام ، نيران الموت الزؤام ، فى الجيش الكثيف اللهام . ولا أرى مراح بارنز ونشاطه وأمله ، إلا نتائج ما أوتى من عواطف الحنان والرأفة - أصل كل فضيلة وأساس كل مكرمة .

وربما أخذك العجب إن قلت: إن بارنز هذا أكبر نوابغ البريطان فى القرن الثامن عشر ، ولكننى أوقن أنه سيجىء اليوم الذى لا يعجب الناس فيه من قولى هذا . وشعره على ما فيه من قوة وفحولة ما هو إلا حفنة طفيفة من كنوز فضله ، وثمره فجة من بستان عقله . وقد قال عنه الأستاذ « ستوارت » كلمة تقال فى كل شاعر ذى قيمة ، وهى : أن شعر بارنز لم يكن ملكة خاصة فيه ، وإنما هو النتيجة العامة لذهن حاد متوقد مطبوع ، بدا له أن يعبر عن أفكاره بطريقة الشعر . هذا ولقد كان حديث بارنز

المرئجل العادى أبدع من شعره وأبدع من حديث كل مخلوق ، فكان أعجوبة القوم
ونادرة العصر وكان :

شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقله المستوفز
إن طال لم يملل وفي إيجازه يهوى المحدث أنه لم يوجز
وكان حديثه كسلم الموسيقى قد جمع درج الألحان من أخفض جرس التحية وألين
عبارة الملاطفة ، إلى أرفع صوت الغضب وأشد صيحة الوجد ، وقيمة ضحك الجذلان
وزفير الولهان ، ورنه الثكلان ، وإيجاز المجترئ بإشارته ، وإطنا ب ابن المقفع فى
يتيمته .

* * *

وقد شهره الأميرات البارعات الأدب ، بأنه كان يخلبهن بحديثه ويستخفن حتى
يكدن يطرن فى الهواء ، فهذا والله أعجب منه ما رواه النقادة النابغة المستر لو كهارت
عن خدمة الفنادق ، كانوا إذا رقدوا فى فرشهم للنوم فسمعوا بارنز يتكلم وثبوا من
مضاجعهم فالتفوا به وكلهم إقبال عليه وإصغاء لحديثه ، خدمة الفنادق ا وما لى
أعجب من ذلك ؟ أليسوا رجالا ينصتون إلى رجل ؟ ولقد قرأت وسمعت كثيرا فى
صفة حديث بارنز ، ولكن أجل ما بلغنى عن ذلك هو ما حدثنى به العام الماضى شيخ
مسن كان من أخص أصدقاء بارنز ، وهو أن بارنز ما فتح فاه قط إلا ألقى منه
حكمة . قال ذلك الشيخ : « وكان بارنز قليل الكلام كثير الصمت ، فإذا تكلم جلا
من غوامض الموضوع وأوضح من مشكلاته » . ولا أرى لماذا يتعرض المرء للكلام فى
الموضوع إذا لم يفعل كذلك ا وجملة القول إذا نظرنا إلى قوة نفس ذلك البطل
وفحولته فى كل ما نطق وكتب وصنع ، وشلة صراحته ، وسمو همته ، وكمال
مروءته ، ونفاذ بصيرته ، ووفرة رجولته ، تعذر علينا أن نجد له فى القرن الثامن عشر
نظيرا :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤدد والمجد والمكارم مثالا
ولكننا إذا أحلنا النظر فى عظماء القرن الثامن عشر ، وجدنا بينهم رجلا فيه مشابهة
من بارنز - وهذا هو ميرابو ، فهما فى الجوهر متشابهان وإن تباينا زيا وتخالفا ظاهرا ،

(الأبطال)

نعم إنهما سواء فى قوة البدن وقوة الروح ، كلاهما غليظ الرقبة شديد الكدنة (١) ، كبير النفس ضخم الفؤاد ، ولكن ميرابو أكثر صخباً وأشدّ دفعة وقلقا بالفطرة والنشأة والشبه القومى . ومزية ميرابو بعد هى الصدق والعقل ، ونفاذ الرأى وحدة الجنان ، وكل أقواله جدير أن يحفظ ويمثل ، وما كلمته إلا طعنة الرأى فى حشا المشكل ، ولمحة برق اليقين فى دجى الشك :

ألمعى موفق يهدى اللد له لدى الخطبة العياء العقام
وإذا باد الحوادث بالرأى أصاب الصواب بالإلهام

* * *

ألمعى يرى بأول ظنن آخر الأمر من وراء المغيب

* * *

وكذلك كان بارنز ، وكلاهما كان جيش الصدر بمراحل الأهواء والشهوات ، طوراً تعصف عصف الجنائب وتارة تخطر من النسيم ، وفى كليهما العارضة والبدية والمزح والضحك والفكاهة ، والقلق والنشاط والتوقد ، والعزم والهمة ، والصدق والصراحة ، والجد والإخلاص . فهما من محتد واحد فى الكرم ، وإن تشعبت بهما بعد ذلك الأشكال . ومن جوهر بعينه فى النبيل ، وإن تنوعت بعد بهما الأعراض والأحوال . فلو أن بارنز شغل مكان ميرابو فى الحكومة والسياسة لأجاد مثله فى كليهما . ولكن شجاعته العتيدة كانت بالأسف تصرف فى أسر مهربى البضائع فى خليج سولوإى بتلك البحار الشمالية . وفى السكوت عن كثير من المغضبات ، حيث كان لا يجدى الكلام وإنما الحنق الأخرس . ولو صادفت تلك الشجاعة موضعها لأجلت اللد الخصام فى المناظرة ، واستحقت قول القائل :

كم حومة للخطاب فرجها والقوم عجم فى مثلها خرس
شك حشاها بخطبة عنن كأنها منه طعنة خلّس

ولبّدت تلك الشجاعة لعيون الملأ طراً فى تدبير الدول وتنظيم الممالك وإصلاح شئون العالم . ولكن القوم — أعنى الحكومة — قالت لبارنز قول موبخ : « لست

للتفكير إنما أنت للعمل « فكأنها قالت له ضمنا : « لا حاجة بنا إلى قوة المفكرة - أكبر قوى البلاد في هذا القرن - وإنما نريد منك أن تُمسح الأراضي ، ولسنا لغير ذلك نريدك » حسن والله هذا وجميل ! حتى لكأن قوة التفكير ليست فى كل آن ومكان أهم ما تحتاجه الدنيا . أو ليس شر الناس هو الرجل الذى لا رأى له ولا تفكير عنده ، ولا يرى وإنما يتجسس ويعيث ويتخبط ويهذى حقيقة الشيء الذى يزاوله ، ويظل حائرا مضللا لا خبير فيه ولا ثمرة ؟ هذا هو شر الناس وهو الآفة والبلية . وعسى قائل يقول : ما بالك تعلن شكوكا وندمك على ذلك ؟ أما تعلم أن ذا القوة قدما ممنوع من مجال إظهار قوته ؟ « نعم وذلك أضر بما نعيه وأبرح . وإذا كانت الشكوى قليلة الحدا فما ذكر الحقائق بقليلة . ولا يسعنى إلا القول بأن استغناء العالم الأوربى عن مثل بارنز والثورة الفرنسية على الأبواب ، لا يدعونى إلا إلى الحزن والأسف .

وبعد فأهم صفات بارنز الإخلاص ، وهو أيضا أكبر مزايا شعره وعيشته ، وما قصيده الذى يتغنى به بمجرد تصورات وتوهمات ، وإنما إحساسات تميش بخاطره وتثور بوجدانه . وسر ذلك وسر فضله فى جميع أركان حياته هو الحق . وحياء بارنز هى ما يمكن أن نسميه رؤية محزنة سداها الحق ، ولحمتها الإخلاص . ولكن الإخلاص المر الوعر ليس القاسى ، ولكنه إخلاص جرىء نائر يساور الحقائق ليروضها ويقنادها . ومن ثم ترى فى جميع الأبطال روح التوحش والسطوة .

عبادة الأبطال - لقد يعزينا عن شقاء أولئك الكُتّاب الأبطال إجلال بعض الناس إياهم ، ولكن أى حالة عجيبة وصل إليها ذلك الإجلال ! أما إن فى ازدحام خدمة الفنادق بباب غرفة الجلوس ، يرهفون الأذان لاستراق كلمة من كلام بارنز لإجلالا منهم لذلك البطل ، وإن كانوا بذلك لا يشعرون هذا . وقد أوتى جونسون فى اللورد بوزويل أخشع محترم ومعظم ، وسخر الله لروسو أشرف الدولة وأمراء بيت الملك يودونه فى غرفته الحقيمة ويجلون منه رجلا تقاسمته التوائب ، فشطره للبيؤس وشطره للمس والخبل . تناقض وأيم الله عجيب ، وحياء لا يلتئم طرفاها وينكر أسفلها أعلاها ، فبينما هو يجالس العيون والسراة ، ويؤاكل الرؤساء والقضاة ، إذا هو ينسج بيده سطور الغناء لينال من القوت مسكة الذماء . ومن مأثور قوله فى هذا الصدد : « لقد حملت نفسى بالتغذى فى منازل الأمراء على خطر الهلاك جوعا فى منزلى » وفى ذلك

على عاشقيه ومعظميه من العار ما فيه . وعلى كل حال سواء نال الكتاب الأبطال حقهم من الإجلال أو لم ينالوا ، فهم أساتذة العالم يؤدّبونه ويحكمونه ويعظونه، وما نافذ فيه إلا كلمهم لا مرد لها ولا ملغى لحكمها . فعلى الكاتب البطل أن يفكر ويرى ، وعلى الملائ أن يذعن ويخضع، وعلى الكاتب أن يأمر ، وعلى العالم أن يصدع، وللعالم بعد أن يختار طريقة الإذعان والطاعة، إما قهرا وإما اختيارا، وإما حسبة وإما اضطرارا ، إما صحو خريف فينان الظلال ، ناعثم الأصال ، طيب أردان الصبا ؛ مصقول رونق الضحى ، وإما سحب صواعق تُمطر الحين والبوار ، ونكباء تنسف الدور وتقتلع الأشجار ، طريقان متعاكسان مفضاهما واحد ، وصورتان متباينتان والجوهر فرد ، وإما نور مفيد وإما بريق مبيد ، وليس الأمر الهام هو ماذا نسمى البطل وبماذا نعامله ، وإنما هو الصدق كلمته ونصدع بأمره أم لا ، وإذا كانت كلمته صادقة وأمره الحق فسنعقددها ونعمل بها طوعا أو قسرا ، إن لم يكن بميلنا ورغبنا فبرغم أنوفنا ، فأما هيئة استقبالنا إياه ومعاملتنا له ، فذلك من شئونا وراجع إلينا ، وأما كلمته فتلك رسالة الله إلى العالم ، ولا بد من أن نرغمنا على تصديقتها وتستول على نفوسنا .

وآخر أقوالى فى هذا الميخث كلمة عن أهم حوادث حياة بارنز ، أعنى وفدته على إدنبرج ، وطالما رأيت أنه قد كان فى رباط جأشه هنالك وثبات جنانه ، أوضح آية على وفرة رجولته ورجاحة فضله . لقد كان فى انتقاله من أسفل حضيض البؤس والكرب والخمول ، إلى أشرف ذرى النعمة والهناء والذكر ما هو جدير أن يطير بلب أى امرئ ويذهب بعقل أى إنسان . فبينما روبرت بارنز فلاح مسكين قد رزاه النحاس ، أجزته الزهيدة سبعة جنيهاً فى العام - فعادت الدنيا فى عينيه أضيّق من بياض الميّم ، وخرج على وجهه يريد الهجرة إلى أمريكا ، إذا به قد ولج زمرة الأشراف والأمرء فأفسحوا له بينهم أكرم مقام ، وبوعوه صدور المحافل ، وخاصرته ربات القلود يسايرنه مزهوات بمسايرته ، رانيات إليه بأعين الجأذر ، عاطفات سوائف الأرام^(١) وأتلعت نحوه الأعناق ، وازدحمت فيه العيون ، فعليه من حدق نطاق ،

(١) سوائف جمع سائلة وهى صفحة العنق . الأرام جمع رثم وهو الظبى .

والضرباء ثقيلة على كاهل الرجل - ولكن السراء أثقل ، وفي كل ألف من النابضين
عبء البؤس واحد ينهض بثقل النعمة ، ونادر فى الناس من له أن يقول :

كلّ بلوت فلا النعماء تبطرني ولا تخشعت من لأوائه جزعا .

ولا نعلم فى الناس من فوجئ من النعمة بمثل ما فوجئ به بارنز ، ولا نظن أن رجلا
غيره كان يبدى ما أبداه من الرزاة والوقار . فلقد لقي ذلك الحادث الجليل لا حائرا
ولا وجلا ، ولا هائبا ولا حجلا ، ولم يؤث من ذلة ولا استخذاء ، ولا من نخوة ولا
غلواء ، وكان يشعر وسط هذا الجمع الزاهر أنه هو روبرت بارنز الفلاح المتواضع ،
وأن هذه المرتبة السامية والجاه العريض ليس إلا من قبيل النقش فى صفحة الدينار لا
ينقص من قيمته ولا يزيد ، وإن الشهرة ما هى إلا ضياء يرسل على الرجل فيريك أى
رجل هو ، ولكنه لا يحمل منه ولا يقبح ولا يشوه من صورته ولا ينقح ، غير أنه ربما
قبح وشوه بما يملأ الرجل كبرا وغرورا ، ويصعر خده ويصلف جانبه ، وبما ينفخه حتى
يتصدع فيعود كالأسد الميت خير منه كلب حى ، فبارنز فى هذا الأمر قد برع
وفاق ، وجاء غرة زهراء فى جبهة السبق . ولكن هؤلاء الجماعة - عشاقه المعجيين به
- هم كانوا سبب شقوته وموته ، هم الذين حرموه لذة العيش وحرموا عليه طيب
الحياة ! هم كانوا يلتفون به فى حقله ، ويحولون بينه وبين عمله ، لا يقعدهم عنه
بعد الدار ولا شطط المزار :

فأضحوا ولو كانت خراسان دونهم رأوها مكان السوق أو هى أقرب

لقد أعيبى عليه مع صدق الجهد والمحاولة ، أن يححو ذكر نفسه من أذهان
الجماعة ، وكم أراد ان يفصم عروة ما بينه وبينهم فما أفلح ، وهكذا تقلب عليه الدهر
بالأكدار والمحن والخطايا ، وأدبرت عنه الدنيا وزايله الأمن والعافية والغبطة وحسن
السمعة ، وأصبح إلا من الهموم والأشجان منفردا ، وإن فى ذكره والله لحزنا وبثا ،
وفيم كانت زيارات القوم إياه إذا لم يكونوا يقيلون عثرته ، ويسلدون خصاصته (١) ؟
بلى إنه ما من رحمة كانت زيارتهم وإنما للهو والتفكك ، وذهدت حياة البطل ضحية
ذاك .

قال ريشنار : إن في جزيرة « صوماترا » ضربا من جسيم الذباب براق الأجنحة، يستصبح به سراة القوم فيجعلونه في أطراف العصي كالذبال ويسيرون في ضوئه . وهكذا ينعم سراة القوم بأمثال النجوم الطوالع ، والشهب اللوامع ، فسلام الإله وريحانه على تلك الذباب !

المحاضرة السادسة

البطل فى صورة ملك

كرمويل - نابليون

الثورة فى العصور الحديثة

الثورة الإنكليزية

نذكر اليوم آخر أشكال البطولة - ذاك الذى نسميه الإمارة ، وأمير الناس وقائدهم الذى عن رأيه يصدرون ، ولأمره يذعنون ، وبه فى جميع الأمور يقتدون ، واجدين فى ذلك الخير والفلاح والفائدة . إنه لجدير أن يوأ من ديوان الأبطال صدره ويحمل فى دولة العظماء اللواء ، وإنما هو فى الحقيقة جملة البطولة على اختلاف أصنافها ، وهو الخلاصة والزبدة والعصارة ، وقد جمع الله فى ذاته سائر ضروب الأبطال ، وليس ذلك على الله بمستكر .

وقد تعرض هنا مسائل خطيرة ومباحث معضلة ، بمنعنا من طرقها ضيق المجال . وإنما نذكر كلمة شبيهة بكلمة (بيرك) حيث يقول : (إسناد القضاء إلى نخبة من القضاة يشتركون فى إصدار الأحكام ، هو روح الحكومة) فكذلك نقول نحن : إن خلاصة أعمال المجتمع الإنسانى سواء سارت على طريق الخطأ أم على منهج السداد ، هو الاهتمام إلى أعقل رجال بلدك وأفضلهم وأحزمهم ، ثم تقليده الحكومة والسلطة ، وإعطائه الخضوع والطاعة ، حتى يستطيع بذلك أن يهدى الناس حسبما يلهمه عقله ويوحى إليه فؤاده . وإنما إلى ذلك قصدت لوائح الإصلاح والثورات الفرنسية وغير الفرنسية ، اهتد إلى أعقل رجال بلدك وأكفئهم وارفعه إلى المكان الأعلى ، وبجمله وأكبره تبرز لبلادك خير حكومة . وإنك إن تفعل هذا فقد بلغت المدى وكل شىء بعد ذلك فضول ولغو . فإن أعقل الرجال هو أيضا أكرمهم وأبرهم وأرحمهم ، وليس فوق

نصحه نصح . وقول الإمام إمام القول وكل ما يأمرنا به فهو ولا شك أحكم وأليق وأعلى ما نستطيع أن نجد تحت قبة الفلك . وهو ما يجب علينا أن نأتمره ونصدع به مع الحمد والشكر ! وتلك الحكومة هي الضالة المنشودة والغاية القصوى .

أقول الغاية القصوى والله يعلم أن الغايات تبلغ بالأمل ولا تنال بالفعل ، وللأمانى جياذ ساجحات تسبق وفد الرياح ، يرسلها الفكر فى مضمار الوهم فتطير بأجنحة الرجاء إلى كل غاية أبعد منالا من الثريا . فإذا طلبت تلك الغاية بأفراس العمل فى ميدان الحقائق قامت العقبات ، واعترضت النوب والآفات ، وسقطت الجياذ أثناء المضمار طلحا أنضاء ، حسرى الجهد والإعياء ، دامية السنابك من الجفاء ، مهزولة الأعطاف من الأين والوجى ، وكذلك تبقى الغايات منا طعمة المنى سخرة الواقع ، كالخيال فى المرآة يبيع العين ما يمنع الكف :

أو كالسماء وكل ما زينت به وكبعدها وكقربها من لاق

وإننا وإن استحال علينا أن نبليغ الغايات ، فحسبنا أن نأخذ فى سمتها أو نقع منها على مسافة ترضى وتسرى ! ولا يقل أحد من الناس ما نهى عنه الشاعر الألماني (شلر) إذ قال : « المرء تلقاء الحوادث ضعيف ، فلا يقس أحد منكم مجهود النزر القليل بمقياس الكمال » ومن خالف هذا القول كان مريض العقل بداء السخط ، مأفون الرأى مصدودا عن الحق ، ولكن لا ينس المرء مع ذلك أن نجعل الغاية نصب العين فإنه لا يقوم عمود صلاح الدين والدنيا على أساسه ويستقر به فى نصابه ، حتى ينزل الإنسان قريبا من الغاية ، فإذا لم يتم له ذلك انهارت دعائم الصلاح وتقوض رواقه ، ونحن نعلم أنه ليس فى العالم بناء يمكنه أن يشيد جدارا فيجعله فى أقصى درجة العمودية ، أى أن يجعل الزاوية الحادثة بينه وبين سطح الأرض تسعين درجة بالضبط لا تفص ولا تزيد درجة . كلا فهذا مستحيل علميا ، فكيف باستحالته عمليا ؟ ولكن إذا لم يبدن البناء بالجدار من هذه الغاية بعض الدنو ، فأحر بجداره أن تنهار أركانه ، وينهدم جثمانه . نعم إذا استهان بقانون العمودية وطرح مقياسه ومعياره ، وجعل يراكم الطوب بعضه على بعض بلا نظر ولا حساب كيفما اتفق ، فأجدر به أن تسوء عقباه ويشقى ، فإنه قد أغفل أمره ونسى نفسه . ولكن قانون التوازن — ناموس

الطبيعة - لم ينس أن يسرى عليه وعلى بنائه ، وما هى إلا برهة حتى يسقط هو وبنائه فترتد كهيها مشوشا ومعهدا خربا .

وهذا هو أصل كل فتنه ، وتاريخ كل ثورة ، وحديث كل انفجار اجتماعى فى الأزمان القديمة والحديثة . أجل إنما سببها هو أنك وليت الرجل العاجز وجعلت غير الكفاء على رعوس الأعمال - الرجل الخسيس السافل الدنىء الكاذب ، ونسيت أن هنالك قانونا أو ضرورة طبيعية تستدعى تولية القادر الكفاء ، وظننت أنه لا بأس عليك إن تراكم الطوب بعضه فوق بعض كيفما جاء واتفق ، بلا قاعدة ولا حساب . والرجل الكاذب إذا وليته كان جديرا أن يتخذ كل كاذب خبيث مثله ، ومن ثم يروح أمر الناس مختل النظام مبدد الشمل ، تأكل جوفه الخلية ويهدم أركانه الشقاء والبؤس . وترى الملايين من خلق الله قد اضطربت عليهم أمور دينهم وديناهم ، واسودت فى عيونهم ظلمات اللبس والحيرة ، فهم يمدون الأيدى استهواء ولا هادى ولا مرشد ، ويسطون الأكف استعطاء ولا مانح ولا رافد . وحيثذ ينفذ قانون التوازن حكمه ، وتسرى نواميس الطبيعة ، وهى التى ما غفلت عن العمل طرفة عين ، فتشور الملايين ويجن جنونهم ويسقط البناء والبناء .

إن من يفتش الآن المكاتب العامة والخاصة ، يلتق بها أسفارا ضخاما ومؤلفات جساما تفيض فى موضوع (حقوق الملوك المقدسة : ومعناه أن كل مالك مهما كان ، هو خليفة الله فى الأرض قد ولاه الملك القدوس زعامة خلقه بعقد مقلس خفى ، فعدت فى رقاب العباد بيعته ، ووجبت عليهم طاعته ، واستحكمت فى نفوسهم مهابته وخشيته) . تلك هى عقيدة القرون الغابرة ، ورأى آباءنا الأول . عقدة دفت معهم فى قبورهم ، ورأى بان بينهم ، ومذهب عفت رسومه وطمس الدهر أعلامه ، ومجلدات كالقبور تبنى فيها أفكارها ، وتنخر فى أجوافها عظام محتوياتها ، لا يزورها إنسان ولا يعوج بها مخلوق ، وباطل لاح فى ظلم الجهل ثم محا آيته نور اليقين ، ودولة زور استقل نجمها ثم خوى ، واشمخر طودها ثم هوى ، وأكذوبة أدبيل منها الحق . وإنى مع ذلك لا أرى من كرم الطبع وشرف الشيمة أن تتبع ذلك الباطل المدبر لعناتنا ، ونلحقه أهاجينا وشتامتنا ، فحسبه هزيمته وكفاه خزيه وفضيخته ، بل أرى - ولا يعجب القارئ ولا يرع - أنه لا يحسن بنا أن نترك هذ الزور والمحال يعضى من (الأبطال)

غير أن نفتش أجزاءه ، ونفحص أنحاءه وأرجاءه ، ونقلبه بطنا لظهر علنا نجد فى ثناياه معنى من الحق ، وأن فيه لحقا يجدر بنا وبسائر الناس ذكره . أما قول هذه المؤلفات : « إن أى إنسان تأخذ عينك من بين الناس وتمسكه يدك فتجعل على رأسه صفيحة من الذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، وتسميه ملكا يرسل الله عليه فى الحال شعبة من نوره ، ويمده بروح من عنده ، ويعمر فؤاده بأسراره القدسية ، ويؤهله فى التو واللحظة لأن يحكم عليك حسبما تقتضى مشيئته ، فذلك حمق وخرافة ، وحسبه منا أن نتركه ييلى ويعفن فى أجواف كتبه ، أو بعبارة أصدق أجواف قبوره . ولكنى أقول - وهو ما عناه وأراده أرباب مذهب .. حقوق الملوك المقدسة .. : وهو أنه يوجد فى الملوك وفى جميع العلائق والمسئوليات والسلطات التى تكون بين الولاة والرعية . إما حق مقدس أو منكر شيطانى . لا بد من أحد هذين إذ أنه من أفحش الخطأ والكذب ما قاله القرن السالف الكافر ، من أن هذه الدنيا آلة ومكينه ، بل إن فى الكون لإلهها ، وكل ما يجرى بهذا العالم من حكومة وإل وطاعة رعية ، بل كل عمل وحركة لا بد أن يبوء إما برضى وإما بغضب من الله ، وأشرف ما يجرى بين الرجل والرجل هو لا شك الحكومة والطاعة . والويل لمن يطلب من طاعة الناس ما لا يستحق ، ولمن يأبى أن يؤدى من الطاعة ما أوجبه الله عليه لزعيم أو أمير . بذلك يجرى قانون الله المقدس مهما سنت شرائع البشر ونهجت نوااميس الحكومات . نعم إن فى كل دعوى يدعيها الرجل على أخيه إما حقا مقدسا أو منكرا شيطانيا .

هذا أمر جدير بالنظر والتدبر ، وخلق أن نذكره فى جميع شعوننا ولا سيما فى أمر الزعامة والولاء أهم تلك الشئون . وعندى أنه شر من مذهب « حقوق الملوك المقدسة » هو ذلك المذهب ، إن العالم يدور على محور المصلحة الذاتية وتدير الثروة ، وإنه لا معنى هناك مقدسا فى تعاشر الناس وتخالطهم ، وإنى أكرر عليك قولى : « إنك لن تأتبنى بالملك القادر الكفء لأجعلن له على حقا مقدسا » . ولعل دواء أدواء الأمم فى هذه العصور هو أن يوفقها الله بعض التوفيق إلى إيجاد الملك الكفء ، وأن يلهمها طاعته والانقياد إليه إذا وجد ! وإنى أرى فى الملك القادر - هادى الأمة فى سبيل الأعمال الدنيوية - حلة الدين كذلك ومعنى القسوسية . فهو أيضا هادى الأمة فى سبيل شعونها الروحانية التى هى مصدر الشئون الدنيوية . فالملك لذلك رئيس

الكنيسة أيضا . ولدع بعد مذهب « حقوق الملوك المقدسة » يلى فى أحواف مؤلفاته أو قبوره ، لا نوقظ صدها ولا نستثير هامته .

وحقا إن التماس الرجل الكفاء والحيرة فى ذلك لمن أشق الأمور وأجسمها ! وتلك هى آفة الأمم فى هذه العصور والأزمة الحرجة . هذه أوقات ثورات ، وإنى أرى بناء شعون الدنيا قد اطرحوا المقاييس والمعايير وأغفلوا قانون التوازن ، فانهار البناء بهم فإذا هم والبناء خليط أنقاض مشوش ! وليست الثورة الفرنسية هى مبدأ هذا التهدم والسقوط بل لعلها الغاية والنهاية . ولا نخطئ إذا قلنا إن المبدأ كان منذ ثلاثة قرون أى منذ نهضة لوثر ، وكان داء العالم إذ ذاك تحول كنيسة الله أكذوبة ، ووقاحتها وصفاقة وجهها إذ تدعى لنفسها القدرة على غفران ذنوب العباد بالدرهم والدينار ، وكان هذا مرضا فى الدين - داء فى الروح والجوهر . ومتى أدوى الجوهر واعتل الروح فأحل بالجسم والظاهر أن يفسد وينوى - ثم يزداد فسادا ومرضاً ، لقد كان الإيمان قد فنى وباد ، وفاض الشك وتفشى الجحود والإلحاد ، وطرح البناء معياره ومقياسه وقال لنفسه : « أى قيمة لقانون التوازن ، وأى فضل فى الحساب والنظام ؟ ضع الحجر على أخيه كيفما جاء وافق ، ولا يعينك أن تجشم النفس مراعاة قانون أو حساب ! » وكانت العاقبة يا للأسف كما تعلمون !

وإنى لأبين اتصالا طبيعيا والتعاما تاريخيا ما بين مقالة لوثر إذ قال للبابا : « أنت أيها الملقب نفسه « البابا » إفكا وزورا ، ما أنت بأب فى الدين ولا والد لنا فى الله ، إنما أنت أكذوبة يعجز اللسان أن يجد بين الألفاظ المهذبة الرقيقة ما يليق بتعتك وصفتك ! » وبين صيحة الثورة الفرنسية إذ علا بها ضجيج الثوار فى قصر الإمارة يصيحون « إلى السلاح ! إلى السلاح ! » . ولا يحسب الحاسبون أن هذه الصيحة المزعجة الجهنمية كانت شيئا حقيرا أو باطلا ! كلا إنما كانت صوت الأمم النائمة هبت من رقاد كاد يخنقها أثناءه الكابوس - نعم صوت الأمم هبت من حالة بين الرقاد والموت فبدأت تشعر أن الحياة شئ حق ، وأن عالم الله ليس بمكينة تساس بالدهاء والمكر ، وتدبر بعلوم الاقتصاد والرياضة . نعم لقد هبت فأرسلت صيحة جهنمية - وإنما أتت جهنمية لأن طغاة الملوك وعتاة الحكام أبوا إلا أن تكون كذلك ، لقد هبت الأمم وقالت لا بد للأباطيل أن تنتهى ويخلفها نوع من الإخلاص كيفما كان ، ولا بد

لنا من عودة إلى الحق ولو جرت علينا أهوال ثورة فرنسية ، وجلبت على رعوسنا شر
الفظائع وأشنع البلاء ، هذه هي الثورة الفرنسية - هي كما ترون حق ، ولكنه حق
متنفع في شواظ الجحيم ولظى جهنم !
وكان قد ذاع لدى جماعات كثيرة من أهالي إنكلترا أن الأمة الفرنسية كانت فى
تلك الأوقات (أوقات الثورة) قد جنت ، وإن الثورة الفرنسية كانت صنفا من
الجنون تحولت فرنسا وفرنق عظيمة من سكان المعمورة أثناءه مارستانا . ذلك كان رأى
العدد العديد من الإنكليز وفلاسفتهم . إن الثورة كانت حريق جنون شب ثم محمد
وأصبح الآن فى عالم الأحكام والأوهام ، والقصص والعجائب ، والنوادر والغرائب !
فليت شعرى كيف كان وقع الثورة الثانية - ثورة ١٨٣٠ فى نفوس هؤلاء الفلاسفة
الذين حسبوا أن الثورة الأولى كانت فلتة جنون وبيضة الديك ، وأن حديثها أصبح
كحديث الخرافات لا يكاد يصدق ؟ ماذا كان شعورهم حينما رأوا فرنسا قد ثارت
ثانيا إلى السلاح تكافح كفاح المستميت تذبذب وتذبذب ، وكل ذلك لتؤيد الثورة الأولى
وتحفظ آثارها ونتائجها ؟ نعم إن أبناء رجال الثورة الفرنسية وأحفادهم يبررون عمل
آبائهم وأجدادهم ، ويأبون إلا تمسكا به وإصرارا عليه . هم لا يبرأون منه إلى الله ،
بل يعملون على حفظ أثره ، واستتاج ثمره ، باذلين الدماء والأرواح فى سبيل ذلك .
ولعل فى هذا الحادث (حادث الثورة الثانية) أكبر مصاب لأولئك الفلاسفة الذين
أسسوا مبادئهم وشادوا مذهبهم على أن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرا منها فرنسا ،
ولا يعود بها الزمن أبدا ، نعم إن فى ذلك الحادث نكبة لأولئك الفلاسفة ، حتى لقد
ذاب قلب الأستاذ الألماني « نيور » كمدا وتقطعت نفسه حسرة ، لما بلغه نبأ هذا
الحادث ، ثم اعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا ببدء الأيام الثلاثة (هو اسم ثورة
١٨٣٠) وما هكذا تموت الرجال - ! ولست أشبه هذه الموتة إلا بموتة الشاعر
الفرنسى الكبير (راسين) الذى قتله آن لويز الرابع عشر تجهمة^(١) مرة ورمقه شزرا ،
فيا ليت الأستاذ الألماني علم أن الكرة الأرضية صلبة جلدة ، وأنها طالما تحملت
صددمات الدهر وضربات القضاء ، وأنه ليس من البعيد أن تعيش وتبقى وترى دائرة

(١) عيس فى وجهه سخطا .

حول محورها بعد ثورة (الأيام الثلاثة) . ولقد جاءت تلك الثورة الثانية لتعلم الناس جميعا أن الثورة الفرنسية لم تكن قط فلتة جنون ولكنها ثمرة حرة من ثمار هذا العالم - عالم الله ، وأنها كانت حقا يحسن بكل إنسان أن يعده حقا لا باطلا ولا جنونا .

وحقا أنه لولا الثورة الفرنسية لأشكل علينا ماذا نصنع بعصر مثل ذلك العصر الملعون ، ولعميت علينا وجوه الرشيد ، واستبهمت معالم القصد وكنا لا محالة هالكين . وإنا لنرحب بالثورة الفرنسية ترحاب المشرفين على الغرق بالصخرة العبوس . وهل كانت الثورة الفرنسية إلا كذلك أو وحيا صادقا ورسالة حقا ، وإن راعت القلوب وأزعجت الخواطر فى عصر تصنع وكذب - رسالة تنبئ أن للكون سرا ، فإن لم يكن إلهيا فهو إذن شيطاني ، ولكنه سر على أية حال . وأن التصنع والغش ليس بحق ، وأنه لا بد أن يتحول حقا ، وإلا اشتعل العالم تحت ما يستره من أثواب الغش واللؤم والباطل فأحرقها . وليت شعري إذا احترقت فصارت « لا شيء » ، أفهل كانت قبل ذلك إلا « لا شيء » . نعم بالثورة الفرنسية انتهى التصنع والغش والباطل الأجوفا الفارغ ، وانتهى شر كثير وفساد جم . والثورة الفرنسية رسالة الله إلى الأرض صدع بها صوت من الرعد ، أو صرخت بها نفخة إسرافيل فى الصور يوم القيامة ؛ فمن أسرع إلى اعتقاده أصاب خيرا وحمد العقبي ، ثم لا طمأنينة ولا صفاء ، ولا أمن ولا سلام أو تعرف هذه الرسالة حق اليقين . وقد كان الرجل وسط هذه الأباطيل والأكاذيب والأضاليل جديرا أن يصبر ويتنظر - جديرا أن يمضى فى شأنه ويعنى بعمله ، ويعلم أن القلم العلوى قد جرى بحكم الهلاك والموت على هذه الموبقات والشرور ، وإن هذا الحكم الصارم قد كتب اليوم فى الأرض بعد أن صدر فى السماء . لقد كان الرجل المخلص جديرا أن يرى ذلك ، فيغتبط ويصبر ويتنظر ، ثم هو من وجهة أخرى إذا أبصر ما قد وقع فيه العالم من الأزمات والشدائد ، وصيحاته المتوالية يطلب انفراج الأزم وتراخي الخناق ، كان جديرا أن ينصرف بحكم هذه الضرورة عن شأنه وعمله إلى شئون أخرى ، لا سيما وقد نال السيل الزبى وبلغت الروح التراقى . وعندى أن أنفس الحقائق فى مثل هذه الحوادث (حوادث الثورة) هى حقيقة « عبادة الأبطال » فإنها أجمل العزاء وأحسن السلوة فى هذه

الأوقات ، وأملنا الوحيد : هي سياسة الدنيا وتديريها . ولو أن الثورة هدمت جميع التقاليد والنظامات، والعقائد والمذاهب ، والملل والنحل لسلمت لنا هذه الحقيقة ، فإن ثقتنا بأن الله مرسل لنا الأبطال ، وما جبلنا عليه من إجلالهم حينما يرسلون إلينا - هذه والله نعمة تشرق علينا كنجم هداية وسط غياهب الدخان وغياهب النقع ، ووسط كل انهدام وانفجار .

ولو أنك أسمعت ثوار الثورة الفرنسية كلمة « إجلال الأبطال » لوقعت منهم موقع التكذيب والإنكار ، ولأرخوا دونها حجب الآذان وقالوا حديث خرافة . فقد كان هؤلاء المحاهدون فضلا عن عدم احترامهم الأبطال لا يصدقون بوجود الأبطال ، بل لا يودون أن يبيح الزمن يبطل قط ، وكأنهم ظنوا أن الكون بعد أن تحول مكينة ، وهن وبلى حتى ضعف عن إخراج الأبطال وعقم صلبه منهم ، وإذا صح أن الكون قد أصبح كذلك فإنني قائل له أولى لك أن تكف بالمرءة عن إخراج الرجال ، فإننا لا نقبل بضاعة ليس فيها التحف والنفائس ، ولا نرضى بأنسجة ليس فيها الخبز والديجاج ، أو بالاختصار لا غنى لنا عن الأبطال . أما مذهب « الحرية والمساواة » فقد كان من نتائج تلك الأحوال ، كان إذ ذاك شيئا طبيعيا فلذلك لا يجمل بي أن أرد عليه ، ومعنى « الحرية والمساواة » هو هذا « بما أنه قد استحال وجود العظماء والأبطال ، فللعالم الآن أن يستغنى عن هؤلاء الأفاضل النوار بالجمهير العديدة المتساوية فى ضعولة القدر وخسة القيمة وخفة الأحلام وعجز الآراء » ماذا أقول فى هذا المذهب وبماذا أقابله إلا بعذر أربابه والسكوت عنه كحقيقة كان لا بد منها إذ ذاك ، ولا مفر ؟ ذهب أرباب ذلك المبدأ إلى أن الناس أحرار متساوون ، وإنه ليس لرجل أن يسود ويقود ويتسلط ، وحتتهم على ذلك أن عبادة الأبطال واحترام المسليطين والزعماء والقادة قد ظهر فسادهما وما هما إلا كاذب وباطل . فحسبنا منهم ما كان ، لقد خلدنا من هذا الطريق مرارا حتى فنيت الثقة به ، وطال تصديقنا حتى لا نصاق ، وإذا كثر بحال النقود الزائفة فى الأسواق كذب الناس بوجود الذهب الصراح . وإنه قد تصلح الأمور وتستقيم الحال بلا ذهب ، أنا لا آخذ القوم بهذه الآراء بل أعذرهم عليها ، وأرى أنها كانت ثمرة ذلك العصر الطبيعية ، وإن كانت صابا وعلقما .

وبعد فليس هذا المذهب إلا تحولا وانتقالا من الباطل إلى الحق وليس هو بالحق ، فإذا رُمي (١) أنه الحق بأكمله فهو إذن باطل محض - نتيجة الشك الأعمى يحاول أن يكشف عماه ليُبصر ، فإن عبادة الأبطال موجودة في كل زمان ومكان . وما هي قاصرة على إجلال الملوك والسادة والسواس والقادة ، بل إنها لتمتد من عبادة الله إلى أحط مواطن الحياة العملية . واثناء الرجل لأخيه بالسلام ما لم يكن خديعة وملقا فهو من قبيل عبادة الأبطال ، واعتراف بأن في كل إنسان خلقه الله روحا من الخالق ، وأن كل امرئ مظهر لجلال الله . وعندى أن الذين أبدعوا إشارات التحية ودلائل الملائفة والاحتفاء التي تجمل الحياة وتزينها هم شعراء . وآداب المقابلة والمعاشرة ليست بكذب ولا باطل ، والولاء والإجلال المفرط المشرف على العبادة لا يزال من الممكنات بل من المحتمات .

وإنى أقول : إنه وإن رأينا كثيرا من أبطال العصور الأخيرة قد ظهوروا في الثورات وكانوا ثوارا ، فإنهم بفطرة الله أبناء نظام لا ثورة ، واشتغالهم بالثورة بلية عليهم ومصيبة . إذ يرى أحدهم في الفتنة وكأنه فوضى ، وما هو بفوضى ولا كانت الفوضى قط من شأنه ، ولكن جوا من الفوضى يحيط به ، وعقبات منها لا تزال تعتاقه وتعرقل مسعاه ، وهو عدو الفوضى وخصمها ، وإنما النظام عمله وظيفة كل إنسان . وما خلق الله الإنسان إلا ليصلح الفاسد ويلم الشعب ، ويعمد إلى الشيء المختلط فيصبيه في أبداع قالب من النظام ، ويلقيه في أكمل صورة من التنسيق والإحكام . والإنسان رسول النظام ، أو ليس كل ما يصنع المرء في هذه الدنيا هو تنسيقا وتنظيما ، فالنجار يعمد إلى الشجر الغليظ الأشعث فينعم نخته وتمليسه ، ويحسن تقديره وتصويره ، ويجيد خرطه وصقله ، ويقبله في أعجب القوالب والصور ، ويتركه ذا نفع للناس ووظيفة في المجتمع ، وقد خلقنا الله جميعا أعداء الفساد والفوضى . وإنه لمن البلية علينا جميعا وسوء الحظ أن نصرف عن التنسيق والتنظيم ، إلى التقويض والتحطيم ، وسوء الحظ في ذلك والبلية مضاعفة على الرجل العظيم الذي يكون حبه للنظام على قدر عظمته .

(١) ربي فعل ماض مبني للمجهول والضمير عائد على المذهب .

وكذلك نرى أن أشد أعمال الثورة الفرنسية جنونا كانت تسيير نحو النظام . أقول وليس رجل من أولئك الثوار قد طار فى دماغه جنون الحق والفتك إلا وهو مدفوع فى كل حركاته نحو النظام منحذب إليه ، وكيف وما حياته نفسها إلا مسيرة نحو النظام ، بل لهى النظام ذاته . إذ أن الفوضى هى الفساد هى الموت ، وما من فوضى تنور إلا ويجعل الله لها قطبا تدور عليه فتتحول بفضله نظاما . وما دام الإنسان إنسانا فسيكون للثورة رجل ك نابليون أو كرمويل تختم به وتم . عجبا والله كيف تكون عبادة الأبطال فى أزمان الثورة ضربا من المحال فى عقيدة الشعب السائر ، ثم لا نلبث أن تبدو للعيان فلا يستطيع أحد إنكارها ، وأرى « الحق المقدس » معناه على وجه العموم « القوة المقدسة » . فإذا حسبت الإمارة والسلطة فى عصور الثورة انمحت وماتت ، إذا بها قد عادت إليك فى شخص نابليون أو كرمويل ، وإنما هى المظاهر الكاذبة والقشور قد هتكت وأتلفت وظهرت الحقائق والجواهر من ورائها صحيحة خالدة ، وتاريخ نابليون وكرمويل هو ما سننظر فيه الآن إن شاء الله ، وهو آخر أصناف البطولة كما قسمنا ، وإنى أرى فى تاريخ هذين البطلين ما يعيد إلينا عهد الملوك فى طفولة الأمم ، إذ يرينا كيف كانت تنشأ الإمارة فجر تاريخ العالم ، وكيف كانت تولى الملوك يومئذ .

كرومويل - نابليون بونابرت

يعلم الذين نظرُوا في كتاب الأبطال الذي وضعه الفيلسوف الإنكليزي توماس كارليل ، وعربه الفاضل محمد السباعي ، وأخرجته للناس مكتبة البيان أننا انتهينا فيما أظهرناه من هذا الكتاب إلى الكلام على كرومويل ونابليون بونابرت . وأنا الآن إتماما للفائدة ، ولأن كارليل خير من كتب على نوابغ العالم ، وكرومويل ونابليون هما من أنبغ النوابغ ، آثرنا أن نتحف قراء البيان بتلك الكلمات الإلهية التي خرجت من قلب ذلك الرجل الإلهي (كارليل) عن كرومويل ونابليون . قال كارليل تمهيدا للكلام على كرومويل .

* * *

لقد حدثت في إنكلترا حروب داخلية كثيرة : حروب الوردة الحمراء ، والوردة البيضاء ، وحروب سيمون دي مونتفورت - حروب ليست من الأهمية بمكان . ولكن حرب الخوارج (البيوريتان) كان لها من الخطارة ما لم يكن لغيرها . حتى ليحوز لي أن أسميها جزءا من تلك الحرب العظيمة العامة التي ليس إلا منها يتكون تاريخ الدنيا الحر الصميم - حرب الإيمان ضد الكفر ! جهاد حزب الله المتمسكين بالحقيقة ضد الكذبة الفجرة العاكفين على المظاهر والقشور . وقد لا يرى الكثيرون في خوارج إنكلترا إلا عصابة سفلة غلاظا فظاظا مولعين بهدم الرسوم وإتلاف القوالب والأوضاع ، وأجدر بهم أن يدعوا أعداء الرسوم الكاذبة . ولعلنا نجد لهم عنرا في احتقارهم البطريق « لود » زعيم الديانة إذ ذاك ، وحتقهم عليه وعلى أميره الملك تشارلس الأول . و « لود » هذا هو في رأبي ضعيف العقل منكود الحظ وما هو بالخائن اللقيم ، وإنما هو رجل أحمق ؛ وأكبر حمقه التمسك الأعمى بمذهبه والاستبداد الممقوت برأيه ، وهو كناظر مدرسة لا يرى في العالم شيئا إلا قواعد مدرسته ورسومها وأوضاعها ، معتقدا أن هذه هي قوام الدنيا وعماد الوجود ، وأن صلاح الكون مرهون بها . والمحنة العظمى والطامة الكبرى

ان الملك تشارلس الأول عمد إلى هذا الرجل الذى رأىه فى الكون والحياة والوجود هو ما ذكرت ، وجعله الرئيس لا على مدرسة بل على أمة يدير من شئونها أكثرها إشكالا ، ومن حاجتها ومصالحها أشدها اعتياصا وإعضالا ، ويرى هذا الرئيس الشقى المسكين أن تدار تلك الشئون والمصالح بالقواعد القليمة والنظامات العتيقة ، بل يرى أن نجاحها فى إعلاء شأن هذه القواعد وتأييد أسبابها ، ثم تراه كالأحمق الضعيف يندفع بأقصى الشدة والعنف فى سبيل غايته لا يجيل رأيا ولا يعمل روية ، ولا يسمع نهيا ولا يصغى إلى نصيحة .

جاححا فى العنان لا يسمع الزجج - ولا يرعوى إلى الرواض هو كما قلت رجل أعمى التعصب أحمق الاستبداد ، يأبى إلا أن ينفذ قواعده المدرسية على نفوس الأمة - قائلا للشعب : تنفيذ قواعدى قبل كل شئ ! له الله من مستبد أحمق . أبى إلا أن يجعل عالم الله الطويل العريض مدرسة ، ويأبى الله أن تكون دنياه مدرسة . وبعد فيغفر الله له أفلا ترون أنه لقى من العقاب ما هو أهله ؟ (وبعد) فالحرص على الرسوم والأوضاع حميد مستحب إذ أنه من شأن الديانات زغيرها أن تلبس الرسوم والأشكال ، ولا مقام للإنسان قط إلا فى الأمكنة ذات الرسوم والأوضاع . ولست أحمد فى المذهب الخارجى (البيوريتانى) عريه من الأثواب والقوالب ، وخلوه من الرسوم والأوضاع ، بل أعيب ذلك عليه وأراه عورة أحق بالرحمة والأسف - فأما الذى أحمده منه فهو روحه ولبابه ، وكل لباب وجوهر فلا بد أنه يلبس زيا ويسكن رسما وقالبا . غير أن من الرسوم ما هو ملائم صالح ومنها ما هو غير صالح ولا ملائم ، والحد الفاصل بين هذا وذاك هو أن القالب الذى ينمو وحده حول الجوهر بقوة الطبيعة ، يحمىء ملائما لطبع الجوهر موافقا لغرضه وغايته ، فهو لذلك حسن صالح . وأما القالب الذى يجعله يد الإنسان حول الجوهر عمدا فهو قبيح فاسد ، وإنى لأنشدكم الله أن تأملوا ذلك وتعموا فيه النظر ، فإنه الفارق ما بين كاذب الرسوم وصادقها - بين الإخلاص المحض وبين المظهر الباطل فى جميع الأمور والأشياء .

نعم يجب أن يكون فى الرسوم عنصر صدق وباعث شديد من الحق ، وسأضرب لكم مثلا : الخطابة ، فماذا تقولون - أعزكم الله - فى الخطيب الذى

يهي الخطبة من قبل إلا أنه سوأة وآفة ؟ ثم ماذا تقولون في الرجل المتصنع الابتسام المتكلف الانحناء للضيوف والزوار إلا أنه آفة كذلك وسوأة ؟ وإذا كنتم تعدون مثل هذين عورة وبلية ، فما قولكم في رجل يأتيك في أمر من أجسم أمورك ، في أمر الدين والعبادة مثلا ، يأتيك وقد غمر جلال الدين روحك وحير لبك وألجم لسانك ، فإنك مطرق حائر ساكت من شدة الانفعال والوجد وفرط التأثر والطرب ، مفضل السكوت على الكلام ، واجدا لسان الصمت أفصح وأعرب عما يكتنه صدرك ويضمرة حشاك من ذلك الوجدان العظيم والشعور الجسيم — يأتيك وأنت في هذه الحال الشديدة فيتعرض لأن يعرب لك عن مكنون وجدانك بكلام باطل ؟ ماذا تقول لمثل هذا الرجل ؟ وماذا عندك له إلا الطرد والإبعاد ؟ لا أبعد الله غيره — بلى ليذهب ذلك الرجل عنك إذا كان يحب نفسه ! إنما مثله مثل من يأتيك وقد فجعتك المنون في واحدك ، فأنت من شدة الحزن ملجم اللسان جامد العين ، فيقيم لك احتفالا بشعائر الحداد مؤلفا من ألعاب قدماء اليونان على هيئة يونانية قديمة . فمثل هذا الفضول والزور والتصنع جدير بالقت والإنكار . وهو عين ما كانت تسميه الأنبياء وثنية — أى عبادة القوالب الفارغة والصور الجوفاء — تلك الذى يرفضها وسوف يرفضها كل مخلص صادق ، وكذلك يمكنكم أن تفهموا بعض الفهم أغراض أولئك الخوارج ومقاصدهم ، فترون فى الرئيس «لود» ودأبه فى تأييد الكاثوليكية وحواشيها من تلك الرسميات والإشارات والانحناءات والشعائر — ناظر المدرسة المصر على تنفيذ قواعده ونظاماته لا القسيس الحر المخلص المعنى بجوهر الدين صافحا عن القوالب والقشور !

ولم يطق الخوارج هذه الرسوم فداسوها بالنعال ، وإنا لنعذرهم إذ جعلوا يقولون : لا رسم مطلقا خير من هذه الرسوم . وقد جعل خطباؤهم يمتطون صهوات المنابر عارية مقفرة إلا من الإنجيل يحملونه فى الأيدي . وهل ترون فى الكلمة تخرج من صميم فؤاد الرجل فتصيب حبات القلوب إلا أكمل مظاهر الدين وأجل صور العبادة ؟ وعندى أن أحشن الحقيقة وأعراها خير من أنعم الرسوم وأثرها . هذا وإن الحقيقة متى وجدت فهى الكفيلة لنفسها باللباس والكسوة ، ومتى وجد الإنسان الحى كان كفيلا لنفسه باللباس — إذا لم يصبها لدى الغير

أخذها بيده من مواد الأرض وصنعها بكفه . فيما أن تجيء بالثوب وحده فتدعى أنه ثوب ورجل - ا - نحن - أعزكم الله - لا يمكننا أن نحارب فرنسا بجيش مؤلف من ثلاثمائة ألف ثوب أحمر .. ولا نجروء على تقديم هذه الثياب إلى ساحة الحرب إلا إذا كان فيها ثلاثمائة ألف رجل حتى يتنفس ا وإني لا أزال أقول إنه لا ينبغي للثوب أن ينفصل عن الجوهر ، ولا للرسم أن يطلق الحقيقة ويبين منها . وإذا فعلت الرسوم ذلك قام لها أناس فتاروا ضدها على أنها أكلوبة وزور . وكذلك ترون أن حرب الخوارج والرئيس « لود » لم تك فى الحقيقة إلا حرب الثوب والجوهر - حرب الرسم والحقيقة - حرب الباطل والحق - حربا ضرورسا ثارت فى إنكلترا حينذاك واستمرت حقبة من الدهر ، وعادت علينا عواقبها بالنفع الجرم والخير الكثير . وكان الجيل الذى أعقب عصر الخوارج ليس بخليق أن يزن أعمالهم بقسطاس العدل . وكيف نرجو من مثل تشارلس الثانى ورجاله أن يعرفوا أقدار الخوارج أو يفقهوا معانى أعمالهم ؟ وأنى يكون ذلك الحكم العادل والنظر الثاقب من فئة كان لا يخطر بأذهانهم أن فى حياة الإنسان ذرة من الحق والصدق والمعانى المقدسة ؟ لقد ظل هذا الملك وأولياؤه يمثلون أشنع التمثيل بالمذهب البيوريتانى (مذهب الخوارج) كما يمثلون برجاله - فلو شهدت الحال إذ ذاك لرأيت البيوريتانية مصلوبة على الأعواد كأجساد أربابها . ولكن الصلب والتمثيل لم يعق من مسير نتائجها . لا بد للعمل الصالح من أن تسير آثاره مهما مثلت بأهله وأصحابه . نعم إنا لنطرح البصر ففسرنا محاسن آثار أولئك الخوارج ، ونرى الدستور والحرية والسعادة التى تتمتع بها الآن أغراسا زرعتها قرائحهم وسقوها طورا بأوعية الدموع وتارة بسجال الدماء . وهم الذين سنوا المذهب القائل بأن جميع الناس أحرار بالفعل أو سيكونون أحرارا يوما ما - أحرارا تقوم حياتهم على أمن أساس من الحق والعدل لا التقاليد والباطل ! هذا وكثير غيره من حسن آثار الخوارج وجيل نعمهم علينا .

والواقع أنه اتضح مآثر الخوارج هذه وعلت فى النفوس مكانتهم وضرحت أقذاء التهم عن حواشى أعراضهم ، واستنزلت عن أعواد الصلب ذكرى عهدهم واحدا بعد واحد . بل لقد قدست أسماء بعضهم وعدوا ضمن أولياء الله المصطفين

. وحسب من الأبطال أمثال إليوت وهامبدن وبيم ، حتى ليدو وهانشون وفان أولئك القساوسة السياسيون الذين إليهم يعزى ما نعلم به اليوم من حرية البلاد . أفيجرؤ اليوم إنسان أن يلوث بالدم أعراض هؤلاء ؟ وهكذا أصبحت لا تكاد تجد من بين القوم إلا من له أنصار يقومون بعذره ، وشيعة تشيع فى الناس فضله وتشيد له صروح الإجلال والإكبار . كلهم قد برأ الله ساحته ، وجمل فى النفوس مكانته ، وأعذب فى الأفواه ذكره ، وأدال له إلا واحدا هو سيد الجميع وفتى القوم - الملك الأكبر رافع لواء الحق - أوليفار كرومويل . فإنى أرى عرضه لا يزال بحال الألسن السالقة الأظفار الممزقة ، وأرى ذكراه لا تزال مصلووية فى أعالي الجذع وماله من عاذر ولا نصير ، والناس مجموعون عليه بالذم والنعير ، وأنه شرير خبيث . هم لا ينكرون أنه كان رجلا كفؤا حازما شجاعا مدبرا ، ولكنه خان العهد فى نظرهم نقض العقد ، وكان فيه أثره وجشع وغدر ومكر وتصنع ونفاق . حول ذلك الجاد العظيم المبذول فى سبيل الحرية إلى طريق منفعة الشخصية ، بهذه الخلال وأسوأ منها ينعنون أوليفار كرومويل ، ثم يقارنونه بالزعماء واشنجتون وسواه ، ولا سيما بالأبطال بيم وهامبدن وإليوت الذين سلبهم ثمار أعمالهم العالية ، ثم أوسع تلك الثمار إفسادا وتشويها .

وليس بعجيب أن يكون ذلك الرأى القبيح هو رأى القرن الثامن عشر ، والشئ من معدنه لا يستغرب ، وما قلنا فى خدام غرفة الملك منطبق تماما على الرجل الملحد ، كلاهما لا يفهم معنى البطولة ولا يعرف البطل إذا رآه ! والخدام ينتظر أن يرى للملك ثيابا فاخرة مرصعة بالذهب والفضة ، مرصعة بالدر والجوهر ، وحاشية كثيفة من الخول والأتباع ، وأبواقا تصيح وطبولا تفرع ، والرجل الملحد - رجل القرن الثامن عشر - ينتظر أن يرى للإمام الرئيس قواعد محترمة ، أو ما يسمونه (مبادئ) . وينتظر أيضا أسلوبا خطايا نعتة الناس بالجوودة والبراعة ، يحاج عن نفسه ويدافع فى أفصح بيان وأنق لهجة ، فيفوز باستحسان قرن كاذب متصنع كالقرن الثامن عشر ، وجملة القول إنه ينتظر ما ينتظره الخدام - أعنى زخارف ظاهرية وأثوابا وقشورا وقوالب ورسوم ليست من الحق فى شئ . كلاهما يريد الزخرف والزينة السطحية ليقر بأن صاحبها

ملك وبطل ، فإذا برز لهم الملك فى سيمياء القشف والخشونة ، وزى الفقراء والصعاليك أنكروه وقالوا ليس بملك .

وما كنت قط لأقول صراحة أو تلميحا أدنى ما يحيط من أقدار رجال كإبيوت . هامبدين وبيم ، أولئك أقر لهم بالنفع وأشهد لأعمالهم بالنفع ، ولقد قرأت كل ما يسر لى مما كتب ، ونيتى وإرادتى أن أستلذ عهدهم وأعجب بأنبيائهم وسيرهم . أعبدهم عبادة الأبطال . هذه نيتى وإرادتى ولكنها لسوء الحظ لم تتحقق ، نعم لقد كنت أحمد ظواهر أولئك الرجال ولكن نفسى لم تجد تمام الارتياح لبواطنهم ، ولا أنكر نهم كانوا عصبية كراما أمجادا يمشون الهوينى عليهم برود العزة وسراويل الجلال ، فإذا طفقوا فما شئت من حكمة ولب ، تجرى الفصاحة بين قلوبهم وأستهم ، وتجول لفلسفة بين لهواتهم وشفاهم ، ويتحدرون بالخطب البرلمانية تحدر السيل ، ويتدفقون بها تدفق اليعسوب ، ويأخذون فى الأغراض التشريعية والاقترحات الإدارية فيطيلون عنان القول ، ويمألون الدلو إلى عقد الكرب (١) ، مرسلين الحكمة فى عرض كلام كالجوهر المنثور ، تجول على صدره قلائد البيان ، ويطرد فى أثناؤه ماء البديع ، ويتحير فى حواشيه رونق الحسن - فحبذا هم من رجال أساطين علم وأئمة تشريع وأولى عزة ومجد وجلال . ولكن قلبى بعد كل ذلك لا يخف لهم ولا يجيش أحشائى ولا تهتز حوائجى ، اللهم إلا خيالى فإنه قد يحاول أن يجد لهم بعض الإجلال . وأى رجل فى وجود تعزوه الأريحية ويهزه الطرب ويلتهب قلبه شوقا لهؤلاء النفر ؟ كلا لقد أصبحت راجهم وأنباؤهم غاية فى الجمل والثقل : نعم إن بلاغة أولئك الفحول قد تكون أبهر لأشياء وأروعها ولكنها شئء ثقيل - ثقيل كالرصاص ومجذب كالصخرة الملساء . جملة القول إنه لم يبق فيها لقراء العصر غبار لذة ولا ظل مطرب ومستمتع ! فإن أبيت لا امتداحها فقل إنها كانت كأسا رشف الدهر أطيبها وأعذبها فلم يبق إلا صبابة مرة كدرة ! فسلام على أولئك الفحول ، ولندعهم ثاوين مضاجع مجدهم وشرفهم ، ولتقبل

(١) قطعة من حبل تعقد بطرف الرشاء أى حبل البئر وتشد بها الدلو مثل فى توفية الشئء

حقه وهو من قول العباس بن عتبة بن أبى لهب :

من يساجلنى يساجل ماجدا . يمأل الدلو إلى عقد الكرب

على الرجل الخشن المتوعر الطريد المنبوذ أوليفار كرومويل فإن فيه وحده ضالطنا من المادد الإنسانية ، وكنوز الكرم الصراح والبطولة العالية . إن فيه لذلك وإن لم يكن فيه فصاحة وكتابة وبلاغة وخطابة ، وبراعة وخلاصة . وكم من بلغاء مصقولى جوانب اللسان رفاق حواشى الطبع ليس وراهم كبير فائدة ، وما سرنا من إنسان نظافة كفيه إذا كان لا يقرب الأعمال إلا لابسا قفازه .

وبعد فلست أرى فى رضى القرن الثامن عشر عن خطباء الخوارج وزعمائهم إلا شعبة من رسميات ذلك القرن وكفرياته ، وكيف وهم (رجال القرن الثامن عشر) يعيروننا أن يكون سبب دستورنا وحرزتنا هو « الخرافات الدينية » يقصدون بذلك مذهب الخوارج من « حرية العبادة » ، ويقولون : هلا كان لحريرتكم مصدر أشرف وأسمى من « الخرافات الدينية » مثل « حرية وضع الضرائب » ؟ ويقولون : إنه كان من الوهم والخرافة والتعصب الأعمى والجهل المطبق بالفلسفة الدستورية أن يجعل آباؤنا الأول غايتهم الوحيدة هى « حرية العبادة » ، وإنما الغاية الوحيدة فى مذهب القرن الثامن عشر هى حرية وضع الضرائب « أعنى امتناع الإنسان عن دفع الدراهم من كيسه حتى يبين له السبب الذى يدفعها من أجله ، فأناس يجعلون هذا أول حقوق الإنسان لا شك جهلة أغبياء ، وأرى أنه لن تكون الدراهم وحدها قط باعنا للعاقل على أن يثور ضد حكومته . وما زال الإنسان يرضى بدفع المال لحكومته بشرط أن يبقى له سداد من عوز . وإنى أجد أن الإنكليزى حتى فى هذه الأوقات إذا لم يرض أن يدفع للحكومة ضرائب عديدة من غير أن يبين لها أسباب دفعها ، اضطر إلى أن يهاجر وطنه إلى غيره من بلاد الله . وكأنى بالإنكليزى يقول : « جابى الضرائب ! المال أخذوا مالى . بما أنكم قادرون على أخذه ومحتاجون إليه خذوه واذهبوا ودعونى وشأنى ، اتركونى وشغلى فإنى لا أزال فى دارى ووطنى قادرا على تجديد المال بالعمل . قادرا على العيش السهل المرضى بعد كل ما سلبتمونيه » . بهذا الكلام يجيب الإنكليزى رجال السلطة إذا أتوه يطلبون ماله ، فأما إذا جاعوه يقولون له : « اعتقد هذه الأكلوبة ، وأحسب أنك تعبد الله وأنت لا تعبدّه . ولا تؤمن بما تراه أنت أنه الحق . وإنما بما نراه نحن حقا أو ندعى أننا نراه حقا ا » كان جديرا أن يجيبهم

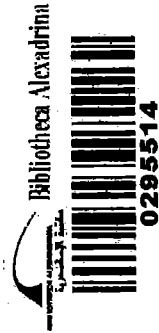
بقوله : « كلا ويمين الله . أنتم فى حل من مالى تأخذونه متى شئتم . ولكنى لا أبيع دينى ولا أحسر عقيدتى . أما المالى فذلك غنيمة باردة لأى قاطع طريق يتهددنى بسلاحه . ولكن نفسى ملكى وملك الله ، ودينى لن تغلبونى عليه ولا تحددونى عنه ما دام فى حلقتى نفس يتردد ، وسأدافع عنه بأخر قطرة من دمنى .

رقم الإيداع ٧٠٠٧ / ٩٤

I . S . B . N

977 - 11 - 0867 - 0

مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الشمس ٣٥٥ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السخار وشركاه